تاريخ المصريين ١٨٢

الحرب الصليبية الثالثة

(صلاح الدين وريتشارد)

الجزء الثانى

ترجمة وتعليق

حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الحرب الصليبية الثالثة

(صلاح الدين وريتشارد)

الجزء الثانى

Itinerarium Peregrinorum
et Gesta Regis Ricardi.

ترجمة وتعليق وتحقيق
دكتور
حسن حبشى
أستاذ كرسى الإسلامى والوسيط
بجامعة عين شمس



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

تقـــــــديم

يسرنى أن أقدم للقارئ الكريم هذا الجزء الثـــانى من كتاب الحرب الصليبية الثالثة « صلاح الدين وريتشارد » ، الذى ترجمه الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أســتاذ كرسى التاريـخ الوسيط بجامعة عين شمس ، وقد ســـبق أن نشرنا الجزء الأول فى هذه السلسلة من « تاريخ المصريين » وهو يعد وثيقة تاريخية على جانب عظيم من الأهمية .

وكمـا ذكرنا فى تقديمنـا للجزء الأول ، فان مؤلف الكتاب مجهول ، ولكنه كان مقاتلا فى جيش ريتشارد قلب الأسد . ولذلك فالكتاب يصب اهتمامه على الملك ريتشارد ، حتى ليعد ترجمة له .

ويختلف هذا الجزء الثانى عن الجزء الأول ، بمشاركة كل من صلاح الدين وريتشـــارد فى صنع الأحداث ، وهو يعطى للقارئ المتخصص والمثقف الفرصـــة لمقارنة مادته بمادة المصادر العربيـة والاسلامية التى تناولت تاريخ الحرب الصليبية الثالثة .

وينقسم الى أربعة أقســام ، أو كتب ، تبدأ من حيث انتهت فصول الجزء الأول الذى كان مكونا من كتابين فقط . أى تبدأ من الكتاب الثالث وتنتهى بالكتاب السادس .

ويتكون الكتـاب الثالث من ٢٣ فصـلا تبدأ بوصـول الملك ريتشـارد الى عكا ، وتنتهى برحيـل ملك فرنسا مع رهائنه الى صور . أما الكتـاب الرابع فيتكون من ٣٦ فصـــلا ، تبـدأ بقتل

الصليبيين رهائن صلاح الدين ، وتنتهي بخديعة صلاح الدين للملك ريتشارد ومتاعب جيش ريتشارد . أما الكتاب الخامس فيتكون من ٥٤ فصلا ، ويبدأ بتركيز جيش ريتشارد على اعادة بناء عسقلان ، ورحيل الفرنسيين وتخليهم عن الجيش . وينتهي بوصول ريتشارد وجيشه من « تل الصافية » الى « بيت نوبة » .

أما الكتاب السادس ، فيتكون من ٣٧ فصلا ، ويبدأ بمحاربة الملك ريتشارد ورجاله الترك ، وينتهي بعودة ريتشارد الى وطنه .

والكتاب على هذا النحو يعد وثيقة تاريخية مهمة عانى الأستاذ الدكتور حسن حبشي متاعب كثيرة في ترجمتها الى العربية ، وفي تحقيقها ، ولكنه خدم بها تاريخ الحروب الصليبية أجل خدمة .

وأملي أن يجد فيه القارىء المتخصص والمثقف ما ينشده من متعة وفائدة .

والله الموفق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

المقدمة

للدكتور حسن حبشي

أما بعد فهذا هو بقية الكتاب الذى كتبه مؤلفه الذى لازال مجهولا – عما يعرف بالحرب الصليبية الثالثة التى تقاسم عبأها صلاح الدين وريتشارد ملك انجلترا . وطبيعي – والكاتب انجليزي كما أثبتنا في مقدمة الجزء الأول – وقد ساهم في هذه الحرب كمقاتل في الجبهة الصليبية – أن ينصب اهتمامه على صاحبه وسيده الملك النصراني حتى كاد أن يكون الكتاب ترجمة له .

ينفرد هذا الجزء عن سابقه والذى يظهر في العربية لأول مرة بمشاركة العاهلين مشاركة فعالة في صنع أحداث هذه الفترة القصيرة في عمرها ، الضخمة في خواتيمها ، وان جرت هذه الخواتيم على غير تنسيق من هذين الرجلين ، وانما تظهر فيها يد القدر توجه الأحداث هذه الوجهة التى عرفناها بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

وتظهر قيمة هذا الكتاب بجزئيه حين مقارنته في مادته بالمصادر العربية الاسلامية الأصلية ، وأترك للقارىء مواصلة النظر في الكتاب كقصة في جزأيه ، راجيا أن يكون باعثا لمن ينظر فيه على الخروج من مطالعته بمزيد من علل الصراع العالمي لحقبة معينة من التاريخ الذى هو سلسلة مستمرة من الصراعات التى تشوه وجه الانسانية . ولكن لابد من أن نقرأها لنتدبرها عسى أن تقلل من حدة الصراع . ولتنعم الانسانية بالراحة .

الكتـــاب الثـــالث

ف ١

وصول الملك ريتشارد الى عكا (١)

حين تم ترميم السفينة (الاسلامية) وتكلل كل شيء بالنجاح أسرع الملك ريتشـــارد وجمع حاشيته والبشر ويعلو جوههـــم متجهين نحو عكا التى كانوا يتحرقون شوقا اليها ، فلما كانت الليلة التالية أرسى الأسطول أمام « صـــور » ، حتى اذا كان الصـــباح تأهبوا للابحار فأقلعت بهم السفن ، وما كادوا يسيرون الا وبدت لهم الاســكندرونة التى أشرنا اليهـا من قبـل (٢) ، فلمـا جاوزوا « الزيب » Casal Inbert « تجلى لهم برج مدينـــة عكا وكان برجا شاهقا ، ثم أخذت بقية استحكامات المدينة تلوح للناظر واحدة اثر أخرى .

كانت عكا محاصرة بقوة عسكرية هائلة « من كل أمة من الأمم المسيحية » التى تحت السماء (٣) ، وكانوا الصفوة المنتقاة من هذه الأمم المؤهلين للقتـــال أحسن تأهيل ، وممن اعتـــادوا بذل الجهد الموصول والعمل الشاق وكانوا قائمين منذ أمد طويل على حصار عكا ، وقد كابدوا فى حصارهم هذا شـــدة ما بعدها شدة ، لاقوا

فيها كثيرا من المحن والأهوال المستمرة التى تتمثل فى انعدام المئونة وغير ذلك من الشدائد التى ذكرناها من قبل ·

كذلك رأوا العسكر التركى وهم واقفون وراء الجيش المسيحى فى جموع لايحصيها العد وقد غطوا السهول والجبال واكتظت بهم الوديان وغصت بهم التلال ، ونصبوا فى كل بقعة خيامهم المتباينة الأشكال والألوان ·

كذلك رأوا (٤) صلاح الدين نفسه ومخيمات أخيه [الملك العادل سيف الدين أبى بكر أحمد بن أيوب] وتقى الدين عمر (بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى الصلاح) وكان كبير أهل الوثنية والذى ظل يرقب الساحل والميناء ، هو الذى شن العديد من الغارات على المسيحيين وكان يراوحهم ويغاديهم بالهجوم عليهم · فوقف ريتشارد يتأمل عسكرهم فأدرك ما هم عليه من الكثرة فلم يبخسه قدر ·

حين أعلن أن ريتشارد وصل الى الميناء خرجت مواكب كبار الفرنسيين وأشرافهم وعسكرهم عن بكرة أبيهم وعلى رأسهم جميعا ملك فرنسا ، وقدموا مرحبين به والفرحة تملؤ جوانحهم ، ولما كانوا قد ظلوا يتحرقون شوقا الى وصوله فقد غمرتهم البهجة وعمهم السرور فانطلقوا لمقابلته ·

فـ ٢

الفرحة والاحتفالات التى حيوا بها الملك عند وصوله (٥)

كان رسو الملك ريتشارد وصحبه يوم السبت السابق للاحتفال بعيد الرسول الطوبانى « برنابا » فى أسبوع

عيد العنصرة [الموافق الثامن من يونيو ١١٩١ م] واهتزت الدنيا انتشاء بفرحة المسيحيين ، واكتسحت النشوة الغامرة الناس أجمعين ، وحمدوا طالعهم · وتمثل ذلك فى دقهم الطبول ، « وبفرح خرجوا وسلام حضروا » (٦) ، وعمت البهجة الناس قاطبة لأنه « حضرت ثروة جميع الأمم » ·

أما الترك المحاصرون فقد استولى عليهم الفزع (٧) وباتوا ليلتهم تساورهم الهموم ، كما أزعجهم وصول الملك اذ أيقنوا أنهم لن يعودوا قادرين على دخول المدينة أو الخروج منها بسبب ما تحت يد الملك من الجند الكثير والشوانى والأغربة ·

وترافق الملكان من عند الميناء فى سرور ، وقد أظهر كل واحد منهما للآخر تقديره له واحترامه اياه ، ثم انصرف الملك ريتشارد الى الفسطاط الذى كان قد أعد له ليتدبر خطط الحصار ، ولم يفته التخطيط للاستيلاء على المدينة فى أقصر وقت من حيث الوسائل وآلات الحصار الواجب استعمالها ·

ان اللسان ليعجز والقلم يكل عن أن يصف فرحة الناس بوصوله ، وكانت الدنيا هادئة تلك الليلة ، والجو أصفى ما يكون ومما هو عليه فى العادة ، كما لو كان يشارك هو الآخر فى الفرحة ، فكنت تسمع دق الطبول من هذا الجانب ، ونفخ الأبواق من الجانب الآخر ، وصدى النفخ فى المزامير يشق الأفق فتختلط الأنغام بعضها ببعض حتى لكأنها سيمفونية (٨) رائعة ، وكان من الصعب أن يصادف الانسان انسانا لا يلهج لسانه بالمديح ، وتصفق النشوة فى صدره ويعبر عن ذلك بطريقته الخاصة ، فكان البعض ينشدون أغانيهم القومية الشعبية ، وغيرهم يقصون ملاحم الأبطال القدماء ، كانما يفعلون ذلك لحمل الناس على تقليدهم · وانطلق غير هؤلاء

وهؤلاء يوزعون الخمر على المنشدين فى أكواب غالية ، وظل غيرهم عاكفين على الرقص واللهو طول ليلهم ، واختلط الحابل بالنابل ، والفقير بالغنى ، والصغير بالكبير دون نظـــر الى تبـاين المكانة والمراتب .

وعمل على زيادة الفرحة استرداد الملك ريتشـــارد لقبرص واعادتها الى سلطاننا وذلك بسبب ما لهذه الجزيرة من نفع عظيم لنا ، بل ان استردادها كان ضرورة ملحة لما تؤديه من العون الكبير للجيش .

وبالاضافة الى مظاهر الغبطة التى ملأت قلوب النـــاس فقد بددت الشموع والمشاعل المضاءة فى كل مكان ظلمة الليل البهيم حتى لكأن الديجور استحال نهارا ، وخيل للترك أن الوادى كله شـــعلة نار .

فـ ٣

خضوع البيازنة (٩) للملك ريتشارد ، والترك يدفعون شعبنا للحـــرب

لقد ملأت عظمة الملك ريتشارد وعلو شـــأنه نفوس البيازنة دهشة وتعظيما له فجاؤوه يعلنون اليـــه ــ وبين يديه ــ طاعتهـــم واخلاصهم له ، وأنهم حين يبايعونه بالخضوع له انما يفعلون ذلك بمحض ارادتهم ومن تلقاء أنفسهم ، كما أخذوا العهد على أنفسهم بأن يظلوا فى خدمته .

أما الأتراك المكرة فقد كرهوا من الملك ريتشارد ما يتمتع به من هيبـــة ، ولعل هذا هو الذى دعاهم لأن يتظاهروا كاذبين ان

حضوره قوى فى نفوسهم العزم على المجابهـــة ، أو لعلهم أرادوا بذلك دفعه للقيام بمعركة عاجلة ، ولذلك فان جماعة منهم خرجوا صباح يوم الأحد التاسع من يونيو عساه يخرج لمهاجمتهم وراحـوا يتجولون فى النواحى التى هى خارج المدينة ، ويطلقون ســـهامهم عشوائيا كما لو كانوا يتدربون على الرمى ، وكانـوا يحاولون بين آونة وأخرى اجتيـاز الخندق العميق ، متحدين بذلك رجالنـــا أملا منهم فى أن يثيروهم بهذه الأعمال الحمقاء (١٠) .

فـ ٤

العطايا التى وزعها الملكان على الفرسان المحتاجين ثم مرض الملك ريتشـــارد

انضم جيشا الملكين أحدهما الى الآخر وصارا جيشـا مسيحيا واحدا ، وكان ملك فرنسا قد وصل (الى هنا) بعد ثمانية أيـام من عيد الفصح ، وفى صحبته كونت فلاندرز (فيليب الالزاسى) ، وكونت سـنت بـول (هيج الرابع) ووليم دى جـارلاند . Garland ووليم دى بار (١١) Barres ، ودروجو دى امين Amiens ووليم دى ميرلو Merlo و (روترو الثالث) كونت بيرش Rotrou .

كذلك عاد معهم رجل آخر سبقت الاشـارة اليه واعنى به المركيز الذى استولى على صور ثم راح يمد ناظريه الى عرش بيت المقدس تطلعا اليه وطمعا منه فيه .

لكن لماذا تراني أعدد أســماءهم وواحدا فواحدا ؟ .. انه لم يكن هناك من رجل له سطوة وجاه ويتمتع بالشهرة فى فرنسا الا وجاء فى لحظته ، أو بعد حين للاستيلاء على عكا .

ولما حل عيد العنصرة التالى قدم كما قلنا – الملك ريتشارد على رأس قوة حربية كبيرة ، ثم شاع بعد حين أن ملك فرنسا منح كل فارس ثلاث قطع ذهبية شهريا مما ترتب عليه ميلهم جميعا اليه وعرفانهم بجميله عليهم ، ولم يشأ الملك ريتشارد أن يكون ثم من يشاوه أو حتى يساويه فى أى ميدان من ميدان التعاملات فأصر بأن ينادى فى جميع الجيش أنه رتب مبلغا ثانيا قدره أربع قطع ذهبية شهريا لكل فارس من الفرسان يريد الانخراط تحت رايته دون نظر أو اعتبار للبلد الذى جاء منه .

بهذه الطريقة أصبح الملك ريتشارد موضع ثنـــاء من الجميع حتى قيل انه فاق كل أحد ســواه لا فى ميزاته وفضله فحسب بل وأيضا فى هداياه التى سخى بها كفه وهكذا بز الجميع فى خلقه النبيل . وقال الناس بعضهم لبعض « ان هذا هو الرجل الذى طال انتظاره وتشوقنا اليه » ، كما قالوا « اذا كان الأمر كذلك فمتى اذن يكون الهجوم ؟ ، ولماذا الانتظار وقد جـاء أبـرز ملوك الدنيا وأشجعهم طرا فى القتال ؟ ، فلتكن اذن مشيئة الله وارادته » .

لقد تعلقت آمال الناس قاطبة بالملك ريتشارد الا انه لم تمض عليه أيام قلائل حتى داهمه المرض وكان مرضا شــديد الخطورة يســمونه ارنـولديا Arnoldia (١٣) بسبب منـــاخ الاقليـــم الذى لم يألفه ولم يوافق تكوينـــه الطبيعى ، إلا ان ذلك المرض لم يحل بينه وبين أن ينصب أمام باب المدينـة آلات رمى الأحجار والمنجنيق وان يشيد هناك حصنا ، وعنى كل العناية أن يقوم البناء سويا ، وتمت الترتيبات على أكمل وجه .

فـ ٥

بينما كان الملك طريح الفراش قام ملك فرنسا بمهاجمة المدينة هجوما عنيفا فقام صلاح الدين بالاغارة على الخنادق من الخارج وقاوم الترك الموجـــودين بالمدينـــة مقاومة شديدة وأحرقوا آلات الحصار مما أدى الى سقوط الملك فيليب فى براثن المرض حزنا على ما جرى (١٤)

لقد أبدى ملك فرنســـا تأففه وأظهر الضـجر من التراخى الطويل فى القيام بالحرب ، وأرسل الى الملك ريتشارد يخبره أن الوقت ملائم تماما للقتال ويشير عليه أن يصدر تعليماته الى عسكره بالهجوم ، فأجابه الملك ريتشارد انه لايزال عاجزا عن القيام بأى عمل بسبب الآلام التى لا تزال فى جسده وتهد قواه ، ولأن بعض قواته لازالت غائبة لم تستطع الوصول بسبب معاكسة الريح لها ، وان كان لا يزال يأمل فى وصول الأسطول قريبا جدا ، جالبا معه المعدات اللازمة لبناء آلات الحصار .

لكن الملك فيليب لم ير فى السبب الذى ســاقه الملـك ريتشارد ما يكفى لحمله على التخلى عن خطة الحرب ، ومن ثم أمر أن ينادى المنادى فى الجيش بالقيام بالهجوم ، فلما كان يوم الاثنين التالى للاحتفال بعيد القديس يوحنا المعمدان (الذى هو أول يوليو) نصب ملك فرنسا آلات حصاره وأمر الجميع ممن معـــه بتسليح أنفســهم فكنت تـرى حينذاك جموعا هائلة من المقاتلين المدججين بالأسلحة التى لا يحصيها العد مجهزة بكل ما هو ضرورى للحرب من سلاح وزرديات وخوذ كثيرة تبرق ، وكنت تسمع صهيل الخيول وترى فرســانا من خيرة الفرســان لم تقع العين على أمثالهم من

قبل ، وهناك المحاربون الكثيرون من أصـــحاب البـــاس الشديد والجرأة والأعلام الجمة والرايات المختلفة .

وصدر الأمر لبعضهم ان يبقوا فى المواضع التى حددت لهم للدفاع عن الخنادق الخارجيـــة مخافة هجـــوم مباغت يقوم به صـــلاح الدين أو تهديد يأتيهم من الجيش التركى . أما القوات المسلحة المعدة للقتال فقد أخذت تقترب من سور البلد وشنت عليه حملات عنيفة استعملت فيها النشـــاب وآلات الرمى بالحجـــارة وأخذت تقذف السور من غير توقف ، فلما أيقن الترك المحصورون انهم قادمون ضجوا ضجيجا بلغ عنان السماء ودقوا طبول الحرب فكان لدويهـــا دوى الرعد يملأ أجواز الفضـــاء ، وكان بريق السيوف يخطف الأبصار ، وقد عهد الى فريق منهم بمهمة لايتجاوزها هى ضرب الدفوف ودق الطبول واحداث جلبة عاليـــة ، واضرام النار ليعلو اللهيب . وكان ذلك علامة متفقا عليها من قبل اذا رآها صلاح الدين والجيش الموجود خارج البلد قدموا لمد يد المساعدة فلما سمع الترك الموجودون خارج البلد ما سـمعوا ورأوا ما رأوا تقدموا جميعا حاملين معهم كل شئ يلقون به فى الخندق ليطموه حتى يكون عبورهم أيسر وهجومهم على رجالنا أسهل ، ولكنهم عجزوا عن تنفيذ هذه الخطة ذلك ان فارسا من الفرســان المغاوير الذى لا يضارعه فارس فى بأسه ، واسمه « جوفرى دى لوزنيان » قاومهم مقاومة باسلة وردهم على أعقابهم ولم يمكنهم من اجتياز الحائل الذى كانوا قد استولوا عليه منذ قليل من أيدى رجالنا ، ففتك جوفرى هذا بعشرة من الرجال وقتلهم بفأس كانت فى يده ، وكان لايصيب أحدا الا أرداه صريعا ، كما أمسك بكثيرين غيرهم وأخذهم أحياء ، وتم له ذلك فى نشاط وثقة حتى لقد قال الناس انه لم يسمع قط بفارس بعد « رولاند » و « اوليفر » المشهورين استحق من الثناء

المتراس وان تم له ذلك بعد جهد شاق وصعوبة بالغة .
الجليل مثل ما استحقه « جوفرى دى لوزنيـــان » الذى استرد

أخذت جموع الترك فى التوافد بعضها أثـر بعض مـن غير انقطاع وان ظلت الخاتمة غير معـــروفة ، وكان القتـــال عنيفا ، والمصادمة بين الجانبين على أشدها ، فمن لكمات مفزعة الى صرخات عالية مما أسفر عن أن الذين كانوا يهاجمون المدينة ويبذلون أقصى جهدهم لطم الخنادق الموجودة خارج أسوار البلد اضطروا للارتداد والتخلى عما هم فيه من الهجوم ، لأنهم كانوا فى مسيس الحاجة الى قوات لضرب البلد ، وأخرى لحماية أنفسهم واتقاء ضربة تأتيهم من الترك الذين هم فى الخارج .

ولقد لاقيى كثير من الفرنسيين مصارعهم من جراء القذائف والأحجار والنبال والنـــار الاغريقيـــة التى راحت تنصب عليهم انصبابا ، فتعالى صراخ الناس وراحـوا يقولون « لماذا كان طول انتظارنا حضور الملك ؟ .. يا للأمل الأحمق !! . انهم ان يحضروا لن يجدونا فى حال نحمد عليها بل سنكون اسوأ مما كنا عليه .. ان كل ما نأمله الآن ونتمناه انمـا هو دون ما كنا نطمع فيه من من قبل » .

بينما كان رجالنـا الفرنسيون يلفون بسلاحهـم كان الترك يسخرون منهم ويعيرونهم أنهم لم يستطيعوا انجـــاز ما كانوا قد بدأوه ، كذلك قذفوهم بالنار الاغريقيـــة وراحوا يحطمون آلات حصار الملك الفرنسى واحدة اثر أخرى وهى الآلات التى كان قد أحكم صنعها ، كما أفسدوا غيرها من آلات الحرب ، ويقال ان ملك فرنســا ـ حين رأى ذلك ـ لم يملك نفسه من ان تتلظى غيظا ، وهاج هائجه فسقط مريضا واستولى عليه الذهول وألم به الضعف حتى لم يعد قادرا على امتطاء جواده .

مرض الملك يؤدى الى نكبة تلم بالجيش ولكنه يطمئن بوصول كثير من السنيكاس

تزايد تدهور معنويات الجيش ، وتخاذل العســـكر وحزنوا للوعكة الصحية التى ألمت بالملك اذ لم يكن ثم غيره من أمير أو دوق يستطيع أن يقوم مقامه ويكون ذا بأس ويحاول نصر الرب (١٥) .

وجاءت الأحزان بعضها فى اثر بعض وتراكمت حين وافى الموت المبكر كونت فلاندرز (١٦) ، (وكان ذلك يوم أول يونيو) فخيم الأسى على الجيش عند سـماعه هذا النبـأ ، ولم يخفف لوعه الحزن بعض الشىء الا وصول عدد كبير جدا من السنيكاس » (١٧) كما حضر كثير من الأساقفة وكبار الرجـال ليكونوا عونا ونجدة للمسيحيين ، وكان مع كل واحد أتباعه وقد جاؤا بعد رحلة آمنة ، وهاى ذى أسماء من حضروا :

أسقف ايفرو . وروجر دى تونى مع العديد من اخوته ، وأخوه الملقب بكورنيى وروبرت دى نيوبيرج .

وجورذان دى هوميست .

ورئيس حجاب تنكار فيل .

وروبرت ايرل ليستيستر .

وجيرارد (١٨) دى تالبوت .

ورالف تيســـون .

وجماعة من الفرسان مع المدعو تورولنس .

ورالف فيكونت شاتو دون .

وبرترام دى فيران . وروجر دى هاركورت .

والفرسان من أسرة دى برو .

ووارين فيتزجيرالد .

وجماعة من أسرة دى لامير .

وهنرى فينز نيكولاس

وايرنالد دى جراند فيل وجماعة من أسرة ستوت فيل .

ووليم مارســـيل .

ووليم ماليت .

ووليم بلوييز . Bloez

وشوتار دى لوريورا Loreora

وروجر دى ســـانى .

واندرو (١٩) دى شافنى Chavigny

وهيج لى برون (٢٠) Brun [دى لوزنيان] .

وجوفرى دى رانكون .

ورالف دى موليون .

ووليم دى روش .

وجوفرى دى لاسيل .

وهيج دى لافييرتيه Fierte وهو الذى ســـاهم فى الاستيلاء على قبرص ثم جاء منها الى عكا .

وكان الملكان لايزالا عليلين ولكن الرب حفظهما وأبقى عليهما حياتهما لمساعدة المسيحيين واسترداد المدينة .

آلات رمى الحجارة التى عند الملك وجيش الايمان يرمون فيحطمون البرج الملعون كما يحطمون جزءا طويلا من السور

نقه (٢١) ملك فرنسا بعد قليل من وعكته وصرف همته لبناء آلات الحصار كما وضع آلات رمى الحجارة فى أماكنها المناسبة ، ورتبها فأخذت تقذف ليلا ونهارا بلا انقطاع ، وكانت له من هذه الآلات واحدة رائعة يسميها « بجار السوء » ، وكان لأهل المدينة واحدة مثلها يسمونها بالقريب السىء وهى التى يستعملونها فى الغالب لضرب « جار السوء » بقذائفها القوية ، وظل الملك يرمم ما تحطم منها حتى استطاعت بقذائفها الموصولة ان تنال بعض الشىء من سور المدينة الرئيسى وتؤثر تأثيرا سيئا فى البرج الملعون .

واستطاعت آلة الرمى التى عند دوق برجنديا ان تؤثر تاثيرا ليس بالهين وأحدثت قاذفة أحجار الداوية خسائر فادحة فيما أصابته ، كما أن آلات الاسبتارية لم تكف أبدا عن الرمى مما بث الرعب فى نفوس الترك وانخلعت له أفئدتهم فزعا .

كان هناك الى جانب هذا آلة لرمى الحجارة ساهم الناس فى انشائها بأموالهم (٢٢) وكانوا يسمونها « آلة الرب » وكان يقف على الدوام الى جانبها قسيس ورع أشد الورع لايكف عن وعظ الناس وجمع الأموال لترميمها واستئجار رجال يجمعون الأحجار اللازمة لتقذف بها ، واستطاعت هذه الآلة ان تهدم من السور المجاور تماما للبرج الملعون ما يقرب من عشرة أمتار ، وكان لكونت فلاندرز آلة ممتازة لرمى الحجارة آلت بعد موته الى الملك ريتشارد ، كما انتهت اليه أخرى وان لم تكن تحاكيها فى الدقة

والجودة ، ولكن كانت الاثنتان تصبان بلا انقطاع وابلا من القذائف على برج مجاور لبوابة كان الترك كثيرا ما يستعملونها .

وظل الرمى مستمرا حتى أصبح البرج شبه عاطل .

كان عند الملك ـ الى جانب هذا ـ آلتان جديدتان للرمى انكب على صنعهما مهرة الصناع فاتقنوهما ، وكانتا من مادة صلبة ، ولاتخطئان الهدف المنشود مهما كان بعيدا .

كذلك بنى الملك آلة متينة كانها الحجر الصلد ولها درجات يصعد عليها الى داخلها ويطلقون عليها فى العادة اسم « البرج الخشبى المتحرك » وهى مغطاة بطبقة من الجلد المدبوغ ، وبها حبل محكم النسيج ، وأرضيتها من خشب متين حتى لاتنهار ان أصابتها قذيفة ترميها بها أى آلة من آلات رمى الحجارة كما أنه لا تؤثر فيها النار الاغريقية ولا يعطبها شىء .

كذلك كانت لديه آلتا منجنيق : احداهما سريعة الطلقات بعيدة المدى حتى كانت طلقاتها تصل الى الشوارع الداخلية حيث سوق اللحم فى المدينة .

كانت آلات الرمى التى يملكها الملك ريتشارد لاتكف عن الرمى ليلا ولا نهارا ، ويقال ـ وليس هذا باطلا ـ انها قتلت ذات مرة اثنى عشر رجلا بقذيفة بحجر واحد أصابتهم فجندلتهم ، ولقد جيىء بالحجر الذى قذفته الى صلاح الدين ليراه وقد حمله اليه رسل قالوا له ان ملك انجلترا الشيطانى ،الشديد الوطأة كان قد جاء به من مدينة « مسينا » حين احتلها ، وهو من الحجر الصوان البحرى ومن أشد الحجارة صقلا ، وقالوا انه جاء به عمدا لانزال الضرر بالمسلمين . ولم يكن ثم شىء بقادر على صد قذائف هاتين الآلتين التى كانت لاتصيب شيئا الا سحقته واستحال حطاما .

مرض الملك يؤدى الى نكبة تلم بالجيش ولكنه يطمئن بوصول كثير من السنيكاس

تزايد تدهور معنويات الجيش ، وتخاذل العسـكر وحزنوا للوعكة الصحية التى ألمت بالملك اذ لم يكن ثم غيره من أمير أو دوق يستطيع أن يقوم مقامه ويكون ذا بأس ويحاول نصر الرب (١٥) .

وجاءت الأحزان بعضها فى اثر بعض وتراكمت حين وافى الموت المبكر كونت فلاندرز (١٦) ، (وكان ذلك يوم أول يونيو) فخيم الأسى على الجيش عند سماعه هذا النبأ ، ولم يخفف لوعه الحزن بعض الشىء الا وصول عدد كبير جدا من السنيكاس » (١٧) كما حضر كثير من الأساقفة وكبار الرجال ليكونوا عونا ونجدة للمسيحيين ، وكان مع كل واحد أتباعه وقد جاؤا بعد رحلة آمنة ، وهاى ذى أسماء من حضروا :

أسقف ايفرو · وروجر دى تونى مع العديد من اخوته ، وأخوه الملقب بكورنيى وروبرت دى نيوبيرج ·

وجوردان دى هوميست ·

ورئيس حجاب تنكار فيل ·

وروبرت ايرل ليسيستر ·

وجيرارد (١٨) دى تالبوت ·

ورالف تيسـون ·

وجماعة من الفرسان مع المدعو تورولنس ·

ورالف فيكونت شاتو دون ·

وبرترام دى فيران · وروجر دى هاركورت ·

والفرسان من أسرة دى برو ·

ووارين فيتزجيرالد ·

وجماعة من أسرة دى لامير ·

وهنرى فينز نيكولاس

وايرنالد دى جراند فيل وجماعة من أسرة ستوت فيل ·

ووليم مارسـيل ·

ووليم ماليت ·

ووليم بلوييز · Bloez

وشوتار دى لوريورا Loreora

وروجر دى سـانى ·

واندرو (١٩) دى شافنى Chavigny

وهيج لى برون (٢٠) Brun [دى لوزنيان] ·

وجوفرى دى رانكون ·

ورالف دى موليون ·

ووليم دى روش ·

وجوفرى دى لاسيل ·

وهيج دى لافييرتيه Fierte وهو الذى سـاهم فى الاستيلاء على قبرص ثم جاء منها الى عكا ·

وكان الملكان لايزالا عليلين ولكن الرب حفظهما وأبقى عليهما حياتهما لمساعدة المسيحيين واسترداد المدينة ·

آلات رمى الحجارة التى عند الملك وجيش الايمان يرمون فيحطمون البرج الملعون كما يحطمون جزءا طويلا من السور

نقه (٢١) ملك فرنسا بعد قليل من وعكته وصرف همته لبناء آلات الحصار كما وضع آلات رمى الحجارة فى أماكنها المناسبة ، ورتبها فأخذت تقذف ليلا ونهارا بلا انقطـاع ، وكانت له من هذه الآلات واحدة رائعة يسميها « بجار السوء » ، وكان لأهل المدينة واحدة مثلها يسمونها بالقريب السىء وهى التى يستعملونها فى الغالب لضرب « جار السوء » بقذائفها القوية ، وظل الملك يرمم ما تحطم منها حتى استطاعت بقذائفها الموصولة ان تنال بعض الشىء من سور المدينة الرئيسى وتؤثر تأثيرا سيئا فى البرج الملعون.

واستطاعت آلة الرمى التى عند دوق برجنديا ان تؤثر تاثيرا ليس بالهين وأحدثت قاذفة أحجار الداوية خسـائر فادحة فيما أصابته ، كما أن آلات الاسبتارية لم تكف أبدا عن الرمى مما بث الرعب فى نفوس الترك وانخلعت له أفئدتهم فزعا ·

كان هنـاك الى جانب هذا آلة لرمى الحجارة سـاهم الناس فى انشائها بأموالهم (٢٢) وكانوا يسمونها « آلة الرب » وكان يقف على الدوام الى جانبها قسيس ورع أشـد الورع لايكف عن وعظ النـاس وجمع الأمـوال لترميمها واستئجار رجال يجمعون الأحجار اللازمة لتقذف بها ، واستطاعت هذه الآلة ان تهدم من السور المجاور تماما للبرج الملعون ما يقرب من عشرة أمتار ، وكان لكونت فلاندرز آلة ممتازة لرمى الحجارة آلت بعد موته الى الملك ريتشـارد ، كما انتهت اليه أخرى وان لم تكن تحاكيها فى الدقة

والجودة ، ولكن كانت الاثنتان تصبان بلا انقطاع وابلا من القذائف على برج مجاور لبوابة كان الترك كثيرا ما يستعملونها ·

وظل الرمى مستمرا حتى أصبح البرج شبه عاطل ·

كان عند الملك ـ الى جانب هذا ـ آلتان جديدتان للرمى انكب على صنعهما مهرة الصناع فاتقنوهما ، وكانتا من مادة صلبة ، ولاتخطئان الهدف المنشود مهما كان بعيدا ·

كذلك بنى الملك آلة متينة كانها الحجر الصلد ولها درجات يصـعد عليها الى داخلهـا ويطلقون عليهـا فى العـادة اسم « البرج الخشبى المتحرك » وهى مغطاة بطبقة من الجلد المدبوغ ، وبها حبل محكم النسيج ، وأرضيتها من خشب متين حتى لاتنهار ان أصابتها قذيفة ترميها بها أى آلة من آلات رمى الحجارة كما أنه لا تؤثر فيها النار الاغريقية ولا يعطبها شىء ·

كذلك كانت لديه آلتا منجنيق : احداهما سريعة الطلقـات بعيدة المدى حتى كانت طلقاتها تصل الى الشوارع الداخلية حيث سوق اللحم فى المدينة ·

كانت آلات الرمى التى يملكها الملك ريتشارد لاتكف عن الرمى ليلا ولا نهارا ، ويقال ـ وليس هذا باطلا ـ انها قتلت ذات مرة اثنى عشر رجلا بقذيفة بحجر واحد أصـابتهم فجندلتهم ، ولقد جيىء بالحجر الذى قذفته الى صلاح الدين ليراه وقد حمله اليه رسل قالوا له ان ملك انجلترا الشيطانى ،الشديد الوطأة كان قد جاء به من مدينة « مسينا » حين احتلها ، وهو من الحجر الصوان البحرى ومن أشد الحجارة صقلا ، وقالوا انه جاء به عمدا لانزال الضرر بالمسلمين · ولم يكن ثم شىء بقادر على صـد قذائف هاتين الآلتين التى كانت لاتصيب شيئا الا سحقته واستحال حطاما ·

ظل الملك ملازما لفراشه يشكو حمى عنيفة أقعدته وان كان يرقب فى أسى بالغ ما يراه من عربدة الترك ووقاحتهم فى تحدى المسيحيين وكثرة هجومهم عليهم كثرة تشعره بالألم اذ لايستطيع منازلتهم لما به من المرض ٠

لقد كان العذاب الذى يكابده من مناوشات الترك البذيئة أشد وقعا على نفسه وايلاما لها من تلك الحمى الخبيثة التى تحرق بدنه ٠

ف ـ ٨

فى أثناء مهاجمة ملك فرنسا للمدينة كان الترك يستعملون النار الاغريقية لحرق آلات الحصار وكوخ ملك فرنسا

تتمتع عكا بموقع شديد الحصانة كما ذكرنا من قبل ، كما كان يتولى أمر الدفاع عنها دفاعا مجيدا زمرة من العسكر الترك المختارين مما يجعل الاستيلاء عليها بالحرب أمرا صعبا كل الصعوبة ، وقد بذل الفرنسيون اهتماما كبيرا وعنوا عناية فائقة ببناء آلات الحصار ووسائل تحطيم الأسوار ولكن لم يجد نفعا شىء من هذا كله بل ذهب كله أدراج الرياح ، اذ ما يكاد الفرنسيون يفرغون من تشييد ما بذلوا فيه المال الوفير حتى يحطمه الترك اما بصب النار الاغريقية عليه على غير توقع من أصحابه أو بالاحتيال بمكائد أخرى ، منها الاحراق المتعمد ٠

لقد كان من بين آلات الحصار الأخرى ومعداته التى أقامها ملك فرنسا لتحطيم سور المدينة آلة ضخمة يقذفون بها على السور فتتسلقه ، ولذلك سموها « بالقطة » لأنها تتسور السور حين تزحف عليه فتكون أشبه بالقطة ٠

كذلك صنع شيئا آخر جديدا كل الجدة ومحكما غاية الاحكام ، من أعواد القصب المتينة وسموها « سيركيليا » Cercleia أى « الكوخ المستدير » وكانت هذه « الدارة » مكسوة بالجلد المدبوغ وقد اعتاد الملك الجلوس تحتها وفى يده نشابته يترقب ظهور الترك على قمة السور فيرميهم على غير توقع منهم فيصيبهم فيرديهم وهم وقوف بين الفتحات ٠

وحدث فى يوم من الأيام والفرنسيون منهمكون فى تثبيت « القطة » على السور ان قذف الترك قذفا قويا بكومة من الخشب الجاف من فوق الأسوار فوقعت أعلى « القطة » ثم أعقبوا ذلك مباشرة بالقاء النار الاغريقية على القطة ، كما فعلوا مثل ذلك بالكيرليا الذى صنعه الفرنسيون والذى بذلوا فى صنعه الكثير من الجهد ، وأشعلوا النيران فيما ألقوه عليه وسرعان ما علقت النار بكل شىء وأتت عليه حتى صار هشيما ، كما والوا الرمى من آلاتهم فكانت قذائفهم لاتصيب شيئا الا أتت عليه ودمرته تدميرا ٠

واستشاط ملك فرنسا غضبا مما يرى وانطلق يسب ويلعن جميع من حوله راميا اياهم بالاخلال بالشرف لأنهم لم ينتقموا من المسلمين الانتقام المناسب لما فعلوه ، ولم يزايله غضبه حتى آذن النهار بالزوال واقترب الغسق وحينذاك أمر أن ينادى علانية فى صفوف الجيش أن الهجوم سيكون فى الغد ٠

الجيش الفرنسى يقوض الأسوار من أساسها والمسيحيون فى الخنادق يصدون الترك الذين يلقون بثقلهم فى هجوم يشنونه من الخارج (يوم ٣ يوليو)

ما ان تبلج الصباح حتى كان الجميع فى كامل عدتهم الحربية يترقبون فى حذر عدوهم ، ورتبــوا المحاربين البارزين المعروفين بشدة شكيمتهم فوضعوهم فى الخنادق الخارجية درءا لأى مشكلات يواجهونها من جانب المسلمين ودفعا لأية هجمة قد يفاجئون بها .

أما صلاح الدين فقد راح يتباهى بأنه سوف يكتسح بالقوة فى ذلك اليوم كل ما أعده عدوه وحينذاك سيعلم الملأ مدى بسالته العظيمة حين يرونه قد دمر المسيحيين وقضى عليهم لكنه ، لم يستطع الوفاء بكلمته فلم يحضر هو بنفسه (٢٣) بل أرسل جيشه الضارى العنيد ووكل قيادته الى تقى الدين الذى أغار على الخندق بكل من معه وجاهدوا الجهاد العنيف فى اجتيازه ، ولم يقصر الفرنسيون من جانبهم فى ردهم والتصدى لهم محاولين ردهم على أعقابهــم ، وجرت مذبحة هائلة فى الجانبين مما حمل الترك على التخلى عن جيادهم حتى يســتطيعوا القتال مترجلين لا يعيقهم عن النزال عائق ، وكان الاصطدام مريرا حتى لقد اضطر الجانبان لمواجهة كل منهما الآخر وجها لوجه وجردوا سيوفهم واســتلوا خناجرهم ، وحملوا فؤوسهم المزووجة الرؤوس وكذلك الهراوات ذات الأسنان الحديدية ، فقتل من كل فريق طائفة فتعالى الصراخ والأنين ، وهلك الكثيرون جملة لا أفرادا ، وحمل اليأس الترك على الهجــوم فردهم المسيحيون الشجعان على أعقابهــم ، وتطلب ذلك العمــل بذل

مجهودات ضخمة لأن عدد الترك الذين ضاعفوا هجومهم كان كبيرا ، وتجردوا من الرحمة وزاد من حدتهم حرارة الجو فقد كان الوقت صــيفا .

أما القسم الآخر من الجند فقد أرســلوه الى المدينة فكانوا جماعتين : واحدة ترمى بالقذائف وأخرى تحاول تقويض الأسوار أو تكرار رميها عن آلات الحصار ، وقام غيرهم بالزحف عليهــا واعتلائها ، واذ خاف الترك الذين بالمدينة من بسالة عدوهم فقد رفعوا شعار صلاح الدين ، وكان هذا العمل من جانبهم دعوة لمن بالخارج الى القدوم على وجه السرعة لمساعدتهم أو على الأقل الى الهجوم على الفرنسيين لطردهم واقصائهم عن الناحية .

فلما رأى تقى الدين ومن معه من الترك الذين خــارج دائرة المعركة ما رأوا أجمعوا عزمهم وكروا على جماعتنا بكل ما لديهم من قوة وبأس فملئوا الساحة بعددهم مما أرغم جيشنا على القتال فى شراسة ، مؤملين فى عون الرب وجعلوا من أنفسهم سدا فى وجه الغزاة وصدوهم .

فى هذه الاثناء كان النقابون الفرنسيون يعملون فى حفــر الأنفاق فقوضوا دعائم السور وملؤ الثغرة بالخشب ثم أضرموا فيه النيران التى سرعان ما التهمت دعائم السور الخشبية فمال السور بعض الشىء وان لم يسقط تماما ، فاندفع رهط كبير من المسيحيين محاولين الدخول فهب الترك لردهم .

ما كان أكثر الأعلام التى كانت ترى فى هذه اللحظة
وما كان أكثر الشعارات المختلفة .
ثم قذف الترك الخبثاء رجالنا بالنار الاغريقية .

لكن لما كان السور قد انهار بأكمله فقد أحضر الفرنسيون سلالم التسلق ، فى محاولة منهم لتسلق السور ، وتجرأ الترك الذين على الجانب الآخر ففعلو مثلهم عساهم يستطيعون بذلك حماية الثغرة وسدها .

ف ١٠

اوبرى كليمنتس يتسلق السور بسلم ولكن الترك يرمونه فيقتلونه

لقد وقع فى هذه اللحظة حدث خطير لاينبغى السكوت عن ذكره أو تجاهله فقد كان هناك رجل اشتهر بين الجميع بالشجاعة النادرة وقوة جأشه وأعماله البطولية ، وذاع صيته كمحارب باسل ، اما اسمه فهو « اوبرى كليمنتس »(٢٤) وقد هاله ما شاهده من عدم تقدم الفرنسيين تقدما ملحوظا رغم تفصد جباههم بالعرق ، فأحس بالعطف عليهم وشرع فى العمل من أجلهم وقال لنفسه « ما أرانى براجع حتى ألقى حينى اليوم ، أو يأذن الرب فأدخل عكا » ، ثم تقدم رابط الجأش فتسلق سلما حتى اذا بلغ أعلى السور رآه طائفة من الترك فشدوا عليه شدة عنيفة وهاجموه من كل ناحية فتصدى لهم واستحر القتال بينه وبينهم فقتل الكثيرين منهم فلما شاهد الفرنسيون ما فعله هذا الرجل « أوبرى » تبعوه وتكاثروا على السلم الذى لم يحتمل ثقلهم فهوى بهم جميعا فلقى الغالبية منهم حينهم وأخرجوا البقية وقد أثخنتهم جراحهم التى اشفت بهم على الخطر ، فهلل الترك فرحين لما أصاب المسيحيين ، وزاد من فرحتهم سوء طالع الفرنسيين وتجهم الحظ لهم .

وبقى « أوبرى كليمنتس » وحيدا على قمة السور فأحاط به الترك وتكاثروا عليه : يطعنونه تارة ، ويرمونه بنبالهم تارة أخرى

حتى أسلم روحه ولفظ أنفاسه فحقت كلمته التى قالها فكانت نبوءة تنبأ بها اذ قال انه ان يعجز عن دخول عكا فسوف يموت شهيدا ، فعم الحزن جميع رجال الجيش اذ خسروا بموته بطلا صنديدا ، وكفوا عن الهجوم واستسلموا للبكاء عليه ويندبونه اذ هلك وقضى نحبه والحق انه كان رجلا شجاعا شجاعة نادرة ومن أسرة عظيمة .

ف ١١

الفرنسيون يدخلون البرج الملعون من الخارج ، والترك يقتحمونه من الداخل ويعملون ضد النقابين

لم يلبث النقابون الفرنسيون أن حفروا ممرا تحت « البرج الملعون » وجعلوا السقف يرتكز على كتل خشبية ، وكان الترك فى الوقت ذاته يحفرون من ناحية أخرى حتى بلغوا نفس البقعة من الأساس التى وصل اليها الفرنسيون ، وحينذاك هادن الجانبان أحدهما الآخر واتفقا على هدنة (٢٥) يغادر الترك خلالها الناحية سالمين آمنين ، على أن يسلموا الفرنسيين بعض من فى أيديهم من الأسرى المسيحيين الذين كانوا مقيدين عندهم فى الأصفاد ، فلما علم الترك الموجودون فى المدينة بما تم الاتفاق عليه غضبوا وأرعفت أنوفهم وسدوا منافذ الانفاق التى يخرجون منها .

ف ١٢

رغم ان الملك ريتشارد كان لايزال موعوكا الا انه هاجم المدينة مع جماعته وفتك بالكثيرين بنشابة كانت فى يده . نجاح رجاله ورماة الأحجار فى هدم أحد الأبراج . (٥ يوليو)

على الرغم من أن الملك ريتشارد لم يكن قد استرد عافيته تماما الا أنه كان شديد اللهفة لأن يقوم بعمل يفضى به الى الاستيلاء

لكن لما كان السور قد انهار بأكمله فقد أحضر الفرنسيون سلالم التسلق ، فى محاولة منهم لتسلق السور ، وتجرأ الترك الذين على الجانب الآخر ففعلو مثلهم عساهم يستطيعون بذلك حماية الثغرة وسدها ٠

ف ١٠

اوبرى كليمنتس يتسلق السور بسلم ولكن الترك يرمونه فيقتلونه

لقد وقع فى هذه اللحظة حدث خطير لاينبغى السكوت عن ذكره أو تجاهله فقد كان هناك رجل اشتهر بين الجميع بالشجاعة النادرة وقوة جأشه وأعماله البطولية ، وذاع صيته كمحارب باسل ، اما اسمه فهو « اوبرى كليمنتس »(٢٤) وقد هاله ما شاهده من عدم تقدم الفرنسيين تقدما ملحوظا رغم تفصد جباههم بالعرق ، فأحس بالعطف عليهم وشرع فى العمل من أجلهم وقال لنفسه « ما أرانى براجع حتى ألقى حينى اليوم ، أو يأذن الرب فأدخل عكا » ، ثم تقدم رابط الجأش فتسلق سلما حتى اذا بلغ أعلى السور رآه طائفة من الترك فشدوا عليه شدة عنيفة وهاجموه من كل ناحية فتصدى لهم واستحر القتال بينه وبينهم فقتل الكثيرين منهم فلما شاهد الفرنسيون ما فعله هذا الرجل « أوبرى » تبعوه وتكاثروا على السلم الذى لم يحتمل ثقلهم فهوى بهم جميعا فلقى الغالبية منهم حينهم وأخرجوا البقية وقد أثخنتهم جراحهم التى أشفت بهم على الخطر ، فهلل الترك فرحين لما أصاب المسيحيين ، وزاد من فرحتهم سوء طالع الفرنسيين وتجهم الحظ لهم ٠

وبقى « أوبرى كليمنتس » وحيدا على قمة السور فأحاط به الترك وتكاثروا عليه : يطعنونه تارة ، ويرمونه بنبالهم تارة أخرى

حتى أسلم روحه ولفظ أنفاسه فحقت كلمته التى قالها فكانت نبوءة تنبأ بها اذ قال انه ان يعجز عن دخول عكا فسوف يموت شهيدا ، فعم الحزن جميع رجال الجيش اذ خسروا بموته بطلا صنديدا ، وكفوا عن الهجوم واستسلموا للبكاء عليه ويندبونه اذ هلك وقضى نحبه والحق انه كان رجلا شجاعا شجاعة نادرة ومن أسرة عظيمة ٠

ف ١١

الفرنسيون يدخلون البرج الملعون من الخارج ، والترك يقتحمونه من الداخل ويعملون ضد النقابين

لم يلبث النقابون الفرنسيون أن حفروا ممرا تحت « البرج الملعون » وجعلوا السقف يرتكز على كتل خشبية ، وكان الترك فى الوقت ذاته يحفرون من ناحية أخرى حتى بلغوا نفس البقعة من الأساس التى وصل اليها الفرنسيون ، وحينذاك هادن الجانبان أحدهما الآخر واتفقا على هدنة (٢٥) يغادر الترك خلالها الناحية سالمين آمنين ، على أن يسلموا الفرنسيين بعض من فى أيديهم من الأسرى المسيحيين الذين كانوا مقيدين عندهم فى الأصفاد ، فلما علم الترك الموجودون فى المدينة بما تم الاتفاق عليه غضبوا وأرعفت أنوفهم وسدوا منافذ الانفاق التى يخرجون منها ٠

ف ١٢

رغم ان الملك ريتشارد كان لايزال موعوكا الا انه هاجم المدينة مع جماعته وفتك بالكثيرين بنشابة كانت فى يده ٠ نجاح رجاله ورماة الأحجار فى هدم أحد الأبراج ٠ (٥ يوليو)

على الرغم من أن الملك ريتشارد لم يكن قد استرد عافيته تماما الا أنه كان شديد اللهفة لأن يقوم بعمل يفضى به الى الاستيلاء

على المدينة لذلك أعد عدته وجهز عسكره لمهاجمتها آملا الرب ان يعينه على تحقيق رغبته هذه .

وكان عنده مكان حصين يسمونه Cercleia أو « الكوخ » المستدير كان قد بذل أقصى الجهد فى صنعه فرآى أن يخرجه ويضعه فى الخندق الموجود خارج سور البلد وأوقف تحته أمهر رجاله فى الرمى بالنشـــاب ، وأمر أن يحملوه هو ذاته اليـــه ويســـجوه به ، فحملوه فى فراش حريريرى حتى يراه المسلمون فيلقى مرآة الخوف فى نفوســـهم ويكون فى الوقت ذاته مشجعا لرجاله على القتال . ولما صار فى هذا الكوخ استعمل قوسه وكان ماهرا كل المهارة فى الرمى به فرماهم عنه وكثر الهلكى ممن رماهم .

كان النقابون قد شقوا طريقا تحت تحصينات السور وشرع رجاله يقذفون بالحجارة من هذا النفق قذفا شديدا ، كمـــا القوا بمواد خشبية فى الثغرة وأضرموا فيها النيران ، فتعالت ألســـنة اللهب فانهار البرج فجأة محدثا دويا كبيرا .

ف ١٣

استبسال الملك ريتشارد فى الهجوم على المدينة ولكن الترك يصدونه صدا عنيفا . الملك يصرع بسهم فى يده رجلا كان يرتدى ثياب أوبرى كليمنتس الحربية

لم يفت بال الملك الصعاب التى تواجهه لا سيما ما كان من بسالة عدوه الحربية مما يتطلب منه مزيدا من الشجاعة فى المواقف الحرجة ، لذلك رأى ان أجدى طريقة يتبعها هى اثارة حماســـة شبابه المحاربين ، كما رأى ان يمنحهم الحوافز فذلك أجـدى من اصدار الأوامر اليهم لأن رنين الذهب يجذب كل انســـان ، لذلك

قرر أن ينادى المنادى فى الجيش كله ان الملك سوف ينعم بقطعتين من العملة الذهبية على كل من يأتيه بحجر يخلعه من السور المجاور للبرج المذكور ، ثـم زاد بعدئذ المنحة فجعلها ثلاث قطع ثم زادها فصارت اربعا تدفع فورا ، فكنت ترى حينذاك الشباب يتواثبون الى الأمام ، والرجال المسلحين من ذوى الكفاءة الحربية يندفعون الى السور ويدأبون على نزع أحجاره ، يحثهم على ذلك عاملا الكسب والمجد معا ، وراحوا يندافعون رغم كثرة السهام التى كان العدو يرميهم بها فحطموا السور رغم الجراح التى أصيب بها الكثيرون منهم وان أعجزت هذه الجراح بعضهم فكف عما هو فيه ، كما أن بعضا أخرين منهم توقفوا عما شرعوا فيه خوفا من القتل الذى هو محدق بهم ، كما نجح الترك المهرة فى صد البعض من الاقتراب من السور اذ لم يستطع ما عليهم من الدروع والسلاح دفع الخطر عنهم وحمايتهم منه ، وكان السور شاهق الارتفاع بصـــورة تسترعى الأنظار كما كان عريضا عرضا ملحوظا ، لكن على الرغم من هذا كله الا أن رجالا مغاوير لهم فى البأس القدح المعلى لم تضعف روحهم المعنوية فتحدوا الخطر المحدق بهم وخلعوا من السور كثيرا من أحجـــاره .

وكر عليهم الترك كرة رجل واحد وحملوا عليهم حملة صدق فى محاولة منهم لدفعهم عن السور وتنحيتهم عنه ونسوا فى غمرة حرصهم على رد عدوهم ان يلبسوا دروعهم مما جعلهم عرضة وهدفا لرميات عدوهم .

وحدث ان واحدا من الترك راح يخطـــر فى دروع « أوبرى كليمانتس » ووقف مزهوا على أعلى ناحيـــة فى السور حتى يثير غيظ رجالنا فرماه الملك ريتشـــارد بسهم اخترق صـــدره فأرداه قتيلا ، فحزن رفاقه الترك لمصرعه واندفعوا فى جنون للثأر له ،

وكان الظن عندهم انهم ان انتقموا له خفت حرقة النار المتأججة فى صدورهم بعض الشيء ، وبرهنوا فى اندفاعهم هذا أنهم لا تنقصهم الجرأة ولا يعوزهم الاقدام ولا البسالة ، وانهم لايخشون السهام أن تصيبهم ، ولا النبال وكان هجومهم ضاريا وانقضوا على خصومهم كانهم الوحوش الضـارية ولم يكن ثم من يشأوهم فى هذا المجال والحق أنه لايمنع اختلافهم فى الملة عن التصريح بذلك ، ولقد تركوا فى الذهن بأعمالهم صـــورة مجيدة لا تمحى ، وان كانت دروعهم القوية ولا زردياتهم المزدوجة تقدر أن تقاوم ما تعرضوا له من السهام والنشاب التى أصابتهم فى هذا الاشتباك القاسى كما أخذ الترك فى نقب ما تحت السور مما أرغم أمثالهم من رجالنا على الارتداد ، وحينذاك شرع الترك فى الصياح والجلبة العاليين كما لو كانوا قد انجزوا ما يريدون وحققوا هدفهم .

فـ ١٤

كبارنا والبيازنة يتسلقون البرج الذى أخذ يتزعزع حتى يدخلوا المدينة فردهم الترك ببسالة بالسلاح والنار الاغريقية

انهار البرج المشار اليه فى النهاية من جراء الرميات المتواصلة التى يقذفه بها رجالنا من رماة الأحجار ، وكف رجال الملك ريتشارد عن اللعب ، وانتهى الهجوم وحينذاك حمل رجالنا أسلحتهم وهم اشوق ما يكونون لاحراز المجد والنصر ، واستعدوا لخوض معركة مع عدوهم . وكان من أعلامهم المرفوعة يومذاك أعـــلام « ايرل ليسيستر » ، واندرو شافنى Chavigny وهيج لى بروم Le Brum وشارك يومئذ أن فى المعركة أسقف ساليسبورى وكان مسلحا أروع تسليح وانضم اليه كثيرون غيره .

ولما قاربت الساعة الثالثة أعنى ســـاعة تناول الغذاء تأهب الأبطال والسادة الأمجاد للهجوم على البرج المشار اليه فتسلقوه فى لحظتهم فما أن رآهم الترك يفعلون ذلك حتى علا صياحهم وشرعوا يصرخون صرخات عالية شقت أجواز الفضاء فهبت المدينة كلها على بكرة أبيها ، وامتشق كل واحد سلاحه وأقبل الترك مسرعين زمرا متراصـــة وهاجموا فرسانا وساداتنـا الذين هبوا مهطعين حين سماعهم الصريخ وجاهدوا ليدخلوا المدينة فاستبسل التـرك من جانبهم فى دفعهـم وردهم ، وتشابكت الأيدى بالأيدى والتحمت السيوف بالسيوف ، وأمسك كل واحد بالآخر مسكا شديدا فكانوا بين واحد يسقط على الأرض ، وآخر يخر صريعا ، وكان عدد فرساننا محدودا على حين ان جموع الترك كانت تتزايد بين لحظة وأخرى وراحوا يقذفوننا بالنار الاغريقية فلما لم يعد فى رجالنا قدرة على الصمود أمام هذه النار المحرقة نكصوا على أعقابهم وتراجعوا وأخذوا فى النزول من البرج فلقى بعضهم مصارعهم بالسيوف والسلاح ، وهلك آخرون بالنار الاغريقية ، فلما رأى البيازنة ما يجرى أمامهم تحركت فيهم الرغبـة فى المجد والانتقام معـــا فتسلقوا جميعهم البرج ، لكن الترك حملوا عليهـــم حملة الوحوش الضـــارية ، ورغم ما كان يضطرم فى نفوس البيازنة من حقد مسعور وكراهية مجنونة الا أنهـــم لم يستطيعوا الثبات فى وجـه العدو واضطروا للتراجع وخلفوا البرج .

لم يكن هناك قوم عندهم من الشجاعة والبسالة الحربية مثل الذى عند هؤلاء الترك الذين كانوا فى هذا المجال من السباقين الذين يعز على غيرهم مجارانهم ، ويقصر ســـواهم عن لحاقهم ، وما كان للمدينة يومذاك الا ان تستسلم وتسقط فى أيدى المسيحيين وينتهى الأمر باحتلالهم اياها لو انهم استجابوا لنداء العقل فخرجوا كلهم للقتال ، لكنهـــم لم يفعلوا ذلك لانشغال معظم محاربيهم فى تنـاول طعام غذائهم فى هذه اللحظة ، ولولا ذلك أمكنهم احتلالها ونجحوا فى هذا المسعى .

الثناء على الترك فى المدينة . مجىء المشطوب وقراقوش الى مليكنا يسالانهما فرصة حتى يتيسر الوصول الى اتفاق مع صلاح الدين ولكنهما يفشلان فيما جاءا من أجله

ما الذى يمكن أن نقوله فى شأن القوم الكافرين الذين كانوا يقومون بحراسة المدينة ؟ .

انهم أهل لكل ثناء لبسالتهم فى الحرب وصمودهم ، ولو أنهم كانوا على الصراط المستقيم والدين الحق لما فاقهم أحد ما ، ولما انفتحت عين أحد على نظراء لهم ، لكنهم كانوا مع ذلك يعيشون فى خوف من رجالنا ، وحق لهم ذلك فقد رأوا بأنفسهم أحسن العسكر يندفعون من شتى أرجاء العالم المسيحى غير مسترشدين فى قدومهم الا بهدف واحد هو القضاء على هذا العسكر . يضاف الى ذلك ما أصاب كثيرا من الأسوار من تحطيم ، وما لحق جيوشهم من قتل ، وبرجالهم من تمثيل ، جرح الكثيرون منهم جراحا أعجزتهم عن الحركة .

وعلى الرغم من أنه كان لايزال داخل البلد ما يقرب من ستة آلاف تركى الا أن الظن ذهب باثنين من قادتهم (هما سيف الدين على بن أحمد المشطوب) وقراقوش (بهاء الدين الأسدى) الى أن الجيش المسيحى ذهبت ريحه بموت « أوبرى كليمنتس » وسقوط الكثيرين من أبنائه وأقاربهم فى ساحة القتال الا أن المسيحيين كانوا فى الواقع على استعداد لأن يموتوا ميتة الأبطال وان يهزموا الترك ، ولم يكن يشغل بال هؤلاء المسيحيين سوى تحقيق هذه الغاية .

وتشاور المحصرون فيما بينهم واتفقوا على التماس هدنة يتصلون خلالها بصلاح الدين يخبرونه بوضعهم لاسيما وأنه كان قد وعدهم سلفا – كما أقسم لهم – انه سوف يرسل اليهم نجدة عاجلة أو يساعدهم على مغادرة المدينة مغادرة شريفة ، ولذلك اختاروا لتحقيق هذه الغاية اثنين من أكبر رجالاتهم الوثنيين وأبرزهما لتحقيق هذا الرجاء وهما : ابن المشطوب وقراقوش فجاءا الى مليكينا يعدانهما بتسليمهما المدينة اذا لم يبادر صلاح الدين لمساعدتهم على وجه السرعة ، ولم يكن لهما من شرط سوى ان يسمح بخروج الترك الموجودين بالمدينة بأسلحتهم وبكل ما يملكون ، وأن يذهبوا انى شاؤوا . ووافق ملك فرنسا وأغلب من معه على هذا الطلب ، أما الملك ريتشارد فقد أصر اصرارا باتا على رفضه وأعلن انه لن يستجيب لما سألاه وأنه مصمم على خروجهم من البلد بعد هذا الحصار الطويل القاسى وما بذله المسيحيون من جهد وعرق ، فلما وقف قراقوش وابن المشطوب على رأى الملك « ريتشارد » عادا الى المدينة وقد فشلت سفارتهما التى جاءا من أجلها . وعلم صلاح الدين من السفيرين اللذين بعثهما المحصرون بخبر سفارتنا فأوحى الى الناس أن يتجملوا بالصبر ويتحملوا ما هم فيه من الشدة وان يستمروا فى الدفاع عن المدينة وأن يكونوا على تمام الثقة من أن النجدة المناسبة واصلة اليهم عن قريب ، ثم زاد فأخبرهم أن قد جاءه رسل يخبرونه أن قوة حربية كبيرة واصلة اليهم عن قريب من مصر فى السفن التى كان قد طلبها ، وأن « مولانا » أخبره أن هذه النجدة واصلة اليهم فى مدى ثمانية أيام ، ثم أقسم انه ان جدت ظروف منعت وصول هؤلاء العسكر حسبما اتفق عليه فسوف يحصل من المسيحيين على شروط أطيب ووعد غير مشروط بمغادرتهم المدينة (٢٧) .

فلما سمع الرسل منه ما قاله لهم عادوا أدراجهم الى المدينة وأشاعوا فى الملأ من أهلها ما وعدهم به صلاح الدين وألحوا على بنى جلدتهم المحصرين فى البلد ان يستمروا فى المقاومة .

وهكذا ظل الترك فى قلق ، تنهشهم الحيرة ، وأقاموا فى انتظار النجدة عسى تأتيهم .

فـ١٦

بينما كان رجالنا يهاجمون المدينة هجوم الأبطال اذا باليأس يدفع الكثيرين من الأتراك الى الفرار ففروا

استمرت آلات الرمى بالحجارة الخاصة بالمسيحيين ترمى الأسوار من غير انقطاع ليلا ونهارا فاضطربت نفوس أهل البلد الذين يعانون وطأة الحصار المفروض عليهم والذى يتجرعون غصصه . ولما رأوا ما رأوا « بهتوا وارتاعوا » (٢٨) ، وأستسلموا للمخاوف التى سيطرت عليهم وتناهبتهم حتى ألقى بعضهم بانفسهم من فوق الأسوار ليلا طلبا للنجاة ، ولم يعنهم ان ينتظروا وصول النجدة التى وعدهم بها صلاح الدين .

وذهب بعضهم أبعد من ذلك فعرضوا أن يتنصروا وأن يتعمدوا ، وحق للناس التشكك فى مدى صدق هذا الطلب الذى لم يسعوا اليه الا دفعا للخطر الذى كان يهددهم أكثر من ان يكونوا صادرين فى طلبهم هذا عن ايمان حقيقى ، وانما كان واحدا من طرق الخلاص الذى تعددت مسالكه .

ولما كان الرسل مستمرين فى الذهاب والاياب فقد تبين لصلاح الدين بوضوح مدى الخطر الذى أصبح يهدد قومه الترك ان هم ظلوا بالمدينة أكثر مما ظلوه حتى الآن ، فقد أصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم أمام النصارى (٢٩) .

فـ ١٧

شروط هدنة المحصرين مع المسيحيين وفق نصيحة صلاح الدين
(١٢ يوليو ١١٩١ م)

حين أيقن صلاح الدين فى النهاية ما ينطوى عليه الابطاء من الضرر البليغ الذى سوف يقع على من يعانون الحصار انتهى قراره الى الموافقة على ما التمسوه منه ، وكان أشد الناس الحاحا عليه فى قبول هذا الرجاء أمراؤه وولاته الاقليميون وأصدقاؤه ذوو النفوذ والجاه الكبير الذين كان لهم جميعا أبناء وذوو قربى فى المدينة ولكن ضرب عليها الحصار وكان لهم هم أيضا فيها أقارب وأصدقاء ، ورد عليهم صلاح الدين بأن قطع على نفسه العهد ووعدهم وعدا باتا أكده بالقسم بدينه الاسلامى أن يحصل لهم على شروط مشرفة ترد عليهم حريتهم وتنقذهم من ضيقهم ، وكان يدرك تمام الادراك ان سوف يلحق به العار ان سقط المؤمنون بمحمد (صلعم) فى أيدى المسيحيين .

كذلك سأل هؤلاء الكبار صلاح الدين ان يتدبر الأمر لأن هذه القوات التركية لم تخلف له طلبا بل استجابت لكل ما كلفها به من قبل ، وصبرت الصبر الجميل على تحمل أعباء الحصار الذى طال مداه ، ودافعت عن المدينة استجابة لأمره دفاعا استغرق زمنا طويلا ، وقالوا له انه ان يسلم المدينة فذلك خير وأبقى عليه من

أن يفقد هؤلاء الناس البواسل « وتصير (٣٠) أواخره أشر من أوائله » .

استطاع أمراء صلاح الدين بهذه الحجج وأمثالها أن يتغلبوا عليه ، فاستجاب لمطالبهم واتفق معهم على ان يحاولوا الحصول على أحسن شروط الصلح التى يرونها أكثر الشروط استجابة لما يريدون .

حين عاد الرسل الى قومهم يحملون الى من فيها من المحصرين قرار صلاح الدين وعماله ونوابه زغردت الفرحة فى صدورهم وخرج كبارهم وأولو الأمر فيهم الى ملكينا واستصحبوا معهم مترجما يترجم بين الجانبين ، وعرضوا على الملكين استعدادهم لتسليمهما عكا من غير قيد ولا شرط ، وان يردوا على المسيحيين الصليب المقدس ومائتين وخمسين نصرانيا من أشرافهم ، وخمسمائة رجل دونهم ، وكلهم أسرى فى أيديهم ، فلما رأى رسلهم أن قومنا غير راضين تمام الرضى عن هذه العروض التى قدموها عادوا فعرضوا أن يردوا على المسيحيين ألفى أسير من كبارهم وخمسمائة آخرين ممن دونهم منزلة .

وشرع صلاح الدين يفتش فى أرجاء مملكته عن هؤلاء الأسرى .

وحين غادر الترك مدينة عكا غادروها وليس عليهم سوى ثيابهم التى تستر أجسادهم ، وخلفوا وراءهم كل شىء يملكونه سواء أكان هذا الذى خلفوه سلاحا أو غير سلاح ، وحتى الأطعمة ، وزادوا على ذلك باعطاء الملكين مائتى ألف تالنت شرقى لقاء الابقاء على أرواحهم ، كما أسلموهم طائفة من أكابر رجال ترك المدينة رهينة عندهم تأكيدا على انهم موفون لهم بما عاهدوهم عليه .

واجتمع الملكان فيليب وريتشارد يتشاوران مع حكمائهما وأهل الفطنه عندهم ليروا رأيهم ويمحضوهما النصح فيما اذا كانا يقبلان هذه الشروط المقدمة اليهما من المسلمين أم يرفضانها ، وانفض الاجتماع فى النهاية على قبول العروض التى قدمها المسلمون ووافق الملكان ورجالهما على الاتفاق .

وحين أقسموا الايمان على احترام هذه الاتفاقية كتبوا شروطها فأعطوهم الرهائن ، واذن لهم بأن يغادروا المدينة وأيديهم خالية .

فـ ١٨

الترك يعطون الرهائن لضمان تسليمهم الصليب ودفع الفدية ورد الأسرى خلال شهر ثم يغادرون المدينة فيدخلها المسيحيون . الملكان يقتسمان كل شىء بينهما

ولما كان يوم الأربعاء التالى لعيد القديس الطوبانى المبارك بندكت (١٢ يوليو) سلمت الرهائن وكانوا اختيروا من أبرز الأمراء وأجلهم قدرا ، وتم الاتفاق على موعد أقصاه شهر واحد (٢٩) لرد الصليب الطاهر وحتى يمكن العثور على الأسرى ، فلما انتشر نبأ ما جرى وسمع الجميع بتسليم المدينة اشتد غضب العامة وغوغاؤهم أشد الغضب ، أما الذين كانوا أكثر منهم تعقلا فقد أرضاهم ما تم وكانوا محقين فى غبطتهم هذه اذ أدركوا انهم بهذا الذى حدث تكون المدينة قد سلمت وجنبوها مزالق الخطر لعلمهم بعدم قدرتهم على استردادها من قبل رغم طول الحصار .

ونودى بين الناس كافة ألا يقول أحد قولا فيه اساءة للترك أو اثارة لحنقهم ، وألا يرمى أحد ما قذيفة يصيب بها الأسوار أو الترك ممن يكونون على المتاريس .

وراح المسيحيون ينظرون فى دهشة واستغراب الى هذه الجماعات التركية التى كانت فوق الأسوار فى ذلك اليوم وهى موشكة على الرحيل عن المدينة ، كما امتلأت نفوسهم فى الوقت ذاته بالاكبار لهؤلاء المحاربين البواسل (الأتراك) الذين كانوا فى قتالهم على جانب كبير من البأس مما كان موضع التقدير والاعجاب ، فقد كانت بسالة نادرة قل مثيلها ، كما كانوا من أمهر الناس فى الفنون الحربية ، كما أعجبهم منهم ما حققوه من الأعمال الجليلة .

وخرج الترك من المدينة صفر الأيدى فأذهل منظرهم كل من رآهم من المسيحيين وعجبوا من مظهرهم الجاد فلم تبد عليهم دلائل الخور ولاذلت نفوسهم ، ولم يطلبوا الرحمة ولا الشفقة ولم يلتمسوا العطف عليهم وهم خارجون مدحورين قد غلبوا على أمرهم ، بل انهم كانوا حتى فى هذه اللحظة وفى هذه الظروف المحيطة بهم متماسكين لم يصبهم الجزع ، ولا تسرب اليهم الخور ، ولا طارت نفوسهم حسرة على أملاكهم التى فقدوها ، بل ظلت وجوههم جامدة تعلوها دلائل الحزم والعزم حتى كان يخيل الى الناظر اليهم — وهم على هذه الصورة — انهم أحرزوا النصر ، ولم يكن يعيبهم الا تمسكهم بعقيدتهم .

ولما انتهى الأمر أخيرا بخروج جميع الترك فتحت الأبواب على مصاريعها ودخل المسيحيون المدينة وراء مليكيهم يرقصون فرحا ، رافعين عقيرتهم بالهتاف ، ممجدين الرب فى علاه ، ويشكرونه

على ما أنعم به على شعبه « وأنه عظم رحمته بهم » ، كما « ان الرب انقذ وصنع فداء لشعبه » .

وارتفعت على الأسوار والأبراج رايات الملكين وأعلام كثيرة ، وقسمت المدينة قسمين متساويين بين الملكين الذين تناصفا فيما بينهما كل ما عثر عليه من السلاح والزاد ، فما جار أحدهما على الآخر فيما أصاباه من الغنيمة ، وقدروا عدد الأسرى وأجروا القرعة فكان من نصيب ملك فرنسا قراقوش العظيم وكثيرون غيره ، أما ابن المشطوب وبقية الأسرى فكانوا من نصيب الملك ريتشارد .

وزيادة على ذلك فقد آل الى ملك فرنسا قصر الداوية الكبير وكل ما يتعلق به ، أما الملك ريتشارد فصار اليه القصر الملكى فوضع فيه مليكتيه بحشمهما وخدمهما ووصيفاتهما . وبهذا تسلم كل من الملكين نصيبه (٣٠) وهو راض هادىء البال .

أما العسكر فقد نزلوا الى المدينة يجوبون أرجاءها وتمتعوا بما أرادوه من المتعة بعد الذى كابدوه خلال الحصار الطويل من الأهوال الجسام والمشاق الجمة ، ونعموا بقسط كبير من الراحة التى أصبحوا يتقلبون فى مطارفها .

ولما كانت الليلة التالية لدخولنا عكا انسحب صلاح الدين بجيشه من الموضع الذى كانوا به خوفا من رجالنا ، وذهب فأقام هو ومن معه من قومه فى جبل بعيد يعرف بجبل « شفرعم » .

الاسلوب الخسيس المخجل الذى عامل به الترك رجالنا والمقدسات الطاهرة أثناء احتلالهم المدينة

استسلمت مدينة عكا بعد مضى أربع سنوات من وقوعها فى أيدى المسلمين [من ٩ يوليو حتى ١٢ يوليو ١١٩١ م] وكان استسلامها كما قلنا غداة عيد القديس بندكت ، وكانت أوضاع الكنائس القائمة داخلها أوضاعا مزرية تتأذى العين بما هى عليه من التردى ، وتعرو الأبدان منها قشعريرة لا تغادرها ان تذكرت ما طالعته الأبصـــار داخل هذه الكنائس من المآسى ، ويتملكها ما يشبه الجنون ، اذ من هذا المؤمن الذى يستطيع أن يطالع وجه ابن الرب أو وجه غيره من القديسين أو صورهم وهى مشوهة !! .. أقول من ذلك المسيحى الذى يطالع تلك الصور والوجوه على هذه الحال ولا تذرف عيناه الدموع ؟ .. ثم من ذا الذى لا تعتريه رجفة وهو يستمع الى الوصف المرعب الذى أنزله الترك الكفار بالهياكل وكيف حطموهـا ؟ ، والمذابح وكيف دمروهـا ؟ ، وكيف ألقوا بالصلبان الطاهرة على الثرى ووطئوها احتقارا منهم لها ، ثم راحوا يقيمون مساجدهم مكان المواضع لها كل القداسة ، وأزالوا كل صور الفداء، وقضوا على الملة المسيحية محلين محلها خرافات يؤمنون هم بها .

النزاع بين الملكين بشأن المركيز والملك جى دى لوزنيان وكيف تم الصلح بينهما

على أنه بمرور الوقت نشب نزاع حاد بين الملكين حول المركيز المذكور آنفا ، فقد كان ملك فرنسا يؤيده كل التأييد ويقف الى جانبه وقوفا أفضى به الى عزمه على منحه كل نصيبه هو ذاته فى كل ما آل اليه فى الأرض الطاهرة ، والى تمكينه من جميع ما يحصل عليـه هو نفسه مستقبلا ، ومع عطف الملك ريتشـارد على الملك جى دى لوزنيان وتأييده لدعواه الا أنه لم يكن ليرضى ان يتنازل له عن نصيبه هو ذاته ، مع ان ذلك ربمـا كان جديرا به . ومن ثم دب الشقاق بين الملكين حول هذه المسألة ، وكان نزاعا استمر غير قليل من الوقت ، على أن هذه القضية سويت بسلام بفضل تدخل الأمراء وزعماء الناس الذين خلصـوا الى وجوب الاعتراف بزواج المركيز من وريثة عرش مملكة بيت المقدس ووجوب مكافأته له ازاء ما أسداه من معاونة للجيش أثناء الحصار ، وان يرث كونتية « صور » وملحقاتها أعنى بذلك صور وصيدا وبيروت .

أما جوفرى دى لوزنيـان شقيق الملك جى فتكون له كونتية يافا وعسقلان لقاء ما بذله من الجهـد وما عاناه من النصب ، فان وافت المنية الملك « جى دى لوزنيان » وكان المركيز على قيد الحياة لبس المركيز التاج والعصابة الملكية وخلف « جى » على العرش ، لأنه كان قد تزوج من وريثة المملكة على الرغم من انه حصل عليها قسرا ليصبح هو الملك كما قيل سابقا .

أما اذا مات كل من الملك جى والمركيز وزوجته وكان الملك ريتشارد فى تلك الناحية فللملك ريتشارد أن يقرر مصير المملكة حسبما يراه ·

على هذه الصورة انتهى النزاع الناشب بين الملكين ، وتم الاتفاق على هذه الشروط (وكان ذلك يوم ٢٧ يوليو) ·

ف ٢١

استعداد ملك فرنسا للعودة الى بلاده · وتعجب الجميع من هذا العمل وبذلهم النصح له بالعدول عنه ثم لومهم اياه

لقد سارت الأمور على النهج التالى ذلك ان مدينة عكا استسلمت وقد آذن شهر يوليو بالانصرام ، وهو الشهر الذى ضربه الترك موعدا لاعادة الصليب الى المسيحيين ومبادلة الرهائن ، وحينذاك شاع الخبر فى الجيش أن ملك فرنسا الذى كان الناس يعلقون عليه الآمال الكبار أعلن انه عازم على العودة الى دياره ، وأنه أعد العدة لذلك الأمر كاملة وأخذ يستعد لهذا السفر (ورتبه ليتم يوم الثانى والعشرين من يوليو) ·

فيالله ما أعيب هذا الأمر ، وكم هو شائن ان يزمع الرحيل حين لايزال كثير من الأعمال الضرورية فى حاجة الى الانجاز ·

لقد كان واجبه يحتم عليه ان يكون مرشدا لهذا الجمع الهائل من الناس ، وان يبذل جهده فى اسداء النصح لهذه الجموع التى هى فى حاجة الى الارشاد ، وان يشد عزائم المسيحيين لاتمام هذا

العمل الضرورى حتى يضمنوا النجاح لهذا المشروع الشاق ، والا فما جدوى عزمه الكبير على القيام برحلته الطويلة التى قام بها اذا كان يريد العودة والرجوع بهذه العجلة » ؟ ·

يالها من طريقة بالغة الغرابة للتنصل من عهده وهو لم يدخل البلد الا البارحة ، ولم يحرز من النصر على الترك الا الشىء القليل ·

ترى ماذا أقول أكثر من هذا ؟ ·

أقول ان ملك فرنسا ادعى أنه قدم للحج فمرض فأصبح الآن فى حل من عهده اذ أوفى به ، وأنه حين حمل الصليب مع الملك هنرى فيما بين « تراى » و «جيسور » كان فى صحة وعافية أما الآن فليس هناك من أمر يلزمه بشىء ·

الا آنه لا يجوز ان تسود صفحة مجد ملك فرنسا فقد بذل الكثير من الجهد والمال فى هذه البلاد وذلك فى استيلائه على عكا ، وما من أحد ينسى أنه مد يد العون والمساعدة الى كثير من الناس · كما أدى خبر حضوره الى ايجابيات سريعة لاسيما فيما يتعلق بانجاز هذا العمل العظيم ، وليس من شكا فى أنه ليستحق ــ وهو أكبر الملوك المسيحيين هيبة وأعلاهم مكانة ــ أن يحتل المدينة ، ولما كان أقوى وأعظم هيبة من كثيرين · غيره فقد وقع على عاتقه حمل مسئولية ينوء بحملها كثيرون غيره وذلك فى استرداد هذا القطر الذى تخلى الناس عنه ، والذى كان محروما من العون والمساعدة ، والذى دخله الكفار فدنسوه ، وقديما قال « جريجورى » كلما زادت العطايا ازدادت ملحقاتها هى الأخرى تبعا لها ، أو كما قال لوقا فى انجيله « الذى لايعلم ويفعل ما يستحق ضربات يضرب قليلا ، فكل من أعطى كثيرا يطلب منه كثير ، ومن يودعونه كثيرا يطالبونه بأكثر » (٣٣) ·

حين علم الناس جميعا بعزم ملك فرنسا الأكيد بالعودة الى دياره وانه غير مكترث بتذمر الناس أو مصغ الى توسلاتهم وبكائهم كاد الفرنسيون أن يخلعوا طاعتهم له ويحلوا أنفسهم من الولاء له ويرفضوا سلطانه عليهم ، فدعوا بالويل وسوء الطالع على كل من ينشق عليهم ، واستنزلوا اللعنات تصيبه فى حياته فتتسم حياته بالتعاسة ، الا ان الملك (فيليب) رغم هذا كله بذل غاية جهده فى ان تتم ترتيبات عودته على جناح السرعة ، تاركا دوق برجندنيا نائبا عنه فى هذا القطر ، وخلف معه الكثيرين • كما بعث فى الوقت ذاته كتابا الى الملك « ريتشارد » يلتمس منـــه غرابين من أغربته ، فاستجاب له الملك وأمر باسعافه بأحسن غرابين عنده ، غير ان ملك فرنسا أظهر فيما بعد كيف قابل الجميل بالجحود ، والفضل بالنكران •

فـ ٢٢

ملك فرنسا يقسم للملك ريتشارد بمسالمته لشعبه وعدم المساس بأرضه حتى يعود الى وطنه

كان الملك « ريتشارد » يرى وجوب قيام ملك فرنسا بعقد اتفاق معه للحفاظ على صدق العهد والأمان المتبادلين بينهما كما كان العهد بوالديهما فى تبجيل كل منهما للآخر واظهار الود له ، وان كان الحب عباءة تخفى تحتها عداوة ، تحمل الجميع على الاعتقاد بأن لن يثير أحدهما الخوف فى نفوس قومهما وكان ذلك رياء من كل منها • ولما كان الخوف يملأ نفس الملك ريتشارد من ناحية ملك فرنسا فقد طلب منه أن يقسم له بالحفاظ على حسن طويته نحوه والا يحنث عن قصـــد فى كلمته له فلا يقدم على مهاجمـــة رعيته أو بلاده أثناء غيابه فى رحلة الحج هذه (٣٤) فان خالجه خالج شك

فى قيام الملك « ريتشارد » بعمل يستحق من أجله اللوم فليفض به الى الملك ريتشارد ذاته حتى يتداركه بعمل اتفاق مع الفرنسيين بعد عودته الى بلاده ويتم اصـــلاح ذات البين ويزيل الشك فى مدى أربعين يوما يتوصل فيها الى ما يجب اتخاذه لمعالجة أية أخطاء تكون قد ارتكبت ، وألا يقوم ملك فرنسا بعمل أى شىء ضار من جانبه •

أقسم ملك فرنســا للملك ريتشـــارد اليمين التى أرادها الأخير ، كما تعهد ان يراعى كل ما تم الاتفاق عليه مراعاة صادقة ، وأعطى الرهائن تأكيدا على محافظته على صدق كلمته ، وكان من بين هذه الرهائن : دوق برجنديا ، وهنرى كونت شـــامبين ، وخمسة من كبار الرجال أو أكثر نسيت أسماءهم • وعرف كل جانب كيف يلتزم بيمينه ويفى بعهده • فلما فرغ الملكان من ذلك عاد ملك فرنســا الى دياره لكن ليبث الاضطراب فى كافة أرجـــاء نرمنـــديا •

ومختصر القول ان ملك فرنسا غادر بعد ان ترك جيشا فى عكا ، وما من أحد الا وتمنى له سوء الطالع ولعنه الجميع وراحوا يصبون اللعنات عليه بدلا من استمطارهم الدعوات الطيبات له •

فـ ٢٣

ملك فرنسا يرحل مع رهائنه ومع المركيز الى صور ويبقى دوق برجنديا وكثير من الفرنسيين مع الملك ريتشارد

ركب ملك فرنسا البحر يوم عيد القديس بطرس فى الاغلال (وهو أول أغسطس سنة ١١٩١ م) وأبحر قاصدا « صور » تاركا جانبا كبيرا من جيشــه مع الملك ريتشـــارد ، كما صحبه فى عودته

الى « صور » المركيز الملعون عائدا هو الآخر أيضا اليها واستصحب الملك معه « قراقوش » الذى أشرت اليـه حـالا وجميع الرهائن المسلمين الذين كانوا من نصيب ملك فرنسا الذى أصر فى الوقت ذاته أيضا على ان يتسلم مبلغا قدره مائة ألف قطعة ذهبية ، ويقال بل أكثر من هذا القدر ، فدية لهم وقال ان هذا المبلغ لسد نفقات أهل بلده أثناء اقامتهم فى هذا القطر حتى يحل عيد الفصح .

أشرف الوقت المتفق عليه لتسليم الرهائن على الانصرام ويبدى كأن المسئولين عن تحريرهم لم يكن يعنيهم أمرهم فلم يفوا من جانبهم بالفدية التى اتفقوا عليها . والحق ان الكثيرين من هؤلاء الأسرى ماتوا دون أن يدفع أحد لهم دانقا واحدا (٣٥) ، ولم يفدهم وجود الرهائن بشىء على الاطلاق ولم يصلهم حتى نصف المئونة التى كان متفقا عليها مما وجدوها متوفرة فى مدينة عكا حين تغلبوا عليهـا .

من أجـل هذا فانه ظل على الدوام فى ذاكرة الفرنسـيين أنهم لم يتلقوا أى أجر آخر من ملك فرنسا ، وقد أدى هذا الى حدوث شقاق وتذمر بالغين انتشرا فى صفوفهم حتى قام الملك ريتشارد فالتمس من دوق برجنديا بأن يعيره خمسة آلاف مارك ذهبى بضمان رهائنه ليدفع منها رواتب قواته .

الكتـــاب الـــرابع

ف ١

الملك ريتشارد يوزع المنح على الفرسان ويرمم أسوار عكا

منذ ان تبين للملك ريتشارد أنه أصبح فى وضـع القيت فيه أعباء الأمور كلها على عاتقيه وآلت اليه المسئولية الكبرى عن نجاح هذا المشروع وادارة عملياته والصرف عليه فقد قام من غير ضجر ولا تأفف بتوزيع مبالغ نقـدية كبيرة من الذهب والفضـــة على الفرنسيين والأجانب أيا كانت جنسياتهم ، حتى يكونوا أكثر قدرة على تعويض ما صرفوه واسترداد مالهم من رهونات ، وما فى أعناقهم من ديون يجب سدادها .

وبينما كان ملك فرنسا يعد العدة للرجوع على وجه السرعة الى وطنه ـ وهو رجوع جاء قبل أوانه ـ كان الملك ريتشارد يبذل كل عنايته وقصارى جهده لترميم أسوار المدينة حتى تكون أكثر ارتفاعا وأقوى مما كانت عليه من ذى قبل ، قبل أن تمتد اليها يد الهدم ويطولها التدمير ، وكان دائم التفتيش عليها دؤوبا فى نشاطه غير ملق بالا الى ما يصادفه من تعب ولا نصب ، سعيا منه وراء الحصول على ارث الرب

ف ـ ٢

صلاح الدين لايفي باتفاقه حول ارجاع صليب السيد ودفع الأموال ولا يعنيه أمر رهائنه

ظل الملك ريتشارد يترقب انتهـــاء الفترة المحددة بينه وبين الترك كما شرحنا من قبل ، وان ظل طوال هذه الفترة يبذل جهده فى ترتيب آلات رمى الحجارة والمجانيق ، وما انتهى الوقت الذى حدده المسلمون لارجـــاع الصليب الطاهر واطلاق سراح الأسرى الرهائن حسبما هو وارد فى الاتفاق المبرم بين الطرفين حتى أخذ الملك ريتشارد نفسه بالانتظار ثلاثة أسابيع أخرى ليرى عما اذا كان صلاح الدين ملتزما بكلمته أم انه شاجبهـا مع انه هو الذى اقترحها . لكن الظاهر ان صلاح الدين لم يكن معتدا بهذا الأمر ولا مفكرا فيه ، وربما كان صـــادرا فى ذلك عن أمر شاءه الرب للوصول الى شيء يكون أكثر جدوى وأكبر فائدة ، فقد أخذ المسلمون يطالبون بالتريث والامهال فى الوفاء بما وعدوا به بحجة البحث عن الصليب (١) .

ولقد كنت تسمع اذ ذاك المسيحيين يتســـاءلون متى يـرد صلاح الدين عليهم الصليب الطاهر ، وما علموا ان الرب لم يشأ أن يعود الصليب الى اهله لقاء اطـلاق سراح أولئك الذين وعـد بتحريرهم ولكنه آثر ان يهلكوا . غير أن الناس كانوا ما بين قائل ان الصليب حاضر حالا ، وآخر يقول انه شوهد مع الجيش المسلم ، ولـكن كان قائل هذا وذاك مخطئين فيما قالا ، والسـبب ان صلاح الدين لم يكن مستعدا لارجاع الصليب ولم يكن يعنيه أمر الرهائن الذين اتفق على استردادهم لقاء ارجاع الصليب ، وكان

الدافع له على ذلك الموقف من جانبه هو طمعه فى الحصـــول على شروط أحسن من الشروط التى حصـــل عليها وذلك حين يجعل الصليب موضع مفاوضة ومساومة .

على ان الصلاح لم يكف فى الوقت ذاته عن متابعـــة ارسال الهدايا الجمة والسفراء الى الملك « ريتشارد » اكتســـابا للوقت بالكلمات المعسولة الخادعة ، ولكنه لم يوف أبدا بأى وعد من الوعود التى قطعها على نفسه فى هذا الصدد . وكان هدفه من وراء ذلك ان يستبقى الملك أطول مدة عن طريق رقته الكبيرة وأخاديعه (٢) .

ف ـ ٣

ملك انجلترا يبعث الرسل مرتين الى صور قبل ان يستطيع جيشنا استرداد رهائن صلاح الدين من يد المركيز الذى رفض ردهم فى سخرية

جاء السفراء الى صور (يوم الخامس من أغسطس) وكنا قد أغرينا المركير كثيرا ملحين عليه بالعودة الى الجيش وفى صحبته رهائن ملك فرنسا الذين وكل اليه الحفاظ عليهم وبقاؤهم عنده حين مغادرته هذه الأرض الى فرنسا ، وكان المتفق عليه بين المركيز وبين (فيليب) ان يتناصف هو وملك فرنسا ما يؤول الى الأخير من مبلغ الفدية ، وكان السفراء الذين عهد اليهم القيام بهذه السفارة ثلاثة : اثنـــان منهما هما أسقف ساليسبورى وروبرت ايـرل ليسيستر ومعهمـا الفـــارس بطرس دى بـــرو Preaux الذى كان من أبرز الفرسان .

غير أن رد المركيز على هؤلاء الثلاثة كان ردا لحمته الغضب وسداه الغلظة اذ جاهرهم أنه لن يستجيب لما طلبوه منه ، متعللا فى هذا الرفض بخوفه من وجود الملك « ريتشارد » ، ثم زاد فى وقاحته وغطرسته فقال انه اذا ما قدر لصليب الصلبوت أن يعاد فانه سيأخذ نصفه نيابة عن ملك فرنسا وانه لن يسلم لهم الرهائن حتى يتم هذا الأمر على هذه الصورة . فلما تبين للسفراء عناد المركيز ومكابرته حاولوا استرضاءه وفثء غضبه بمداهنته برقيق الكلام وطيب الوعود فقبلوا استبقاء واحد منهم عنده ضمانا لسلامته فى رحلته فى ذهابه الى الملك ريتشارد وفى ايابه من لدنه .

الا أنه لم يستجب لهم ولم يقع ما عرضوه عليه فى هذا الصدد موقع الرضى والقبول عنده ، ثم تمادى فى غلوائه فأقسم الا يذهب الى الملك ريتشارد أبدا ، فلم يبق أمام السفراء حينذاك الا مغادرته وعادوا أدراجهم وقد خاب مسعاهم ، ولم يحرزوا ما كانوا قدموا من أجله ، وأفضوا الى الملك « ريتشارد » بما جرى وبما وصلت اليه الأمور .

حينذاك تميز الملك غيظا مما سمع واستوقد غضبه ، على أن رجاله استعطفوه فاستجاب لهم بعد لأى فارسل سفارة ثانية الى صور ضمت فيمن ضمت دوق برجنديا ودروجو داميان d'Amiens وروبرت دى كوينسى Quincy ، وكانت مهمة هذه السفارة (الجديدة) هى أن تسأل المركيز المشار اليه ان يحضر بصحبتها ، وليس من شك فى ان حضوره كان أمرا ضروريا للسير قدما فى حل هذه المشاكل حلا يكون مكللا بالنجاح .

لقد كان المركيز شديد اللهفة ليكون ملكا على مملكة بيت المقدس ولكن الطريق الذى سلكه فى سبيل تحقيق هذا الأمل

كان من شأنه أن يباعد كل البعد بينه وبين تحقيق أمنيته ، ذلك ان الذين كانوا يجلبون الأزواد الى البلد كانوا يجلبونها بحرا وكانوا فى حاجة الى كتاب أمان يستطيعون به اجتياز « صور » ، الا ان المركيز أصر على منع هؤلاء الناس من دخول الميناء .

أما السفراء المشار اليهم فقد وصلوا الى صور وشرحوا للمركيز ما جاؤوا من أجله وألحوا عليه — بناء على تعليمات الملك ريتشارد — ان يحضر لمساعدتهم فى بلاد فلسطين لاسيما وأنه يطمع فى أن تكون له السيادة وحده خالصة على هذا القطر ، لكنه رد عليهم ردا جافا ملؤه العنجهية وأكد لهم أنه لن يذهب الى هناك بأى حال من الأحوال لأنه سوف يبذل قصارى جهده لرعاية ناحيته .

وتعارضت آراء الجانبين بعضها مع بعض ، وان أسفرت المفاوضات فى النهاية عن ان يستصحب السفراء الثلاثة الرهائن معهم فى عودتهم الى الملك ريتشارد ، وهكذا لم تتكلل مساعيهم بالنجاح سواء ما كان منها من الناحية العقلانية أو الأغراء فى حمل المركز على التخلى عن عناده .



ف ٤

رجالنا يقتلون رهائن صلاح الدين

انصرم الأجل المتفق عليه منذ أمد غير قليل قبل أن يصبح الملك ريتشارد مقتنعا كل الاقتناع بأن صلاح الدين قد غلظ قلبه من ناحية رهائنه ولم يعد يشغل نفسه وخاطره بقضية افتداء الرهائن ، لذلك جمع مجلسا ضم أكابر رجالاته واتفق الرأى منهم على الا يضيعوا مزيدا من الوقت عبثا فى انتظار حدوث أى تقدم من

جانب السلطان فى هذا الصدد ، ومن ثم فانه لم يبق الا ان يقطعوا رقاب جميع من فى يدهم من الرهائن والا يستبقوا منهم الا أعظمهم قدرا وأعلاهم مكانة حتى يغالوا فى طلب فديتهم وحتى يبادلوهم بمثلهم من الأسرى المسيحيين .

لقد كان الملك ريتشارد يتطلع على الدوام للخلاص من الترك والقضاء على عنجهيتهم المرذولة وسحق شريعتهم ســـعيا منه لدعم المسيحية وتعظيم أمرها بين العالمين ، لذلك ما كاد يفرغ يوم الجمعة (السادس عشر من أغسطس) من الاحتفال بصعود العذراء مارى المبـاركة حتى أمر بألفين وسبعمائة تركى من الرهائن الذين عنده أن يخرجوا بهم من المدينة لقطع رقابهـــم ، فانجز أمره المسلحون المرتزقة وأجهزوا عليهم تنفيذا لأمر الملك ، وقد فعلوا ذلك وهم مؤمنون بحق بما فعلوا اعتبارا منهم ان هذه هى مشيئة الرب فى الثأر لمن هلك من المسيحيين على يد الترك اذ قتلوهم بســهامهم ونشابهـم .

فـ ٥

الملك ريتشارد يستعد للزحف بالجيش على عسقلان برا وبحرا

نودى عند دخول الليل بأن يستعد العسكر للزحف صبيحة الغد فيعبرون نهر عكا ويتوجهون الى عسقلان متوكلين على الرب ، سالكين الطريق الساحلى فى ذهابهم الى هناك ، فلما استجابوا لهذا النـــداء حملوا أكثر ما يستطيعون حمله من الزاد الذى يكفيهـم عشرة أيام وأوسقوا ــ بما جمعوا ــ السفن التى أعدوها لتحمله الى الجيش ، وكان طعامهم مؤلفا من البسكويت والدقيق واللحم والنبيذ الى غير ذلك مما رأوه ضروريا ، وصدرت الأوامر الصـــارمة الى

نوتية السفن بالابحار وان يكونــوا فى ســـيرهم موازين للجيش الزاحف برا ، وان تنهج هذا النهج وتلتزم به لاتحيد عنه قيد شعرة جمع السفن سواء ما كان منها ما ينقل المقاتلين أو ما كان خاصا بحمل المتـاع والزاد ، وهكذا تم الاتفاق على ان ينقسم الجيش فى زحفه قسمين أحدهما يمضى برا والآخر بحرا (٤) .

ولقد كان من المستحيل الزحف فى البلاد ذاتها نظرا لاحتلالها من قبل الترك .

فـ ٦

كثرة من هلك من رجالنا الكبار فى مدى عام ونصف عام أثناء حصارهم عكا

من الواجب أن نعرف ان كثيرين من العسكر المسيحيين الذين يقصر العد عن حصرهم كانوا قد هلكوا ، كمـــا ان الجيش ابتلى بخسارة فادحة وتكلف نفقات باهظة فى سبيل الاستيلاء على عكا ، وهو الاستيلاء الذى استغرق منهم فصلين متتاليين من فصـــول الشتاء وفصل الصيف بأكمله ونصف فصل خريف (٥) حتى وقت اطاحة رقاب الترك كما ذكرنا آنفا .

وليس من شك فى أن ما حل بالترك كان أمرا يستحقونه من الرب ومن الناس جزاء ما أقدموا عليه من تدميرهم الكنائس وقتلهم العباد ، وربما كان من الأمور التى يستبعدها العقل كثرة العسكر الذين ماتوا فى هذه الفترة الزمنية ، وان كان من هلك من أكابرهم ــ كما يذكر أحد الكتاب ــ عددا كبيرا ، وان كان هذا الكاتب نفسه يصرح بانه من المستحيل حصر الخسائر التى كانت بين العـــامة اذ يقول :

" لقد مات من رجال الجيش
" ستة رؤساء أساقفة والبطرك (هرقل)
" واثنا عشر أسقفا
" كما مات من غيرهم أربعون من الكونتات .
وهلك خمسمائة من جماعة النبلاء
" وطائفة كبيرة من القسس ورجال الدين (٣)
" وحشد كثيف من العامة الذين لم يمكن التعرف عليهم "

ف ـ ٧

الملك ريتشارد يرغم الفرنسيين على مغادرة عكا وينصب خيامه خارج المدينة

كان الملك ريتشارد حينذاك قد نقه واسترد عافيته ، ولما تم الفراغ من اعدام الترك غادر (ريتشـــارد) عكا بجميع من معه ، وعزم ان ينصب معسكره فى السهول الواقعة خارج المدينة .

لقد أرغم (٦) الملك ريتشارد كل جماعته على مغادرة المدينة حتى الذين لم يكونوا راضين عن هذا الخروج ، ومن ثم بقى الجيش فى السهول التى ذكرناها استعدادا للزحف ، وحـاول بالمداهنة تارة وبالرجاء تارة أخرى حمل الفرنسيين على السير معه ، أما غيرهم فقد وصلهم بالمال ليصحبوه فى خروجه ، وأما غير هؤلاء وهؤلاء ممن لم يستجيبوا لرجائه فقد أرغمهم على الخروج قسرا . وأنزل عددا كبيرا من المشاة فى خيامه التى كانت منصوبة حول فساطيطه لشد أزر الحراس ولخوفه من غارات الترك

المتوالية ، وهم الذين ظلوا طول يومهم فى التقدم ، ثم صاحوا على حين غرة من رجالنا صياحا منكرا يتحدونهم به للنزال ، ولقد كانت عادة الملك أن يكون على الدوام أول من يخرج للقتال متقدما الصفوف حاملا سلاحه لمواجهة الترك حين يهاجمون رجاله ليذيقهم من العذاب ما تقضى به العناية الربانية وتشاء ان يكون الحاقه بهم على يـده .

ف ـ ٨

القبض على كونت هنجارى ومارشال الملك أثناء مطاردتهما الترك الذين راحوا يغيرون على رجالنا

وحدث فى أحـد الأيـام (وهو الثـامن عشر من أغسطس) ان أغار الترك فجأة على رجالنا وقد تعالى ضجيجهم عاليا وارتفع صراخهم مدويا شاقا أجواز الفضـاء جـريا على مألوف عادتهم ، فدبت الفوضى فى أرجاء معسكرنا وهب رجالنا لامتشاق سيوفهم وحمل أسلحتهم ، وسرعان ما فعل الملك ما فعلوه وتقدم على ظهر جواده وخرج ومعه واحد من كونتـات المجر فى كامل سـلاحه واصطحب معه كثيرين من المجريين لقتال الترك الذين ما ان رأوا ما يرونه ونحكيـه حتى فروا على وجوههم فقصهم الملك ومن معه لكنهم لجوا فى المطاردة حتى اقضت بهم المطاردة الى البعد أكثر مما ينبغى ، وعلى الرغم مما أظهره رجالنـا من البطولة والشجاعة فى هذه المطاردة الا ان بعضهم وقعوا فى أيدى الخصـم الذى عاملهـم معاملة تنطوى على المذمة والعار ، وكان ممن أمسكهم الأعداء الكونت المجرى الذى كان خواض غمرات وكان رجلا ثبت الجنان جليل القدر ، لكنهم أسروه ، كما أسروا فارسا من أهل بواتيه اسـمه

« هيج » كان مارشال الملك ريتشارد الذى ما كاد يرى ما حل بهؤلاء حتى تقدم غير عابئ بسلامته وهمز جواده همزة قويا انطلق الحيوان على أثرها ، جعل الملك فى وسطهم فلم يلق بالا الى ما قد يصيبه بل كان همه انقاذ مارشاله ما وجد الى ذلك سبيلا ، الا أن الترك ضاعفوا من سرعة عدوهم وحملوا « هيج » معهم فلم يقف له أحد بعدئذ على أثر ٠

يا لعدم ثبات المعارك على حال واحده !!

لقد انقلب المنتصرون الى قوم لحقتهم الهزيمة ، كما أن الذين كانوا قد ضرستهم الهزيمة عادوا فصارت لهم اليد العليا ٠

لقد جد هؤلاء الفرسان فى اثر العدو فهلكوا (٧) حين لحقهم من كانوا يطاردونهم فأمسكوهم وأنزلوا بهم البوار ، وهكذا كان عملهم البطولى سببا فى جلب الخطر عليهم ٠

جرت عادة الترك على ألا يثقلوا أنفسهم بكثرة السلاح مما جعلهم أخف حركة وأقدر على الحاق مزيد من الخسارة والاضرار برجالنا ٠

كما كان الترك أقرب ما يكونون الى عدم التسلح فليس معهم من آلات الحرب سوى قوس وهراوة ذات أسنان حديدية مدببة ، وغير السيف فى يمناهم ، ورمح من القصب ذى حد حديدى وخنجر خفيف ، وكانوا اذا وجدوا أنفسهم وقد اشتد خصمهم فى مطاردته لهم وتعقبهم لمسافة كبيرة فروا سراعا على جيادهم التى تسابق الريح فى عدوها ، وليس هناك أخف من أحصنتهم حتى لكانها العصافير فى خفتها وفى وثوبها .

كان من عادتهم أيضا أنهم اذا أدركوا أن مطارديهم توقفوا عن مطاردتهم توقفوا هم أيضا عن الجرى ويصيرون فى تلك الحال أشبه ما يكونون بالذبابة ان أنت ذببتها طارت ثم عادت حين تمسك عن هشها ولكنها لا تكف عن الطيران طالما أنت تذبها فان أنت أمسكت عن ذبها عادت وهكذا دواليك ٠

هكذا كان التركى أيضا ٠٠ ان أنت توقفت عن مطاردته وعدت الى مكانك رجع فكر عليك ، وأما ان أنت قصصته فانه لائذ بأذيال الفرار ٠

أخذ الملك فى مطاردتهم قاصدا من وراء ذلك ان يفروا لكنه ما ان كف عن مطاردتهم حتى راحوا يهددونه من الوراء واذا كانوا لم يسلموا من الأذى فى بعض الأحيان الا انهم فى أحيان أخرى أنزلوا برجالنا أهوالا جمة ٠

فـ ٩

ارغام عسكرنا على مغادرة المدينة بعد جهد جهيد لانهماكهم فى اللهو وأخيرا يعبرون نهر عكا فى الوقت الذى أرهقهم فيه الترك بغاراتهم من كل جانب

كان الملك ريتشارد لايزال جالسا فى خيامه فى انتظار قدوم العسكر من المدينة فاذا بهذا العسكر يجيئه لكن ببطء شديد وهم كارهون لهذا المجىء الذى لم يسفر عن زيادة كبيرة ، الا أن المدينة كانت مكتظة بأهلها ٠

قدر عدد رجال الجيش كله بمن فيهم العسكر الذين لم يتركوا المدينة بثلاثمائة ألف من الرجال الأشـــداء • فأما الذين غادروها فكانوا عددا هزيلا استكان أكثرهم الى الكسل والبطالة وأخلدوا الى رفاهية الحياة لاسيما والبلد حافل بشتى صنوف اللهو والمتعة من خمر معتقة وكواعب أتراب ساحرات لم تر العين أجمل منهن ، مما أفضى بمعظم العسكر الى الانغماس فى حياة اللهو والفجور ، وأكثروا من التردد على النسوة الساقطات ، وعكفوا على الشراب يعلون منه ولا يرتوون ، ومن ثم أصبحت المدينة تعج بهم وتضج من مباذلهم الدنيئة فى طلب اللذة ، واشتد الطمع بسكانها فسلكوا سلوكا قبيحا اذا ذكر أمام العقلاء احمرت وجوههم خجلا لما اتسم به هذا السلوك من نبذ الحيـــاء والبعد عن الحشمة بعـــدا يزرى بصاحبـــه •

وتشاور العقلاء فيما يجرى فاتفقوا على ان استئصال شافة هذه الفضائح المهينة انما يكون بألا تصحب أية امرأة الجيش حين خروجه الا من يقمن بغسل (٨) الملابس فانهن يخرجن ولكن سيرا على الأقدام حتى من المدينة بل عليهن البقاء فيها ، حتى لا يكون هناك عبأ على الجيش ولا مدعاة الارتكاب الخطيئة •

ولما كان الصباح الباكر من اليوم المحدد للخروج أخذ الجيش سلاحه وأعد عدته ، ووقف الملك فى المؤخرة ليحول دون المهاجمين الذين كانوا مصدر مضايقة تهديد للعسكر •

كانت رحلة ذلك اليـــوم قصيرة فما أن رأى ذلك الجيش الملعون عسكرنا يتحركون حتى اندفعت جموعه الكثيفة من نواحى الجبال كالأعصار الجارف وانطلقوا فى جمـــاعات ما بين عشرين وثلاثين رجلا وانتشروا فى كل صقع وناحية ، وبذلوا كل ما فى

وسعهم لازعاج الجيش والحاق ما يستطيعون الحاقه به من الأذى ، لكنهم لم يسلموا من موت الكثيرين من رجالهم ومن أقاربهم كثرة أزعجتهم فكانت جثثهم ملقاة ممزقة شر ممزق كما وصفناها من قبل ، وراح الترك يعملون على زيادة جراح رجالنا النفسية كما انطلقوا يلحون فى مطاردتهم لهم الحاحا لم يدعوا فيه بابا من المضايقـــة الا ولجوه •

غير أن معونة الرب لم تمكن الترك من جنى ما يسعون اليه ، فقد استطاع رجالنا عبور نهر عكا آمنين سالمين ونصبوا خيامهم من جديد ، وظلوا مقيمين حتى توافدت بقيتهم واكتمل حشدهم وكان ذلك يـــوم الجمعة (الثالث والعشرين من أغسطس) أعنى يـــوم الاحتفال بعيد القديس برتيلميو ، فلما كان يوم الاثنين التالى كان قـــد مـــر عامان على حصـــــــار المسيحيين لعكا وكان هذا هـــو حصارهم الأول •

فـ ١٠

جيشنا يتقدم فى خطى منتظمة ويصد الترك الذين يكرون عليه كرة عنيفة • وصف العلم

لما كان الصباح الباكر لغداة يـــوم الاحتفال بعيد القديس « برتيلميو » ، وكان يوم أحد ، تقدم الجيش باسم الرب وصف كتائبه • وسار على طول الشاطىء ، فليتك كنت حاضرا آنذاك اذن لرأيت ثم رأيت فرسانا مغاويرا ومحاربين أمجادا •

لقد كانوا جماعة مختـــارة ومقاتلين أشـــداء يخطرون فى أسلحتهم ، وتخفق عليهم الرايات والأعـــلام والبيارق من شتى

الأشكال ، ويلوحون بالرماح التى فى أيديهم فتلمع متونها ، وعليهم زرد الحديد يخطف بريقه الأبصار ، وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة .

لقد كان جيشا حسن الترتيب ، يبعث مرآة الرعب فى قلوب الأعداء فترتعد فرائصهم منه .

أما الملك ريشـــارد فكان فى الطليعة وله القيادة العليا ، ويقوم النرمان بحراسة بيرقه . ونرى انه ليس من سرف القول ان نصف العـلم .

كانت راية الملك تتألف من عارضة خشبية مفرطة الطول ، وكأنها سارية سفينة قد وضعت على ألواح صلبة كل الصلابة ، وكانت هذه العارضة محمولة على أربع عجلات قد شد بعضها الى بعض بمفاصل وكلهـا مكسوة بالحديد الذى لاتنفذ فيه الرماح ولا تؤثر فيه الفؤوس ولا تأتى عليه النار ان أصابته النار ، وقد ثبت فى أعلى كل ناحية منهـا علم الملك الذى يسمى عادة بالراية والذى جرت العادة على اختيار طائفة من الفرسان المهرة لحمايته لا سيما فى ساحة المعركة حتى يظل مرفوعا فلا تسقطه هجمات العدو فتنكسه فيفشل العسكر عن بكرة أبيهم ويتفرق رجاله أيدى سبا ، اذ لاشىء بعدئذ عندهم يلتقون حوله ويكون هاديهم ويجتمعون تحته فهم ان لم يروه خفافا ظنوا ان الهزيمة قد حاقت بهم وداخلهم الرعب . لكن ما ان تظل الراية مرفوعة خفاقة فالطمأنينة رفيقهم والسكينة حارسهم اذ يطمئنون لوجود ملجأ صدق يهرعون اليه فى الشدة بل انهم ليأتون اليه بمن مسهم الوهن فأقعدهم أو أثخنتهم جراحهم فيجدون الرعاية ، بل انهم ليجيئون اليه بمن خروا قتلى فى ساحة المعركة ان كانوا من ذوى الباس ومن البارزين . وهكذا فانه ما دامت الراية مرفوعة قوية تكون حينذاك « راية للشعوب وتكون محاربا مجدا » (٩) .

كان هذا العلم يوضع على بكرات حتى يمكن دفعه الى الأمام اذا ما ارتد العدو الى الوراء (١٠) فى هجومه تبعا لسـير المعركة وتحركاتهـا .

وقد جرت عادة النرمنديين ان يلازموا هذه الراية لا يفارقونها أبدا .

كان دوق برجنـــديا والفرنسيون موجـــودين فى المؤخرة ولم يسرعوا السرعة الواجبة فى متابعة العسكر مما أدى الى اتسام حركتهم بالبطء الشديد مما عاد عليهـم بالخســارة الكبرى . لأن الجيش كان فى زحفه مصاقبا للبحر الذى كان على يمينه ، وكان الترك الذين على يساره يراقبوننـا من موضعهم على التلال دون أن تغفل لهم عين . غير ان السماء ما لبثت ان تلبدت بالغيوم فجأة فاسودت ، وكان الجيش قد بلغ موضعا شديد الضيق لا يكاد يتسع لمرور دابتين من دواب الحمل جنبا الى جنب ، فاضطربت الأمور ولكنهم ظلوا فى تقدمهم رغم ما هم فيه من الضيق ، فلما شاهد المسلمون ما هم عليه من الحرج باغتوهم وكروا على عربات النقل وسائقيها كرة لم تكن فى الحسبان فقتلو الكثير من دوابهم وامتدت أيديهم بالنهب والسلب الى كثير من المتاع الذى يحملونه ، وفتكوا بمن اعترض سبيلهم فمزقوهم شر ممزق ، وفرقوا غيرهم ودفعوهم حتى بلغوا ساحل البحر وهم يعملون فيهم الذبح والقتل أنى ثقفوا أحدا منهم

وأعقب ذلك ملحمة شديدة المرارة كانت الحرب فيها سجالا بين الجانبين وكانت شديدة الوطأة وكل منهما بدافع عن نفسه دفاعا عظيما ، وتمكن واحد من الترك من بتر يمين شخص اسـمه « ايفرارد » كان فى خدمة أسقف سالسبورى ، وكان السيف فى

يمناه فما تغير محياه بل قبض عليه بيسراه وراح يكيل به الضربات هنا وهناك ، ويسدد الى الترك الذين تكاثروا عليه وأحاطوا به فدفعهم بشدة ، وأبلى البلاء المجيد فى الدفاع عن نفسه .

حينذاك عمت الفوضى مؤخرة الجيش من جراء هذا الهجوم ، واستولى الذهول عليهم اذ قلب الحظ لهم ظهر المجن ، فلما رأى « جون فيتز لوقا » ما صارت اليه الأمور انطلق بجواده ليفضى فى الحال الى الملك « ريتشـــارد » الذى لم يكن يعلم بما جـرى ولا بما انتهى اليه الموقف ، فلم يكن من الملك الا أن امتطى فى لحظته جوادا سريع العدو وعاد ادراجه ليكون نجدة لأهل المؤخـرة ومعه كوكبة من جنده ، فانفض الترك لساعتهـم انفضاض الفلسطينيين أمام (١١) المكابيين وتفرقوا فى شـتى النـــواحى أمام الملك ريتشارد لائذين بشعاب الجبال ، وان كان فريق منهـــم طاشت حلومهم فلم يدروا ما يفعلون فظلوا فى أماكنهم فطالتهم أيدى رجالنا وأمسكوهم مسك اليد . وكان هناك فرنسى اسمه «وليم دى باريس» Barres كان قد خـرج على الملك ريتشـــارد من قبـل بسبب نزاع بينهما ، أما الآن ـ وفى هذه اللحظة بالذات ـ فقد عادت اليه فطانته وشجاعته (١٢) فرجع الى صفوف الملك الذى لم يحرمه من عطفه فحباه به من جديد وشمله برحمته .

لم يكن صلاح الدين بعيدا من هنـا اذ كان على رأس جميع قواته ، ولكن كان اليأس المطلق قد استـــولى عليه وعلى الترك الذين معه . وانبت حبل رجائهم فلم يعد يراودهم أمل ما فى أى انتصار يحرزونه بعد هذا الانكسار الشنيع الذى لحقهم ، فأمسكوا عن مهاجمة رجالنا ، واكتفوا بدلا من ذلك بمراقبتهم وهم بعيدون عنهم . أما جيشنا فقد تابع زحفه فى انتظام حتى بلغ نهـرا شاءت الصدفة أن يجدوا عنـده صهاريج مياه فتذوقوها فاذا هى عذبة

سائغة وصالحة للشاربين ، فضربوا خيامهم على مقربة منها وأقاموا فى الســهل الفسيح الذى يطوقها فشاهدوا من مكانهــم هذا صلاح الدين وقد نصب خيامه هو الآخر فى مواجهتهم ، وقدروا من مدى اتساع الرقعة التى يشغلها معسكره ان جيشه الذى معه فى هذه اللحظة لابد وأن يكون كبيرا .

على هذه الصورة كانت مشيئة الرب التى اختارها لرجالنا فى ذلك اليوم الأول حتى يأخذ العسكر حذرهم ويركنوا الى الدقة فى تصريف أمورهم ، وقد علمتهم التجارب والأحداث أن يأخذوا الحيطة فى زحفهم تجنبا لخسائر تلحق بهم .

فـ ١١

جيشنا يصل من نهر عكا الى حيفا

كان صلاح الدين على الدوام مصدر ازعاج لجيشنا ، فقد نصب هو ومن معه من الترك الكمائن فى الممرات الجبلية التى كان لابد لعسكرنا ن يمروا بها ويسلكوها فيتصيدهم جنده ويوقعونهم فى شراكهم ، لذلك ما كاد بعض رجالنا ـ وكانوا قلة ـ يدخلون هذا الشعب حتى هاجمهم الترك الذين كروا عليهم فتركوا الكثيرين منهم ما بين قتيل مضرج فى دمه ، وأسير يرسف فى قيده ، ومشرد لا يدرى أى وجهة يوليها ، الا أنهم تقدموا فى انتظام من ناحية ذلك النهر المشار اليه وقد أخذوا حذرهم وساروا الهوينى فلاهم بالمسرعين ولا هم بالمبطئين حتى وصل بهم الزحف الى حيفا فنصبوا خيامهم فى انتظار عامتهم الذين كانوا فى أعقابهم (١٣) .

أقام رجالنا فيما بين البحر ومدينـة حيفا فترة بلغت يومين يتفقدون متاعهم فألقوا بعيدا عنهم ما رأوا الا حاجة لهم به واحتفظوا

بما رأوا ان لا غنا لهم عنه ، لا سيما وأن العامة (الذين كانوا فى آثارهم) كانوا لا يملكون ظهورا يركبونها فكانوا مشاة على الأقدام، قد أثقلهم ما كانوا يحملونه من صرر الزاد ، وبما معهم من السلاح الذى كان أصعب ما تنوء به كواهلهم والذى أرهقهم غاية الارهاق، والحق ان الكثيرين منهـم كابدوا مشقة عظمى بسبب ما بذلوه من جهد وما كابدوه من تعب فى حملهم هذه الأشياء ، ناهيك بالظمأ الذى أمضهم وزادهم ارهاقا .

ف ١٢

جيشنا يذهب مباشرة من حيفا على طول الساحل فتؤذيه الأشـواك وتصادفه الحيوانات المفترسة عبر كفر ناعوم لكن يصل أخيرا الى مسالك عثليث الضيقة

وفى أحد أيام الثلاثاء ـ أعنى ثالث أيام توقفهم فى حيفا ـ اصـطفت كتائب الجيش فى مجموعات كان الداوية فى طليعتها والاسبتارية فى مؤخرتها ، وأظهروا بسالة ملحوظة فى قتالهـم دل على كفاءتهم وعلى ما هم عليه من بطش شديد ، كما أظهر الجيش كله فى هذا اليـوم غاية الحذر والحيطة ، ولم يكن الطريق كله ميسرا أمامه بل كان الحسك أشد العوائق التى اعترضت سبيلهم . هذا الى جانب كثير من النباتات والحشائش النامية نموا كبيرا والتى كانت تصفع وجوههم ، وان لاقى مشاتهم من ذلك أمرا عسـيرا وما هو أشـد هولا ، فقد خرج عليهم كثير من حيوان الغابات ، وصادفهم المناطق الكثيفة النباتات الشائكة المتناثرة فى كل النواحى الساحلية ، وأخذت هذه الحيوانات تتواثب بين أقدامهم كأنهـا تداعبهم وتلهو بهم ومعهم .

ثم جاء الملك برا الى مدينة (١٤) « كفر ناعوم » التى هدمها المسلمون وسووها بالتراب ، فترجل من فوق جواده وجلس لتناول طعامه والعسكر وقوف فى انتظاره ، أما من شـــاء منهم أن يأكل فقد أكل ، فلما فرغوا جميعا مما هم فيه انطلقوا لطيتهم وتابعوا زحفهم حتى بلغوا ناحية تعرف بدتروات Destroit (عثليث) ، وكان الشعب فى هذه الناحية شديد الضيق ، الا ان هذا الضيق لم يحل بينهم وبين ان ينصبوا خيامهم هنا ، ونزلوا يستجمون وينشدون بعض الراحة بعد الجهد والمشقة اللتين كابدوهما .

لقد جرت العادة فى الجيش أن يوكل الى أحد أفراده ـ قبل ذهابهم للنوم ـ أن يقف وســط المعسكر ويصيح بصوت مدو قائلا : « أيها القبر المقدس .. كن عونا لنا » ، فيردد الجميع وراءه هذا الهتاف ويكررون نفس الكلمات ، رافعين أكفهم الى الســماء تضرعا وابتهالا ، وعيونهم تفيض بالدمع يسألون الرب ان يتغمدهم برحمته ويسعفهم بقوته ، ثم يكرر المنــادى الهتاف مثنى وثلاثا وهو يقول : « أيها الضريح الطاهر .. كن عونا لنا » ويبكى بكاء حـارا .

ترى من ذا الذى يرى ما يفعله هـذا الشخص ثم لا يملك نفسه عن فعل ما يفعله ؟ . بل ان تكرار هذا العمل لا بد وأن يحرك قلب السامع فلا يستطيع منع نفسه من سكب دموع الندم والتوبة . والواقع أن هذا الهتاف كان يدخل الهدوء والسكينة فى قلوب الجند .

كانت الرحلة على طول ساحل البحر شديدة الصعوبة قاسية على الجيش بسبب حرارة الجو المحرقة ، ولم يكن الأمر قاصرا على معاناتهم القيظ القائظ فحسب ، بل زاد الأمر مشقة ان المسافة كانت طويلة طولا بالغا ، يضاف الى ذلك ما أصاب الكثيرين منهم من نوبات الاغماء تنتابهم مرة بعد مرة وحينا بعد حين ، كما ضربهم الجوع بنابه وأجهدتهم الرحلة والسير الطويل ، فسقط بعضهم هلكى فدفنهم رفقتهم حيث سقطوا ، ورغم ما أحسه الملك من الحزن الشديد عليهم الا أنه كان هناك أكثر منهم قد أجهدهم السفر وطول الرحلة وأنهكهم السقم ، وكذلك كان هناك سواهم ممن قاسوا غير ذلك من الأهوال فأمر الملك بنقلهم فى الشوانى والأغربة ليبلغوا الغاية التى قدموا من أجلها .

ولما أكمل الجيش رحلته على هذا الوجه الصعب أفضى به الزحف الى مدينة « قيصرية » لكن الترك كانوا قد سبقوه اليها فاعملوا يد التدمير والتخريب فيما وصلوا اليه من أسوار البلد وأبراجها ، ثم فروا هاربين على وجوههم حين علموا باقتراب رجالنا الذين ما كادوا يبلغون هذه الناحية حتى نصبوا خيامهم وقضوا ليلتهم الى جوار النهر وهم أقرب ما يكونون الى المدينة ، وكانت تلك الناحية تعرف بنهر الزرقاء أو نهر التماسيح اذ التهمت التماسيح ذات مرة فارسين كانا يسبحان بالنهر .

أما قيصرية « فمدينة عظيمة الاتساع ، وهى ذات مبان وعمائر شاهقة رائعة متقنة الصنع وقد اعتاد المسيح التردد عليها مع تلاميذه ، واشتهرت بين الأنام بسبب ما تم على يده فيها من المعجزات (١٦) .

وأمر الملك سفنه بالانضمام هناك الى الجيش كما أنه أصدر قرارا نادى به المنادى بين الناس فى مدينة عكا بأن يستقل البطالون

بها ظهور المراكب التى أرسلها لهم وان ينضموا الى صفوف الجيش حبا فى الرب وتمجيدا للعقيدة المسيحية ، وحتى يقضوا بعد ذلك مناسكهم ، فاستجاب لأمره الكثيرون ممن كانوا قد قدموا الى قيصرية صحبة الأسطول الملكى الذى كان محملا أحسن تحميل بالمواد الغذائية ، كما أنه أمر بأن يبحر الأسطول جنبا الى جنب مع الجيش فى زحفه على اليابسة .

وتجمع حشد كبير جدا من السفن ، واستعد الجيش من ناحيته لمتابعة السير ، حتى اذا كان يوم الثلاثاء وقد أوشكت الساعة التاسعة من صباحه خرجوا جميعا من « قيصرية » وساروا على تأن خوفا من تهديدات الترك المتتالية وهم الذين كانوا كلما أبصروا الجيش يزحف دنوا منه جهد ما أمكنهم وهاجموه منزلين به ما قدروا عليه من الخسائر التى كانت هذه المرة أفدح مما كانوا ينزلونه به فى كل مرة سابقة ، الا أن رحمة الرب أخرجتنا من هذا الضيق سالمين ، وتركوا عندنا واحدا من أمرائهم (١٧) مقطوع الرأس ، وكان هذا الأمير فيهم رجلا شديد الجرأة والشدة ومن ذوى المكانة فيهم ، وقيل انه كان قد بلغ من القوة درجة يعجز أى أحد عن انزاله من على ظهر جواده أو يجرؤ على مهاجمته ــ كما انه كان يحمل فى يده رمحا يجاوز طوله طول سيفين مما معنا ، وكان اسم هذا الأمير « اياز الطويل » ، ولقد اشتد حزن الترك عليه حتى لقد قطعوا ذيول خيولهم أسفا على النهاية التى انتهى اليها ، وكم كانوا يودون لو حملوا معهم جثمانه فرجعوا به ، ولو كانوا قد وجدوا الى ذلك سبيلا ما قصروا عنه .

وتابع رجالنا الزحف من موضعهم هذا الى النهر المسمى بالنهر الميت ، وكان المسلمون قد أرادوا ان يغطوه فغطوه حتى لا يعود أحد يراه ويصبح رجالنا فى خطر التردى فى مياهه وهم

لا يشعرون ، لولا أن تولتنا رعاية الرب فقد كان النهر مكشوفا من احدى جهاته فجاء رجالنا الى هذه الناحية وعبوا من مائها ما شاؤوا أن يعبوا ، ونهلوا ما شاؤوا ان ينهلوا ، وطال مقامهم فى هذا الموضع حتى بلغ ليلتين .

ف ١٥

جيشنا يغادر النهر الميت لكن الترك يكبدونه خسائر جمة قبل وصولهم النهر المالح ويقتلون رجالنا وجيادنا

ولما كان اليوم الثالث (وهو الثالث من سبتمبر) أخذ الجيش فى السير وان اتسم سيره بالبطء ، ولما كانت هذه الناحية بلقعا جرداء فقد اضطروا للسير عبر الجبال ، ناهيك بما كان عليه الشريط الساحلى من كثرة الأعشاب والنباتات المتشابكة التى تعوق زحفهم وتقف عقبة كاداء فى سبيل تقدمهم ، ومضوا فى جماعات قريب بعضها من بعض أكثر مما جرت به العادة وكان فى المؤخرة يومذاك الداوية وان فقدوا كثيرا من جيادهم بسبب هجوم الترك عليهم من الخلف هجوما كاد ان يدخل اليأس الى نفوسهم (١٨) .

وفقد كونت سان بول Pol كثيرا من جياده فى هذا اليوم ، ونظرا لما طبع عليه من الجرأة والاقدام فقد كان عرضة لمزيد من هجمات الترك الموصولة بلا انقطاع ، وأقسم الا أن يتصدى لهم ، فكان له ما أراد ولم يتسرب اليه الخور ولا الكلل ، وتبادل هو وهم الهجمات يشنها كل واحد منهم على الآخر ، وآتت جهوده أكلها فقد استطاع الجيش أن يتقدم آمنا ، مما جعل الناس ألسنة تلهج بالثناء عليه .

ولقد راش أحد الترك سهما الى الملك فجرحه فى أثناء مطاردته لهم وأعماله الذبح فيهم ، الا ان الجرح الذى أصابه من هذا السهم كان بسيطا لكنه أثار غضبه وحركه للانتقام من العدو ثأرا مما أصابه وتهدئة للغضب الذى كان يحس به فى نفسه ، ومن ثم ظل يقاتل طول يومه بلا انقطاع ، ويهاجم الترك هجوما لم يعرف فيه الراحة رغبة منه فى أن يحملهم على الانسحاب .

أما الترك فلم ينثنوا عن عنادهم المؤذى وظلوا يناوشون جندنا على طول تقدمهم مستهدفين انزال أكبر قسط من الخسائر يستطيعونه بهم ، ووالوهم برميهم بسهامهم ونشابهم رميا كثيفا حتى انك ما كنت لتجد من كثرة ما رموا مسافة أربعة أقدام خالية مما قذفوه . وظل الحال على هذا المنوال طول اليوم حتى دخل الليل فانسحب الترك الى معسكرهم والى حيث يقيمون . أما رجالنا فقد نصبوا خيامهم الى جوار غدير يطلق عليه اسم نهر « الملح » وأمضوا ليلتهم هناك وكانوا قد جاؤوه يوم الثلاثاء عقب عيد سنت جيل وظلوا مقيمين به مدة يومين (هما ٣ و ٤ سبتمبر) .

والتف حشد كثيف من الناس حول جثث الجياد السمينة المقتولة التى كانت جراحها قد أثخنتها فانتفخت فتزاحم العامة عليها وتنافسوا فى أخذها ، وأخذ كل واحد منهم يدفع الآخر والكل طامع فى شراء لحومها التى لم تكن رخيصة ، واشتد تكالبهم وتدافعهم وتبادلوا اللكمات ، فلما سمع الملك بهذا الأمر قرر اصدار نداء عام انه سوف يعطى جوادا حيا لكل من يوزع لحوم الحيوانات النافقة وأقبلوا عليها كما لو كانوا يتناولون لحما شهيا ولكنها كانت أشهى لديهم من كل لحم فى أى وقت آخر .

جيشنا يمضى من عند نهر الملح عبر غابة أرسوف ويصل الى نهر الفالك سالما

ولما كانت الساعة الثالثة من اليوم الثالث (أعنى الخامس من سبتمبر) تقدم الجيش من نهر الملح واستعد للقتال اذ كانت الشائعة قد سرت بين رجاله أن الترك نصبوا لهم كمينا فى غابة أرسوف (١٩) ، ويقال انهم كانوا على وشك أن يشعلوا النيران فى الغابة حتى يحولوا بين الجيش وبين مروره فيهـا ويستحيل عليه اجتيازها . الا أن هذه الشائعة لم تثنهم عن اجتياز الغابة فاجتازوها سالمين فى الموضع الذى كان الكمين يترصدهم فيه .

فلما خلفوا الغابة وراءهم نزلوا بمهلا فسيحا نصبوا فيه خيامهم ودخل عليهم الليل فناموا حيث هم الى جوار غدير يسميه النـاس روشـتالى Rochetailie وبعثوا كشـافتهم تتجسس خبر الترك فعادوا اليهم وأخبروهم أن عسكرهم مر على مقربة منهم وانهم يترقبون وصولهم وقد غصت بهم الناحية ولا يحصيهم العد ، وأنهم قاربوا ثلاثمائة ألف محارب على حين كان جيش المسيحيين لايعدو مائة ألف .

وكان وصول الجيش المسيحى الى غدير « روتشـالى » هو الخميس يوم الاحتفال بعيد مولد (٢٠) . مارى المباركة (الذى هو الخامس من سبتمبر ١١٩١ م) وظل الجيش مقيما فى هذه الناحية طوال اليوم التالى .

جيشنا يستعد للقتال بعد مغادرته نهر الفالك متجها الى أرسوف وقد تبين له أن الترك يستعدون لقتاله فى هذا اليوم بكل عسكرهم

ولما كان يوم السبت يوم مولد مارى المباركة (وهو السابع من سبتمبر ١١٩١ م) كان كل جندى من جنودنا قد حمل مع اطلالة الفجر سلاحه توقعا للهجوم من جانب العدو ، ثم تبين لهم انه كان قد سيطر على الطريق الذى أمامهم وأنهـم لن يستطيعوا التخلص من براثنه الا بمعركة ضارية أعد لها الترك عدتها حيث تهيأت كتائبهم للهجوم علينـا ، ووالوا الزحف حتى صـاروا أدنى ما يكونون الينا ، فاستعد رجالنا لهم غاية الاستعداد حرصا على سلامة أنفسهم كما وقف الجيش كله على أتم أهبة للقتال ، وقام الملك ريتشارد الذى هو من أكثر الناس خبرة بفنون الحرب فقسم رجاله الى وحدات قتالية وعهد بالطليعة الى أمهرهم فى القتال ، كما اختار للمؤخرة رجالا من أصحاب الباس جعلهم اثنتى عشرة سرية قسمها خمسة أقسام ، ولم يكن على ظهر البسيطة من هم أقدر من هؤلاء الرجال فى القتال لتعلق قلوبهم بالرب تعلقا خالصا فجازاهم ربهم على ذلك أحسن الجزاء .

قاد الداوية فى هذا اليوم الكتيبة الأولى من الجيش ، وتلاهم فى الثانية البريتون والانجيفيون ، ثم كان فى الكتيبـة الثالثة الملك « جى » على رأس البواتيين ، اما الرابعة فكان فيها النرمنديون والانجليز الذين عهد اليهم الملك ريتشارد بحمل الراية الملكية .

أما الاسبتارية فكانوا يؤلفون المؤخرة التى كانت تتكون من مجموعة من أحسن الفرسان ، وهى مقسمة الى جماعات صغيرة ،

كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، وان ظلت الفرق المختلفة متواصلة وكان ارتباط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، فلو أن تفاحة سقطت بينهم فانها لن تمس شخصا أو جوادا .

كان جيشنا يمتد من قرب العسكر الاسلامى حتى ساحل البحر فاذا نظرت اليه رأيت ما يميز كل طائفة عن الأخرى ، فالأعلام ذات رموز متباينة ، وشعاراتهم لا يماثل واحد منها الآخر ، وكل يرمز لشعب شجاع باسل أعد نفسه لخوض (٢١) غمار الحروب ، وكان فيهم « ايرل ليسير » ، « وهيج دى جورنى » ، ووليم دى بارس ، ووليم دى جار لاند ، ودروجو دى تونو ، وطائفة كبيرة من ذوى قرباه ، وجيمس دى « افسن » ، وروبرت كونت درو وأخوه أسقف بوفيه ، وولكيان دى فيرير .

وعهد الى كونت شمبانيا بحراسة هذا الفريق من الجيش المواجه للجبال ، وكانت عينه لا تغفل قط عن ملاحظة هذا الجناح ، كما كان الى جانب هؤلاء مقاتلون من المشاة .

أما رماة السهام والأقواس فقد كانوا فى آخر صف لحماية المؤخرة .

وأما السائقون وشاحنات النقل والأزودة والأمتعة فكانوا بين الجيش والبحر حتى لايتمكن العدو من الهجوم عليهم .

لما تم ترتيب الجيش على هذه الصورة تقدم العسكر ولكن فى خطى بطيئة حتى لايبعد بعضهم عن بعض لأنهم ان صاروا فى صفوف متباعدة عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم .

وكان الملك ريتشارد ودوق برجنديا يركبان هنا وهناك ويجوسان بين الصفوف ، وقد اصطحب كل منهما طائفة مختارة من الفرسان المغاوير الذين لم تكن عيونهم تكف عن ملاحظة ما يجرى فى كل بقعة ، ولاتفوتهم صغيرة ولا كبيرة مما يجرى فى أية ناحية الا أحصوها ، ولا تفارق أنظارهم تقدير موضع الترك وسلوكهم فيشيرون على جيشهم الزاحف أمامهم بما يجب عليه اتباعه . ولا مشاحة فى أن تحذيراتهم كانت ضرورة جدا .

ف ـ ١٨

اصابة رجالنا بأضرار جسيمة على يد الترك الذين كانوا دائمى الهجوم علينا من كل جانب لاسيما من الخلف فيصيبوننا بالجروح ويصرعون الكثيرين منا حتى وهن رجالنا ودب اليأس فيهم وان كانت رحمة الرب قد ساعدتهم

فوجىء رجالنا فى الساعة التاسعة مساء بما يقرب من عشرة آلاف محارب تركى يغيرون عليهم فى شدة وفى سرعة عجيبة ، فتعالى الصريخ من كل جانب وعم الاضطراب اذ انهالت السهام والنبال بصورة كثيفة ، وجاء فى اثر ذلك رجال ذوو ملامح شيطانية ، سود الوجوه غرابيبها ، ومن أجل هذا أطلق عليهم اسم يناسب شكلهم الا وهو « النجرو » .

كذلك كان يوجد الشرقيون الذين يذرعون أرجاء الصحارى والمنعوتون بالبدو ، وهم قوم همج لونهم أسود من السخام ، يسيرون حفاة ، كما أنهم رجال غلاظ الأكباد ، يرمون بالأقواس ، ويلفون حول أوساطهم كنانات فيها سهامهم ، وعليهم دروع

مستديرة . وهم جنس نشيط غاية النشــاط ، خفيف الحركة ، وكانـوا على الدوام مصـــدر خطر يهدد رجالنـــا ولا يكفون عن ايذائه أبدا .

وكنت ترى وراء كل ذلك صفوفا من الترك قادمة عبر المناطق المفتوحة ، ويمتازون بحسن ترتيبهم وبكثرة ما يزينون به رماحهم من علامات خاصة ومعهم شتى أنواع الرايات وكثير من البيارق ، مختلف زينتها ، وقد قسموا أنفسهم الى جماعات مقاتلة ان رآها الناظر حسبهم قد تعدوا عشرين ألفا من الترك المسلحين ، فاندفعوا وهم على ظهور خيولهم على رجالنا اندفاع السيل الأتى ، وامتازوا بالسرعة التى لا تلحق بها النسور ، فهم ينتقلون هنا وهناك كأنهم البرق الخاطف فأثاروا من العثير ما سد الأفق فأظلم وانعقد التراب حتى صار كأنه السحابة السوداء .

وتقرر أن يسير أمام الأمراء طائفة من العسكر يدقون الطبول وينفخون فى الأبـــواق والمزامير ، ويدقون الطنابير ويضربـون بالدفوف وغير ذلك من الآلات التى تحدث ضجيجا ودويا يصـم الآذان ، وكانت مهمتهم عمل جلبة وصخب شديدين ، والصوات بأصوات كأنها زمجرة وحوش ضارية دونها أصوات الرعود القاصفة بل هى أشد منها وقعا ، وقد عمدوا الى كل ذلك لما يرونه من انه كلما ازداد الضجيج شـــدة والجلبة عنفا زادت حماســة القوم فى الحـــرب .

هاجم الترك الملاعين جيشنا برا وبحرا على السواء ، ولم تكن هناك ناحية قدرها ميلان أو أقل من ذلك أو أكثر الا وقد غصت بهذا الشعب المعادى الذى لايهدأ قط عن متابعـة الرمى بالسهام ولا يكف عن الهجـوم ، لا يعتريه الكلل ولا يتسرب اليــه الملل ،

مما أسفر عن فداحة الخسائر التى منى بها شعبنا ، لانهم كانوا يرمون جنودنا عن أقواسهم بالسهام ، ويقذفونها بالرماح فأعطبوا الكثير منهـــا .

ما كان أشـــد الحاجة فى ذلك اليـــوم الى البارعين من الرماة بالأقواس والنشاب ، ولقد تمكن المحاربون من اصابة مؤخرة الجيش التركى بما راحوا يقذفونهم به من الرماح والنشاب والسهام قذفا مستمرا ، لكن سرعان ما نزل الأعداء الألداء على رجالنـــا وكروا عليهم كانهم الوحوش الضارية حتى تسرب اليأس الى قلوب الكثيرين من رماة السهام والنبال فلم يعودوا يطيقون احتمال الأهوال التى أحاطت بهم ، وخافوا أن يحدق العدو بهم من كل جانب ، ويقطع أمامهم كل سبل الاتصـــال ، فألقوا بأقواسهم ونشابهم جنبا ، وأغاروا على قلب العدو كأن الخوف من الموت لم يعد له موضع فى أفئدتهم ازاء ما أصيبوا به .

وعادت اليهم قواهم واستردوا شجاعتهم كانما خجلوا أن يفروا ، وخفقت صدورهم بالأمل فى ان يتوجوا بتـــاج الشهادة فعاد اليهم باسهم فقاتلوا بعزم صادق وهمة لايجد التراخى اليها طريقا ، وواجهوا هجمات الترك التى كانت تهددهم من الخلف ، فنكصوا الى الوراء حتى كان يخيل للناظر اليهم انهم منقلبون على أعقابهم اذ لم يكن يتأتى لهم حماية ظهورهم ان لم يفعلوا ذلك ، والحق انه بسبب تهديد الترك لهم من الخلف فانهم كانوا يتقدمون وهم دائمو التلفت الى الوراء تحسبا من أن يأتيهم الترك على غرة منهم من ورائهم ، وظلوا يقاتلون على هذه الصـــورة طول وقتهم وعلى مدى زحفهم .

ما أفدح المحنة التى لحقت بهم فى هذا اليوم !!

وما أفظع العذاب وأمر القلق الذى استحوذ عليهم وتملك القلوب حتى قلوب شجعانهم . لم يكن هناك من أحد تملؤه الثقة أو تواتيه الجرأة فى هذه اللحظة حتى يؤثر أداء حجة على العودة الى وطنه ، ولاسيما والعاقبة موضع شك ، فكانت قلوبهم وجلة تضطرب فزعا . ذلك أن هذه الجماعة القليلة العدد كانت تواجه فئة كثيرة من المسلمين ، بل ما كان لهم قدرة على الفــرار حتى ولو أرادوه ، فقد سدت أمامهم المسالك ، وأحيط بهم من كل جانب ، وصاروا كقطيع من النعـاج فى مواجهــة ذئاب كاسرة كشرت عن أنيابها تريد التهامه . لقد كانوا فى هذه اللحظة كهذا القطيع لا حول لهم ولا قوة وليس لهم من حيلة الا أن يتجهوا الى السماء بقلوبهم ، ويرفعوا أكف الضراعة حتى تكتب لهم النجاة من براثن عدو قاس لايستطيعون منه فرارا .

يا للرب العظيم !!

ترى ماذا كان يستطيعه قطيع الرب الضعيف !!

لقد استولت على رجاله الدهشــة وتملكهم الذهول وأطبق عليهم الحزن ، وتكالب عليهم العدو تكالبا موجعا بجموع شديدة الأسر ذات مرة ، فلم يترك لهم بارقة نجـــاة ولم يتمكنوا هم من الفرار ، بل راح يعصرهم عصرا ، فمن ذا الذى يستطيع تحمل وطأة هذا العذاب الوحشى ؟ ، وأى رجال هؤلاء الرجال الذين كتب عليهم التردى فى هذا المازق ؟

لقد كنت ترى فى هذه اللحظة فرساننا الأشاوس مشاة على أقدامهم بعد أن فقدوا جيادهم المتمرسة بالحروب ، وكانوا يطلقون قذائفهم من أقواسهم ونبالهـــم ويردون الضربة بمثلهــا بقدر ما يستطيعون وبقدر ما تسعفهم به قواهم . أما الترك فقد أسعدهم

أن وجدوا هدفا يسددون اليه نبالهم ، فاختلطت السهام بالسهام ، واصطدمت النبال بالنبال ، ولم يعد يسمع فى الأفق سوى أصوات ارتطامها بعضها ببعض ، وحجبت كثرة رميهم ضـــوء الشمس فأسود الأفق وأظلم ، واخترقت السهام والنبال أجسام الخيول ، وغطت أديم الثرى حتى ليسهل لمن أراد ان يجمعها ان ينحنى على الأرض فيجمع ما شاء منها فى قبضة واحدة .

واشتد هجوم الترك شدة اضطربت منها صفوف الاسبتارية ، وصارحوا الملك « ريتشارد » بأنهـــم لم يعودوا قادرين على صد هجمات الأعداء الضارية ما لم يكر عليم فرساننـــا كرة صـــدق فيزيحوهم ، ولكن الملك نصحهم بغير ما طلبوه ، وسألهم أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وان يكونوا ثابتى الجنـــان رابطى الجأش . فلا تتضعضع صفوفهم ، ونصحهم أن يتماسكوا ويتحدوا . الا ان الخطر عليهم كان أكبر من قدرتهم على الاحتمال ، لكن ما كان لهم الا أن يركبوا الصعب ، فتقدموا يقاتلون وهم يلهثون ، ولا يكادون يستطيعون التنفس ، وبلغت الأرواح منهم التراقى . ومما زاد فى مشقتهم ما كان عليه ذلك اليوم من حرارة مسهم لفحها ، وأضر بهم سعيرها ، وهكذا كانـوا يقاسون الأمرين من حرارة الجو وضغط العدو عليهم « فاحتملوا (٢١ أ) ثقل النهار والحزن » معـا الى جانب ما كانوا يكابدونه من الضغط المتوالى عليهم من جانب هذا الجنس المدمر الذى يسير قدما فى قســـوة ، وما كان لأحد يرى رجالنا فى هذا الموقف الا ويشك فى أنهم قادرون على دفع الخصم ، والا أن يتوقع لهم الدمار خاتمة ، والهلاك نهاية ، والا أسوا مصير لفئة قليلة تواجه هذا الحشد الكثيف من العـــدو « اذ حرث على ظهورهم الحراث فطولوا ايلامهم » (٢١ب) ولم يعودوا قادرين على الرمى بالسهام ولا الأقواس ولا النشاب ، وضاقت المسافة الفاصلة بين الفريقين وأصبحوا على مقـــربة منهم يشكونهـــم برماحهم ،

ويصيبونهم بهراواتهم الغليظة ، ويعملون فيهم سيوفهم ، وكانت ضربات الترك وهى تهوى على دروع رجالنـــا تحدث جلبة تشبه طرقات الحداد على السندان ، فكانوا بذلك فى أتون لاتخمد ناره ولا يهمد أواره ولا يصيبون شيئا من الواحة .

كانت المعركة على أشدها فى الاسبتارية لا سيما فى خطوطهم الأخيرة لأن رجالها كانوا لا يستطيعون رد ما يأتيهـــم من الوراء ، فكانوا اذا ما أصيبوا لايجدون ســـوى الصبر ، وان أصابتهم الهـراوات ظلوا صامتين وهم لايستطيعون رد الضربة بمثلهـــا ، وتمثل لهم الموت فى كل خطوة ، فشل الخوف حركاتهم ، وضربت الفوضى عليهم باجرانها ازاء تقدم العدو الجارف فكانوا اذا ضربوا أصابوا من أمامهم ، وكانت تهديدات الترك لهم من الخلف تضلهم ، والحق أنه ما كان فى قدرة أحد فى مثل هذا الموقف أن يتحمل هجوما كهذا الهجوم الذى لا ينقطع ، والذى يأتيهم من عدو يتربص بهم فى كل خطوة يخطونها . ولقد تجمعت جموع الكفر من شتى النواحى : فمن دمشق وفارس ، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى الشرق ، ولم يكن ثم رجل شهير ولا شعب من الشعوب القوية قد ذاع صيته الحربى الا واستدعاه صـــلاح الدين لمعاونته فى ضرب المسيحيين أملا منه فى ان يطوى صفحتهم من الوجود طيا فلا تقوم لهم بعدها قائمة ، ويمحون من على ظهر البسيطة .

لم يبق أحد من الناس الا لبـــاه طمعا فى نواله ، وخضعوا لسلطـانه ، ولكن تبـــددت آماله بعون الرب فلم يتحقق له شىء مما كان يطمع فيه ، توافدت زهرة شباب المسيحيين وطائفة كبيرة من الفرسان الأشداء وصاروا يدا واحدة وكأنهم حبات القمح جمعت من الحقول وجىء بها الى هذا المكان . ولو كان قدر لهذه الجموع الزاحفة ان تهلك فما كان لأية قوة أخرى فى أية بقعة من بقاع الأرض ان تقاوم الكفار بعدئذ أبدا .

ف ١٩

متابعة الكلام عن نفس الموقعة وانتصار المسيحيين العجيب

ثم جاء يوم أسود فيه وجه السماء بالعفار وتصبب الناس فيه عرقا لاسيما بسبب الجو الحار ، وكان هنـــاك جنس موغل فى الوحشية يهدد الناس من الخلف ، وهو جنس مطبوع على القسوة والغلظة والسفاهة ، اذا استفز تملكه غضب شيطانى ، ومع ذلك فقد ظل المسيحيون أو معظمهم آمنين بفضل تمسكهم بايمانهم فتابعوا زحفهم فى خطى رتيبة وان كانت بطيئة رغم متابعـــة عدوهم لهم بضرباته بالهراوات من الوراء فيسمع صدى وقع هذا الضرب على دروعهم الواقية .

ولقد تذمر الترك وغضبوا حين لم يصيبوا النجاح الذى كانوا يطمعون فيه ، ورأوا أن قد ضاع وقتهم هباء ، ثم زادت حدة غضبهم وتلظوا سخطا وقالوا ان رجالنا انما هم رجـال قدوا من حديد « لايلين » ، ثم تجمع منهم أكثر من عشرين ألف مقاتل وكروا كرة عاصـــفة لم يكن أحد يتوقعهـــا ، واستعملوا الهراوات فأحسنوا استعمالها ، وضربوا بالسيوف فأجـادوا الضرب بهـــا ، وكان أشد ما أنزلوه هو ما أنزلوه بالاسبتارية فتغلبوا عليهم بوحشيتهم حتى ان واحدا منهـــم (٢٢) يعرف بالأخ « جارنييه » الطرابلسى (وكان كبير الاسبتارية) صاح بأعلى صوته وهو فى سعير القتال « سيدى القديس جورج فارس الفرسان ، لاشك فى انك لن تتخلى عنا فنهزم . ان الملة المسيحية لابد وأن يقضى عليها ان لم ترد هذا الجنس الملعون فتهزمه » . قال هذا ثم ذهب الى الملك وقال له :

« مولاى ... هوجمنا أقبح هجوم ، وسوف نوصم بالعار الأبدى ان لم نرد هؤلاء القوم ، ولقد فقد كل واحد منا جواده واستولى عليه العدو الذى لم يتكلف فيه شيئا ، ترى ما الذى يكون لنا بعد هذا كله ؟ » .

فأجابه الملك : « أيها الفارس المجلى ، لابد لك من الصبر على هجومهم ، وما يستطيع أحد أن يكون فى كل مكان » .

فلما عاد الأخ الفارس الاسبتارى الى رفاقه حمل على الترك ثانية فسدوا عليه الطريق من الخلف ولم يبق هناك أمير أو كونت لم يشعر بالخجل ، وراح كل واحد يقول للآخر لماذا لانرخى الأعنة لخيولنا ونكر على الأعداء ؟ .. وأسفاه .. لسوف نسلق بألسنة حداد ، ولسوف نوصم بالجبن لعدم تحركنا ، فهل حدث قط عن قبل مثل هذا التخاذل الذى جرى لنا الآن !! . انه لم يحدث أبدا ان أنزل الكفار مثل هذا العار بجيش مثل ما أنزلوه اليوم بجيشنا وهو كبير العدد .. اننا ان لم نبادر بالدفاع عن أنفسنا ونهاجمهم فسوف تكون سبة الدهر وعار الأبد ، ولسوف يزداد هذا العار كلما تريثنا وأمهلناهم فلم نقاتلهم » .

واها للمصير الآدمى الأعمى الذى هو أشبه ما يكون بشىء يدور على عجلة وينزلق فيودى الى خواتيم تستمر الى الأبد ، ولو أخذ فى الاعتبار ما قد يحدث لهلك الترك مهما كانت عليه جموعهم من الكثرة » .

وعلى الرغم من أن رجالنا تحاوروا فيما بين بعضهم والبعض حتى وصلوا الى قرار أجمعوا عليه يتعلق بكيفية قيامهم بهجوم على العدو الا أن كل شىء كان مصيره الفوضى بسبب فارسين لم يطيقا

الانتظار والتمهل ، ذلك أنه كان قد اتفق بالاجماع على دق الطبول ست دقات فى ثلاثة مواضع مختلفة فى الجيش تكون تنبيها وايذانا بخروج العسكر للقتال ، وتكون اثنتان من هذه الدقات فى مقدمته ومثلهما فى مؤخرته ، وأما الخامسة والسادسة ففى القلب . وجرى الاتفاق على هذه الصورة حتى تتميز عن دقات طبول المسلمين ، وحينذاك يشن رجالنا الهجوم على الترك هجوما يكون فيه هلاك هذا العدو .

غير ان ما كان عليه هذان الفارسان المشار اليهما من الاندفاع والعجلة أدى الى عدم اتمام شىء من هذا الذى كان قد اتفق عليه مما أفضى الى الفشل .

فقد انطلق هذان الفارسان من الصف الأول مرخيين العنان لجواديهما وهاجما الترك ، فشك كل واحد منهما تركيا برمحه شكة صرعته فجندلته فطرحته أرضا .

كان أحد هذين الفارسين مارشال الاسبتارية ، وأما الآخر فاسمه بلدوين دى كارون Carron وهما من أبرز الفرسان الأمجاد ، أما الأخير منهما فكان فارسا مغوارا كميا وكان صديقا للملك ريتشارد الذى كان قد استقدمه من بلاده وضمه الى حاشيته .

وسمع بقية المسيحيين هذين الفارسين يهتفان هتافا عاليا بالقديس جورج ويسألانه المعونة وهما يكران فى شجاعة ، فما كان من رفاقهما المسيحيين الا ان همزوا جيادهم وكروا هم أيضا كرة رجل واحد على العدو وكان هجوما عاتيا فيه طيش .

وعلى الرغم مما كان يعانيه الاسبتارية ومن معهم طوال هذا اليوم من ضغط شديد الا أنهم ظلوا محافظين على وحدة صفهم وهم ركوب على متون الخيـــل ، أما فى هذه اللحظة بالذات فقد أرخوا لها الأعنة وهاجموا الخصم هجوما شـــديدا ، وفعل فعلهم بقية المحاربين فى كمائنهم فلووا أزمة جيـــادهم وانطلقوا مهاجمين العدو وان ظلوا محافظين على ما هم عليه من النظام ، وتقدموا حتى صار أهل الطليعة فى المؤخرة ، وهكذا فان الاسبتارية أصبحوا أول من يهاجم بعد أن كان موضعهم فى مؤخرة الجيش .

كذلك كر كونت شمبانيـــا بمن معه من صـــفوة الجند ، واقتدى به « جيمس افنسز » فاقتحم هو الآخر الصفوف برجاله وكذلك « روبرت درو » Drewx وأخـــوه أســـقف « بوفيـه » .

اما ايرل « ليسيستر » فقد شن هجمة غاضبة بالفريق الذى معه ، وكانوا على الجانب الأيسر من ساحل البحر .

ترى لماذا أسمى كل واحد باسمه ؟

ان جميع الذين كان من المفروض أن يكونـــوا فى المؤخـرة أسرعوا حتى صاروا فى الطليعة ، وتبعهم فى ذلك أهل « بواتو » الذين اندفعوا فى حماســة ومعهم البريتون والانجيفينيون ، وفعل مثلهم بقية الجماعات وانطلقت كل طائفة بعسكرها ، وأذاقوا كل من تدفعه جرأته على الوقوف فى وجههم أشد الخسارة والوبال ، يصيبونهم تارة برماحهم ، أو يرمونهم من فوق جيادهم ، وتبادل الطرفان الهجوم والرمى حتى اســـود الجو من كثرة العجاج ، فأما الترك الذين ترجلوا عن دوابهم ليسهل عليهم رمينا بسهامهم ولنكون هدفا لرماحهم فقد فقدوا رقابهم فى هذا المعترك اذ صرعهم فرساننا وأكمل المشاة فاطاحوا برؤوسهم .

ولما رأى الملك « رينشارد » ان قد اشتد أوار المعركه ، وب الجيش فى قتال عنيف مع الترك همز جواده فوثب به وثبة سريعة واستدار الى الخلف ، وتبعه من معه من حاشيته نجدة للاسبتارية وعونا لهم ، وباكروا العدو بالهجوم ، ولم يقلل من هجومه حتى صار فى جناح الاسبتارية الأيمن ثم جاوزه فقذف بنفسه وبمن معه من رجال الجناح الأيمن فكانوا كالعاصفة المدمرة الى ان صاروا وسط المشاة الترك الذين صعقوا مما كاله الملك لهـــم هو ورفاقه مـــن الضربات القاتلة ، كما ضربوا الفرسان فذهل الفرسان مما يرونه نازلا بهم فتساقطوا من فوق ظهور جيادهم واحدا أثر واحد ، ووقع بعضهم على بعض حتى صاروا أكواما فمنهم من كان يئن أنينـــا عاليا ، ومنهم من يندب حظه التعس ، وغيرهم مضرجون بدمائهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، وأصبح الكثيرون منهم وقد قطعت رقابهم وتدحرجت على الثرى فوطأتهـــا أقدام الصديق والعدو على السواء .

أخذ الملك رينتشـــارد فى مطاردة الترك بوحشية لا مثيل لها ففرق شملهم بددا وجنـــدل الكثيرين منهـــم فسقطوا على الأرض وما كانت الحياة أبدا من نصيب من يصافح سيف الملك رقبته ، فأينما هوى حسامه الذى لا يكل من استعماله هوى واحد من ذلك الجنس الملعون كأنهم الحشائش يحصدها المنجل ، مما ترتب عليه أن غطوا أديم الأرض فى كل ناحية وفى مساحة قدرها نصف ميل بجثث قاتلها فقتلها ، فلما رأى رفاقهم ما حل باخوتهم استولى عليهم الذعر وهيمن عليهم الخوف اذ شاهدوهم صرعى فأطلقوا سيقانهم للريح وابتعدوا عن الملك ما وسعهم الابتعاد .

لقد تساقط الترك وانطلقت جيادهم بلا راكب يمتطيها ، وأثار القاتلون العثير وانعقد العجاج ، وكان فى ذلك الخطر الجسيم على

رجالنا اذ أنهم لما رأوا القتال وقد حمى وطيسه وسئموا كثرة من قتلوهم تسرب اليهم الضعف وخافوا أن يصيبهم من القتل مثل هذا الذى يشاهدونه انسحبوا لالتقاط أنفاسهم لكن لم يستطع الواحد منهم معرفة رفيقه بسبب الستار الكثيف من العجاج الذى انعقد أمامهم وفوق رؤوسهم وراحوا يقاتلون فى عشوائية فتراهم يضربون ذات اليمين وذات الشمال اذ عميت أبصارهم عن تبين رفاقهم من غيرهم ، فراح بعضهم يقتل أخاه ظنا منه انه يقتل عدوه وكان ذلك بسبب التراب المنعقد فى الأفق .

أما المسيحيون فقد أرهقهم ما هم فيه من اســتمرار قتلهم لعدوهم المزعج وضربه بسيوفهم ، وعلى الرغم من ذلك فقــد بقى مصير المعركة معلقا لا يدرى أحد أية كفة سترجح وأيها ســوف تشيل ، فاصطدم بعضــهم ببعض وحــاول كل من الفريقين أن تكون له الغلبة على خصمه ، فكانوا بين ناكص على عقبيه ، ومضرج فى دمائه ، وآخر فارقته الحياة ، وكنت ترى فى ذلك عددا لايحصى من الرايات والأعــلام والبيارق قد سقطت على الأرض ، وتبعثرت حولهـا السيوف التى كانت من أحسن السيوف صنعة ، والرماح الخشبية ذات الأسنان حديدية مدببة ، وكثير من الأقواس التركية وهراوات ذات رؤوس حديدية وأسنان حادة ، ولو جمع ما سقط ساعتئذ وكان مبعثرا فى ساحة القتــال من الســهام والأقواس والقذائف لكان ثلاثين حملا ان لم يزد ، كما غطت أديم الأرض الكثير من جثث الترك التى طارت عنها رؤوسها ، غير أن اليـــأس ولد فى الآخرين شدة فاستبسلوا فى المقاومة ، لكن زاد باس رجالنا فتفرق العدو على ظهور جيادهم ، ولجأوا الى الغابات يلتمســون فيها المخبأ الذى يقيهم غائلة الردى ، لكنهــم ما لبثوا ان خروا صرعى وقد تعالى أنينهم من الرمى الذى رموا به .

كما أن غيرهم تخلوا عن جيادهم وخروا على وجوههــم فى شتى الطرق ، وانطلق بعضهم يلتمسون طريقهم الى البحر الذى ألقوا فى مياهه بأنفسهم من فوق قمم الصخور الشاهقة ومن ارتفاع يقرب من ثمانين قدما ، وكان طريق العدو يكاد يكون خاليا لمسافة تمتد قرابة ميلين لاتقع العين فيهما على شىء ســوى أناس يفرون على وجوههم رغم انهم كانوا منذ قليل صامدين يملؤ الغرور أعطافهم ويوحى كل شىء فيهم بالوحشــية ، الا أن مشيئة الرب زلزلت كبرياءهم وحطت من طغيانهم فانطلقوا لواذا لايثنيهم ثان عن التمسك بأذيال الفرار حتى لا يواجهوا رجالنا الذين لم يتوقفوا قط عن مطاردتهم ، اذ « الخوف يمد أقدام الغارين بأجنحة » .

والآن هاهو ذا جيشنا قد اندفع كله على الترك فى كتائبهم ، ووصل النرمنديون والانجليز الذين اختيروا لحراسة البيرق الى منطقة منحدرة حيث يشتبك الجيش فى قتال مع الترك فاتخذوا لهم مكانا ليس ببعيد عن ساحة المعركة حتى يكون ملجأ يلوذ اليه الفارون . وحمى وطيس القتال مما حمل الترك على الفرار فكف رجالنا عن متابعتهم ، فلما رآهم العــدو يعودون الى الوراء استرد رجاله قواهم وانطلق أكثر من عشرين ألف واحد منهم يهاجموننا من الخلف على غير توقع منا ، وحملوا علينا بالهراوات الغليظة التى فى ايديهم ليسترجعوا من كان قومنا قد طرحوهم أرضا ومن كان قد وقع من رجالهم فى قبضة رجالنــــا ، الذين تبلبلت اذ ذاك خواطرهم واضطربوا اضطرابا كان أشبه بالهزيمة اذ أكثر العدو من رميهم بالأقواس والسهام رميا فظيعا وهم ناكصون على أعقابهم مما أسفر عن اصابة الكثيرين من فرساننا فى رؤوسهم وأذرعهم واجزاء أخرى من أجسادهم حتى لقد سقط بعضهم من فوق سروج دوابهم ، لكن سرعان ما استردوا بأســـهم فكانوا أشبه باللبؤة

انتزع منها صغارها فاشتد هجومهم عن ذى قبل واخترقوا صفوف العدو فى يسر حتى لكأنهم يخترقون شبكة .

حينذاك كنت ترى التـــرك قد أعــدوا سروجهم وعادوا من فرارهم وهاجموا رجالنا فى عنف ولم يفصل الجانبين عن بعضهما أكثر من رميـــة قوس ، وكان يقود فريق الترك أمير اسمه « تقى الدين » (٢٣) وهو أحد أقارب صـــلاح الدين ، وكانت له راية تمتاز عن كل راية سواها بأنها صنعت على هيئة سروال قصير لركوب الخيل فكان ذلك منه منافيا للذوق .

كان « تقى الديـن » هذا رجـــلا عميق الكراهيـــة والمقت للمسيحيين ، وعنده رغبة جامحة فى الانتقام منهم انتقاما وحشيا ، وكان معه اذ ذاك أكثر من سبعمائة مقاتل تركى من أصلب المقاتلين عودا ، قد اختارهم له صلاح الدين من خاصة رجاله وعهد بهم اليه يأتمرون بأمره ويتوجهون أينما وجههم ، وكانت له راية زعفرانية صفراء ، ولكل طائفة ممن معه علمها الذى تسير تحته وتتقدم فى ظله . فلما صاروا على مقربة من رجالنا كروا عليهم كرة شـعواء يصرخون صرخات عالية مخيفة وهاجموهم وهم يطعنونهم برماحهم المصنوعة من البوص طعنا لايحتمله أحد حتى تزلزل عزم قادتنا ، لكنهم بقوا وبقى معهم رجالنا ثابتين يدفعونهم بكل ما استطاعوا من حول وقوة ، وتبادل الجانبان الضرب ، وقد اشتد كل طرف على الآخر ، وأجمع كل فريق عزمه على أن يكون ندا لخصمه فى هذا الصراع .

كان رجالنا فى هذا القتال قلة ان هم قيسوا بكثرة خصومهم الذين أخذوا فى الاشتداد على جماعتنا بصورة جعلت من الصعوبة بمكان على رجالنا أن يرتدوا تحت رايتنا ، وتزعزعت نفوسهم من

جراء وحشية الخصم حتى أصبح من العسير أن يعود الى قتـــاله الا شرذمة قليلة ، وازدادت شراسة الترك حدة واستورى غضبهم علينا وزادوا على محاربينا واعملوا فى رجالنـــا هراواتهم الثقيلة وسيوفهم حتى سالت دماؤهم ، فلما شاهد الفارس المغوار الذى لايشق له غبار ولا يجاريه أحد وهو « وليم دى بارس » ما شاهد وما يجرى أمامه أخذته الحمية فخرج من بين الصفوف مع رفاقه وكروا كرة عنيفة على الخصم الذى راح رجاله ما بين قتيل بالسيف وهارب على وجهه قد تملكه الفزع .

أما الملك ريتشـــارد فقد امتطى صهوة جواد قبرصى (٢٤) كميت لا يجاريه جواد آخر فى صفاته ، وانطلق نحو الجبل بمن معه من الصفوة المختارة من عسكره ، وفرق شمل من صادفهم من الترك فأطار لاماتهم من فوق رؤوسهم ، وكان لاصطدام بعضــها ببعض صدى هو اصطدام الحديد بالحديد ، وأظهر الملك فى ذلك اليوم عنفا بالغا ضد الترك وأنهكهم أشد الانهاك ما أنزله بهم من الضربات فى أقصر مما أسفر عن فرار معظمهم تجنبا لشدة وطيس المعركة التى لم يعودوا يحتملونها ، مما أفسح مجالا لجيشنا فى التقدم الى الأمام حتى بلغوا « الراية » فوقفوا تحتهـــا وان كان بعضهم مثقلا بجراحه ، ثم عاد الجيش الى تنظيم صفوفه مرة ثانية وتقدم فى انتظام حتى بلغ بلدة أرسوف فنصب خيامه خارجها .

وبينما كانوا منهمكين فى نصب خيامهم اذا بطائفة كبيرة من الترك تهجم على أقصى مؤخرة جيشنا ، فلما سمع الملك « ريتشادر » صراخ المحاربين يشق أجواز الفضاء حث رجاله على الحرب وأرخى أعنة خيله وانطلق فى خمسة عشر نفر من رفاقه الشجعان ونزل على العدو نزول الصاعقة وهو يصيح بصوت مدو « أيها الرب .. أيها الضريح الطاهر ، كونا لنا عونا » ، وراح يكرر هذا النداء ثانية

وثالثة ، فلما ترامى صداه الى بقية رجال جيشه هبوا سراعا ومضوا فى اثره وهاجموا الترك فبددوا شملهم ففروا من وجوههم وأوغلوا فى الهرب حتى بلغوا غابة « ارسوف » التى كانوا قد جاؤوا منها من قبل ، فلم يكف رجالنا عن تعقبهم بل ظلوا يطاردونهم هناك فلا يلقون فى كل خطوة يخطونها قوما منهم الا جعلوهم ما بين قتيل فارقته روحه ، وصريع أهلكته بأيديهم ، وكان عدد قتلى الترك يومذاك عظيما .

وعاد الملك « ريتشارد » وجماعته الى معسكرهم أخيرا بعد ان قتل من الترك الهائمين على وجوههم من قتلوا ثم استجم رجالنا تلك الليلة وقد أنهكهم التعب من جراء ما لاقوه من مشقة وما كابدوه من نصب ، غير ان فريقا منهم أغراه الطمع فى الغنائم فمضوا الى ساحة المعركة ثم عادوا محملين بالكثير وجاؤا بفيض مما جمعوه وما كانوا يبغونه .

ولقد حدث الذين رجعوا بعد ذلك انهم أحصوا من قتلى أمراء الترك فى ذلك اليوم اثنين وثلاثين أميرا ، وأدركوا مما عليهم من طريف الثياب وفاخره انهم من أعظم القوم وأوسعهم جاها .

ثم جاء الترك أخيرا بعدئذ يلتمسون جثث هؤلاء القتلى ليبعدوها عن تلك الناحية لأنهم كانوا يعرفون أى رجال هؤلاء كانت لهم الصدارة بينهم ، بل انهم كانوا أعظمهم مكانة فيهم ، كما انهم حملوا معهم الى جانب ذلك عددا كبيرا من غيرهم يقدرون بسبعة آلاف قتيل ، سوى الجرحى الذين كانوا قد فروا من ساحة القتال وهاموا على وجوههم ، فلما بلغ الانهاك منهم غايته راحوا يتساقطون فى الحقول .

على ان خسارة قومنا فى القتال كانت بفضل الرب – لاتكاد تصل الى عشر من هلك من الترك بل لعلها كانت أقل من عشر العشر ، فما أتعس ذلك اليوم عليهم وما أعظم ما أحرزه فرساننا من النصر ، ولقد قيل : « كثيرة هى بلايا الصديق ومن جميعها ينجيه الرب » . فما أشد نكبة ذلك اليوم وما أتعسه من يوم !!

لابد أن خطاياهم كانت فادحة اذ احتاجوا الى هذا القدر الكبير من نار المحنة ليتطهروا ، ولكنهم جاهدوا للتغلب على حاجتهم الشديدة بتجمل سداه الايمان ، بل ودون أن تنفرج شفاهم عن التضجر واظهروا تجملا كثيرا فى تحملهم الأحزان .

فـ ٢٠

فى هذا القتال المشار اليه قتل جيمس افسن وكان فارسا معلما

أحدث موت (٢٥) جيمس افسنس Avesnes فجيعة تنفض لها المرائر فقد تكاثر عليه جموع جمة من الترك ، وبينما كان يجاهد جهادا مرموقا فى هذا القتال المرير جرت حادثة محزنة حين كبا به جواده فألقاه من فوق سرجه فطرحه أرضا فالتف حوله حشد من الترك وتكاثروا عليه وقتلوه بعد لأى وبعد طول مشقة من جانبهم ، وقال الذين جاؤا لحمل جثمانه والعودة به الى رفاقه انه استطاع قبل أن يلفظ نفسه الأخير أن يطيح برؤوس ما يقرب من خمسة عشر تركى وجدوهم مجندلين حوله ، ووجدوا الى جانبه من اقاربه ثلاثة قتلى لم يمد اليهم يد المساعدة بعض من كانوا هناك من رجالنا . فيا للعار لقد تركوهم يصارعون الترك ويجالدونهم

وهم يهاجمونهم ، ولحق العار سكونت « درو » وبمن كانوا هناك معه من جراء هذا الموقف المرذول فحقت عليهم اللعنة . فواأسفاه لأحداث الحرب التى لايمكن التنبؤ بها !!

لقد عم الحزن واشتد العويل وتعالت الزفرات فى الجيش تلك الليلة لرحيل جيمس دى افسن رحيلا لا رجعة له منه أبدا ، فقد كان فارسا معلما مقطوع القرين فى البطولة ، كما أنه كان نسيج وحده وقرين أقرانه ، وكان رفاقه لما لم يـــره فى الجيش خاضرا بينهم توقعوا ان قد جرى عليه القتل وعمت المصيبة الجيش بأكمله فاغتموا والتاعوا وكانت الخسارة فادة لا تعوض .

ولقد وقعت هذه المعركة التى أشرنا اليها يوم الأحد السابق مباشرة لمولد مارى الطوبانية ، فلما كانت الغداة ـ أعنى الأحد يوم مولد مارى الطوبانية ـ (وهو الثامن من سبتمبر ١١٩٠ م) اتفق القوم على ضرورة البحث عن جثة هذا الرجل الذى كان من أعظم الرجال قدرا حتى يتولوا دفنه ، ومن ثم لبس الداوية والاسبتارية سلاحهم واستصحبوا طائفة كبيرة من التركوبول . كما خرج معهم أيضا كثيرون غير هؤلاء ، فلما بلغوا الساحة التى شهدت المعركة جدوا فى البحث عنه حتى عثروا أخيرا على جثته وقد خفيت معالم وجهه من كثرة جروحه التى لطختها الدماء المتجمدة عليها والتى كاد منها أن يخفى عليهم وجهه لولا أن غسلوه بالماء ، وكانت الدماء قد تخثرت عليه وانتفخت أوداجه من كثرة جراحـــه وكان أبعد ما يكون فى الشبه بين ما كان عليه وهو حى ، فأحســنوا تدثير جثمانه وتكفينه وحملوه معهم وعادوا به الى « أرسوف » .

وخرجت زمر من الفرسان فى مواكب يتلو بعضها بعضا لملاقاة جثمانه ، وكان هنـــاك انتحاب عام لموت هذا الرجـــل العظيم ، واستعرضـــوا ما كان عليه من قوة وكرم ، وما كان يتحلى به من

حميد الصفات ، وتعاون الملك ريتشارد والملك « جى » فى
وأقيم قداس كبير على روحه فى كنيسة الملكة الكبرى سيدتنا التى صادف مولدها هذا اليوم ، ووزعت الأموال الطائلة صدقة على روحه ، فلما انتهى القداس بدأت مراسيم تشييع الجنازة فى احتفال ضخم حيث تنافس وجوه الناس فى حمل نعشه على أكتافهم ثم سجوه فى ضريحه وهالوا عليه التراب والكل حوله باك ومنتحب ، وسالت العبرات مدرارا وعلا النشيج حزنا عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام رجال الدين بأداء المراسم المفروضة بعيد مارى المباركة .

ف ـ ٢١

حيرة الترك الذين كانوا متعجرفين من قبل ، أما الآن فقد فروا تاركين كل متاعهم وراءهم غنيمة باردة ينهبها رجالنا

ظل الأمراء وأكبر رجـــالات المسلمين مقاما ممن أقطعهـــم صـــلاح الدين الأراضى وأغدق عليهم الأموال الجزيلة يلاحقونه بكلماتهم الطنانة ، وبثوا فى نفسه أملا كاذبا مؤكدين له انه بعون محمد (صلعم) لابد وان يمحو المسيحيين من على وجه البسيطة يوم يلتحم بهم .

ولقد كانوا مخطئين كل الخطأ فيما زعموه عن محمد (صلعم) وتلاشى هباء ما كانوا يتباهون به اذ يشهد شهود العيان فيذكرون لك انك تستطيع ان تلمح آثار الترك وقد لاذوا فرارا الى الجبال يوم جرت هذه المعركة ، ونهب ما كان لهم من متاع تخلوا عنه ، ونفقت أكثر الابل والجياد فانتثرت جثثها على قارعة الطريق ، وكان المئات والألوف من هذه الدواب محملة بأمتعة ثقال شتى ، لأن

وهم يهاجمونهم ، ولحق العار سكونت « درو » وبمن كانوا هناك معه من جراء هذا الموقف المرذول فحقت عليهم اللعنة .. فوالسفاه لأحداث الحرب التى لايمكن التنبؤ بها !!

لقد عم الحزن واشتد العويل وتعالت الزفرات فى الجيش تلك الليلة لرحيل جيمس دى افسن رحيلا لا رجعة له منه أبدا ، فقد كان فارسا معلما مقطوع القرين فى البطولة ، كما أنه كان نسيج وحده وقرين أقرانه ، وكان رفاقه لما لم يـــره فى الجيش حاضرا بينهم توقعوا ان قد جرى عليه القتل وعمت المصيبة الجيش بأكمله فاغتموا والتاعوا وكانت الخسارة فادة لا تعوض .

ولقد وقعت هذه المعركة التى أشرنا اليها يوم الأحد السابق مباشرة لمولد مارى الطوبانية ، فلما كانت الغداة ـ أعنى الأحد يوم مولد مارى الطوبانية ـ (وهو الثامن من سبتمبر ١١٩٠ م) اتفق القوم على ضرورة البحث عن جثة هذا الرجل الذى كان من أعظم الرجال قدرا حتى يتولوا دفنه ، ومن ثم لبس الداوية والاسبتارية سلاحهم واستصحبوا طائفة كبيرة من التركوبول . كما خرج معهم أيضا كثيرون غير هؤلاء ، فلما بلغوا الساحة التى شهدت المعركة جدوا فى البحث عنه حتى عثروا أخيرا على جثته وقد خفيت معالم وجهه من كثرة جروحه التى لطختها الدماء المتجمدة عليها والتى كاد منها أن يخفى عليهم وجهه لولا أن غسلوه بالماء ، وكانت الدماء قد تخثرت عليه وانتفخت أوداجه من كثرة جراحـــه وكان أبعد ما يكون فى الشبه بين ما كان عليه وهو حى ، فأحســنوا تدثير جثمانه وتكفينه وحملوه معهم وعادوا به الى « أرسوف » .

وخرجت زمر من الفرسان فى مواكب يتلو بعضها بعضا لملاقاة جثمانه ، وكان هنـــاك انتحاب عام لموت هذا الرجـــل العظيم ، واستعرضـــوا ما كان عليه من قوة وكرم ، وما كان يتحلى به من

حميد الصفات ، وتعاون الملك ريتشارد والملك « جى » فى دفنه وأقيم قداس كبير على روحه فى كنيسة الملكة الكبرى سيدتنا التى صادف مولدها هذا اليوم ، ووزعت الأموال الطائلة صدقة على روحـه ، فلما انتهى القداس بدأت مراسيم تشييع الجنازة فى احتفال ضخم حيث تنافس وجوه الناس فى حمل نعشه على أكتافهم ثم سجوه فى ضريحه وهالوا عليه التراب والكل حوله باك ومنتحب ، وسالت العبرات مدرارا وعلا النشيج حزنا عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام رجال الدين بأداء المراسم المفروضة بعيد مارى المباركة .

ف ٢١

حيرة الترك الذين كانوا متعجرفين من قبل ، أما الآن فقد فروا تاركين كل متاعهم وراءهم غنيمة باردة ينهبها رجالنا

ظل الأمراء وأكبر رجـــالات المسلمين مقاما ممن أقطعهـم صـــلاح الدين الأراضى وأغدق عليهم الأموال الجزيلة يلاحقونه بكلماتهم الطنانة ، وبثوا فى نفسه أملا كاذبا مؤكدين له انه بعون محمـد (صلعم) لابد وان يمحو المسيحيين من على وجه البسيطة يوم يلتحم بهم .

ولقد كانوا مخطئين كل الخطأ فيما زعموه عن محمد (صلعم) وتلاشى هباء ما كانوا يتباهون به اذ يشهد شهود العيان فيذكرون لك انك تستطيع ان تلمح آثار الترك وقد لاذوا فرارا الى الجبال يوم جرت هذه المعركة ، ونهب ما كان لهم من متاع تخلوا عنه ، ونفقت أكثر الابل والجياد فانتشرت جثثها على قارعة الطريق ، وكان المئات والألوف من هذه الدواب محملة بأمتعة ثقال شتى ، لأن

الترك فى هذا اليوم كانوا « جيلا لم يثبت قلبه » فارتدوا على أعقابهم بكل ما كان معهم ، وكانوا كلما زاد اليأس أسرعو للتعلق بأذيال الفرار ، وكلما فروا امتـدت اليهم يد الموت فقبضت أرواحهـم فألقوا على الأرض ما كانوا قد تجهزوا به ، ذلك أن رجالنا فى هذه المعركة الأخيرة لو كانوا قد زادوا من ضغطهم على الترك واشتدوا عليهم أكثر من هذا فى مطاردتهم اياهم لما عاود الأخيرون الحرب قط ، بل لربما خلا وجه البسيطة منهم وتركوها خالصة للمسيحيين يعيشون فيها .

ف ـ ٢٢

صلاح الدين يؤنب المهزومين الذين يطردون الملك ريتشارد وجيشه ويعدونهم فوق جميع الفرسان

حين علم السلطان بما حاق بصفوة رجاله الذين كانوا موضع رجائه ، وما نزل بهم من هلاك على أيدى رجالنا امتلأت نفسه سخطا على أصحابه واستشرت غضبا ، فاستدعى اليه أمراءهم وقال لهم : « يا لله ما أعظم وأروع ما أحرزه صفوة محاربى من انتصارات جاوزت المدى ولم يلحقها لاحق !! . انهم والله لاناس يحق لهم التباهى والتفاخر ... أولئك الذين طالما أغدقت عليهم أعظم المنح وخصصتهم بأروع الصلات ، والآن دونكم النصـارى فانظروا كيف يجوسون خلال بلاد الشام كما يحبون ، وينطلقون أن أرادوا دون أن يعترضهم معترض أو يقاومهم أى أمرىء ... فأين ما كان يتشدق به جندى ، وأين الآن هذه الانتصـارات الرائعة ، وأين ما كانوا يهددون به ؟ وأين ما كانوا يمنوننى به ؟ ... وأين الانتصارات الساحقة فى سـاحات المعـارك ؟ .. وأين الجيوش الجرارة التى كانت واقفـة بالمرصاد للمسيحيين وكانت مستعدة

لمحوهم والتخلص منهم ؟ .. وكيف انحدر جيل اليوم من أصلاب الأسلاف العظام الذين حاربوا فأحرزوا أعظم الانتصـارات وأبقاها ذكرا ، وظهروا ظهورا بينا على المسيحيين وصارت وقائعهم قصصا تروى فيكون لها وقع مجيد ... أما اليوم فقد سارت الأمور سيرا مشينا ومخالفا تمام المخالفة لما كانت عليه فى أمسها الدابر . اننا لا نعدل حبة خردل اذا ما قسنا أنفسنا بأسلافنا فنحن لا نساوى شروى نقير » .

ألقى صلاح الدين هذا الكلام على مسامع الأمراء الذين خيم عليهم الصمت وانعقـدت ألسنتهم وطاطؤا هاماتهم واسـتمر هو يسلقهم بألسنة حداد بمثل هذا الكلام الجارح . وحينذاك (٢٦) خرج من بينهم واحـد اسمه « سنقر الحلبى » ورد عليه بقوله : « أيها السلطان الذى هو أعظم السلاطين طرا ، حفظ الله عصمتك لقد آلمتنا فظلمتنا ، فلقد بذلنا كل جهدنا فى مهاجمة الفرنجة ولم نقصر فى محاربتهم ، وكنا نقصد القضاء عليهم ، ولكنا فى الوقت ذاته واجهنا مقاومة كبيرة صادقة من جانبهم اذ لم يكن ثم شىء بقادر على الوقوف فى سبيلهم ، أو قهرهم أو بث الاضطراب فيهم ؛ فسلاحهم غير سلاحنا وهو كثير لا حد له ولا يحصيه العد ، كما انه صلب لا يمكن النيـل منه ولا تؤثر فيه أية قذيفـة أو سـهم أو سيف . ولقد حاربناهم فلم ندخر وسعا فى محاربتهم فما أجدانا ذلك نفعا . كأنما الذين حملوه من السلاح انما قد من حجر صوان .

« والى جانب هذا فثم أمر عجيب اختص واحد منهـم أشاع الفوضى فى صفوفنا ودمرها ، ولم نر قط مثله أحدا أو عرفنا له شبيها وكان هو على الدوام مقدم الجميع وكان هو الأول والمختار فى كل معركة وأشد فرسانهم علينا ، وهو الذى قهر رجالنا وهيهات أن يستطيع أحد اعتراضه التصدى له ، ان وقـع فى يده أحـد

فمحال أن ينجو هذا الواحد أبدا ، وهم يطلقون عليه « الملك ريتشارد وانه ملك قد وهبه الله شجاعة نادرة وقوة لا نظير لها وانه لجدير أن يحكم كل ما يفتحه من البلاد ، فماذا فى قدرتنا أن نفعله حيال هذا الرجل الذى لا يقهر ، وماذا نستطيع أن نفعل ضد هذا الرجل القوى البأس » .

ف ٢٣

صلاح الدين يحطم جميع الاستحكامات عدا القدس والكرك والداروم

استدعى صلاح الدين اليه ـ وهو فى سورة حنقه ـ أخاه العادل وقال له : « لابد أن أخبرك أننى حريص كل الحرص ع أن أتبين المدى الذى يمكننى أن أثق به فى قومى فى الوقت الحاضر لذلك فانى أهيب بك أن تذهب عاجلا ولا تتوانى لحظة فتحطم أسوار عسقلان وأبراجها ، وسوها بالأرض ، ثم أمض الى غزة فأفعل بها مثل الذى فعلته بعسقلان ، أما الداروم (وهى دير البلح) فأ بها الى شحنة تتولى الدفاع عنها حتى يتمتع شعبنا بالمرور فى أمان عبر هذا الطريق . وأذهب فخرب « قرتيا galatia وتل الصافية ويازور وبيت داجان واللدة والرملة وبلمونت Belmont والنطرون وبلو Castle Ernald وكوكب والمجدل وأجعلها كلها أطلالا . الا فامض ودمر كل شىء تدميرا سوى الكرك والقدس » .

فاستجاب العادل لأمر صلاح الدين ونفذ جميع أوامره دون توان أو امهال .

ف ٢٤

الترك يهاجمون جماعتنا بخمسة عشر ألف مقاتل عبر نهر أرسوف ولكن لا يكتب لهم النجاح

حينذاك تقدم أحد المسلمين وكان من أشهرهم صيتا وأعرقهم عند الناس واسمه (علم الدين قيصر) وشرع يتكلم فاستهل كلامه بأن أخذ يحث صلاح الدين على أن يرسل معه الجواسيس الى سهل الرملة لاستكشاف تحركات الفرنجة وقال له : « انى لآمل أن يكون معى رفاق أقوياء فأقضى على أغلب الفرنجة ان هم عزموا على اجتياز هذه المنطقة ولن ندع لهم الا شعبا ضيقا يسيرون فيه فلا ينجو من أيدينا أحد يمر فيه الا القليل النادر .

واستجاب له صلاح الدين وأرسل ثلاثين من أكبر أمرائه وأشدهم بطشا للاستيلاء على مدخل نهر العوجاء (نهر أرسوف) ، وكان فى صحبة كل أمير منهم قرابة خمسمئة من أبسل قواده من المقاتلين الترك فظلوا يرقبون النهر حتى لا يتمكن الفرنجة من عبوره بدون خسائر .

فلما كان اليوم الثالث بعد المعركة التى وصفناها حالا ، وأعنى بذلك يوم الاثنين التالى لعيد مولد مريم المباركة خرج الملك ريتشارد على رأس الجيش (وذلك يوم الاثنين التاسع من سبتمبر ١١٩١ م) هو ومن معه وكانوا يؤلفون فى هذا اليوم مؤخرة الجيش فتقدموا متمهلين حذرا من أن يهاجمهم العدو ، لكنهم لما وصلوا الى نهر « العوجاء » المذكور لم يصادفوا أحدا ما فى طريقهم ، فقد كان الترك يرقبون مقدمهم وهم فى كمين نصبوه لهم أملا منهم فى الوثوب على الفرنجة ، فلما حاذوهم صبوا عليهم وابلا من السهام

والنشاب لكنهم لم يصبوا شيئا يعتد به أو لم يصيبوا شيئا على الاطلاق ، وحينذاك نكصوا على أعقابهم وفى ذاكرتهم ذكرى المعركة السالفة ، ثم انطلق رجالنا فنصبوا خيامهم الى جوار نهر العوجاء وأمضوا ليلتهم هناك .

فلما طلع صباح اليوم التالى (وكان العاشر من سبتمبر) خرج العامة والمشاة الذين لم يستطيعون الحفاظ على ما تحتاجه الرحلة من جهد وانطلقوا أمام الجيش فى زحفه على يافا وخرج معهم سادة الناحية فخرب المسلمون المدينة مما استحال معه على الجيش أن يجد موضعا يقيم فيه الا ما كان فى الجانب الواقع الى اليسار ، فأقاموا خيامهم فى أجمل بقاع عامرة بأشجار الزيتون وظلوا فى انتظار وصول الجيش .

ترى ماذا أقول بعد ذلك ؟

أقول انه كان قد مضى حتى الآن ثلاثة أسابيع منذ وصول الجيش الى عكا لأول مرة .

ف ـ ٢٥

سفننا تجىء لنا بالمئونة من عكا الى يافا

ظل الجيش مقيما خارج يافا بالبساتين ، ونعم بكميات ضخمة من مختلف الفاكهة ، وكانت الأشجار التى حولهم مثقلة بكميات كبيرة من العنب والتين والرمان واللوز الكبير الحجم .

ثم جاء الى يافا أسطول الملك « ريتشارد » وغيره من السفن التى كانت مبحرة فى أعقاب سفن الجيش .

وكانت المراكب تذهب وتجىء آمنة ما بين يافا وعكا ، وهى موسقة بالأزودة وغيرها مما يحتاجه الجيش ، وقد حزن الترك أشد الحزن من جراء عدم استطاعتهم منع هذه المراكب من الابحار .

ف ـ ٢٦

الملك ريتشارد يتشاور عما اذا كان ينبغى عليه انقاذ عسقلان من أيدى مدمريها ويحاول اعادة بنائها ، ولكن يتغلب الرأى الفرنسى ويعاد ترميم يافا بدلا من عسقلان والفرنسيون منهمكون فى المباذل والملذات

تم لصلاح الدين هدم أسوار عسقلان وأبراجها ، وصحب ذلك فرار بعض عامتها منها ليلا وجاؤوا الى جيشنا ينقلون اليه الخبر بأن المسلمين يشددون الضغط فى العمل على سرعة تدمير الأبراج ، ولم يستطع رجالنا أن يصدقوا أن يأمر صلاح الدين بتنفيذ هذا العمل التخريبى اعتقادا منهم بأنه ليس من القوة والبأس بالدرجة التى يقوم بها أو يستطيع معها الاقدام على مثل هذا العمل ، لذلك قام الملك ريتشارد ـ بناء على نصيحة أسداها اليه كبار رجاله ـ بارسال جودفوى دى لوزنيان « ووليم ديتانج Detang » ومعهما كثيرون غيرهما فى أحد الأغربة القوية ليقفوا على حقيقة الأمر ، فأبحروا الى عسقلان وأرسوا أمام المدينة وشاهدوا بأعينهم ما كان يجرى فيها ، فلما تأكد لديهم صحة الخبر الذى ترامى الى سمعهم عادوا أدراجهم على وجه السرعة وأخبروا الملك بصدق ما بلغ أذنيه .

حينذاك جمع الملك « ريتشارد » الأمراء وزعماء العامة معا فأجمعوا الرأى على أن يتباحثوا أيهما أجدى على الفرنج : أيزحفون

على عسقلان ويطردون الترك منها حتى لا يتم خراب المدينة برمتها ؟ أم يتابعون مسيرتهم الى بيت المقدس ؟ وكثرت الاقتراحات المطروحة واختلفت الآراء اذ كان كل فريق يرى أن رأيه هو أكثر صوابا وملاءمة ، فلما رأى الملك ذلك منهم تقدم أخيرا برأيه فى حضور دوق برجنديا وأعظم رجال الشعب وقال : « يخيل الى انه من غير الملائم ومما لا يعود علينا بالنفع أن تختلف الآراء فتبلغ هذا المدى الشاسع من التباين ويذهب كل واحد برأيه الذى يناقض رأى غيره ، ففى ذلك خسارة ليست بالضئيلة ، وقانا الله شرها ... ان الترك الذين يعملون الآن فى تدمير عسقلان لا يجرؤون على مواجهتنا فى ميدان القتال ، وأرى الواجب يقتضينى أن أصارحكم أن خير نصيحة يمكن أن أسديها لكم هى أن نطرد الترك من عسقلان ونحفظ المدينة سالمة فلا تنالها معاول الهدم . وان الكل ليعرفون ضرورة ذلك الأمر للحجاج الذين يأتون من كل بقاع العالم ويمرون بها ، وأحب أن تعرفوا ان ذلك الرأى عندى - كما يبدو لى - هو الرأى الذى ينبغى ان نأخذ به » .

الا أن الفرنسيين عارضوا هذا الرأى مكايدة منهم للملك ريتشارد ، وقالوا ان القيام بترميم يافا واعادتها الى سابق ما كانت عليه خير مما عرضه الملك ريتشارد ، وان الأجدى هو اصلاح ما خرب من يافا وفسد لان العمل فى هذا الميدان - حين يتم - سيعود بالخير على الحجاج اذ يجعل طريقهم الى القدس أقصر مما هو عليه لو أنهم سلكوا طريق عسقلان .

لكن ماذا أقول بعد ذلك ؟

أقول ان صوت الأغلبية كان أعلى فى دعم هذه النصيحة [الفرنسية] وفى وجوب الأخذ بها . فيالخطل رأى هؤلاء الأغبياء !!
وياللعناد المفضى الى الدمار يشير به الكسالى المعوقون !!

لقد قيل انهم اذا أخرجوا الترك من عسقلان أصبحت البلاد كلها ميسرة أمامهم .

وانتهى الأمر أخيرا بأن كانت الغلبة لرأى الغوغاء وتقرر جمع القوى وتكتيلها لاعادة بناء يافا ذاتها .

***

وتابعوا خطواتهم فى هذا السبيل متابعة قوية ، فحفروا الخنادق ورمموا من الأبراج ما هو فى حاجة الى ترميم،وظل الجيش مقيما زمنا طويلا بطلا بلا عمل منصرفا الى الدعة والكسل والانغماس فى اللهو وانتشرت بينهم شتى أنواع الخطايا وأخذت تتفاقم يوما بعد يوم ، من انكباب على الشراب والفجور ، أما النساء فقد عدن من عكا الى الجيش ، وكثر الفسق ، وعمت الآثام والفعال الشريرة ، ففسدت أخلاق الناس وانصرف تفكيرهم عن الحج ، وأهملوا واجباتهم الدينية التى كان من المفروض عليهم أداؤها .

ف ٢٧

الملك ريتشارد يعيد الى يافا من كانوا قد رجعوا الى عكا فلازموا الحانات منكبين على الميسر واستمر بقاء الجيش فى يافا سبعة أشهر

دنت نهاية شهر سبتمبر وقد أعيد ترميم جزء من مدينة يافا ، وحينذاك غادر الجيش معسكراته التى كانت موجودة خارج أسوار المدينة ، ونصب خيامه حول « كفر جنس Casal St. Habbakut . وكان عدد الجيش قد تضاءل تضاؤلا ملحوظا بسبب رجوع فريق ليس بالقليل من رجاله الى عكا عن طريق البحر ، حيث راحوا يترددون على الحانات يقضون فيها أوقاتهم ، فلما رأى الملك

ريتشارد كيف ركن النـاس الى الكسل والتراخى ، وكيف نراه
الحجاج أنفسهم للدعة وآثروا ذلك على التفكير فى السفر الى الحج
اختـار « جى » (دى لوزنيـان) ممثلا له وأرسله الى عكا ليحث
الحجاج على الرجوع الى القوة المحاربة فى يافـا . فلم يستجب
لدعواه الا شرذمة قليلة لا يعتد بها ، فلما وقف الملك ريتشارد على
ما تم أبحر هو ذاته الى عكا وحثهم حثا فيه الأمر البات والتحذير ،
وتحدث اليهم حديثا جادا حول الايمان والأمل الذى فى قلوبنا فى
الله وجب الخطايا التى اقترفوهـا ، ونصحهم ألا يكونوا حجاجا
مزيفين ،واستطاع بهذا الأسلوب وبتلك الطريقـة أن يعيد عددا
لا بأس به منهم ممن كان لكلامه فيهم وقع ايجابى فرجعوا الى يافا ،
كما أمر بعودة الملكتين ووصيفاتهما الى يافا (٢٧) .

وكان الرأى الذى رآه الجيش ملائما كل الملاءمة هو أن يظلوا
ما يقرب من سـبعة أسـابيع فى يافا [من ١٠ سبتمبر حتى ٣٠
أكتوبر] حتى يجمعوا النـاس الذين كان معظمهم حتى الآن قد
تفرقوا هنا وهناك ، فأما قومنا فقد اجتمعوا معا حتى اذا جاء اليوم
الذى تكامل فيه عقدهم صار الجيش أكبر عددا عما كان عليه من
قبـل .

فـ ٢٨

ترتب على خروج الملك ريتشارد فى جمع صغير ان كاد الملك يقع فى يد الترك لولا وليم دى برو Preaux الذى ادعى أنه هو الملك وسلم نفسه للترك بدلا منه

حدث ابان هذا الوقت بالذات ان خرج الملك ريتشارد ذات
يوم وليس معه الا جماعة صغيرة من خاصته للصيد بالصقور وللوقوف

فى الوقت ذاته على وضع الترك والانقضاض عليهم على غرة منهم اذا
ما صـادفه أحـد منهم ، ولما كان فى بعض الريق أحس بالانهاك
والتعب من مشقة الرحلة فراح يلتمس بعض الراحة فاستجم فغفت
عينـاه فاكتشف الترك ذلك الأمر منه فبـاغتوه من حيث لا يدرى
مباغتة سريعة يرجون القبض عليه . وأحدث قدومهم جلبة أيقظت
الملك ولم يتـوفر له الا وقت قصير جـدا ليمتطى جـواده الكميت
القبرصى ، كما اعتلى رفاقه فى الوقت ذاته خيولهم . وقد حدث
هذا كله قبل أن يتمكن الترك من الاندفاع نحوهم والهجوم عليهم
فى محاولة منهم للقبض على الملك الذى تصـدى لهم وهو شـاهر
سيفه ، فبادر مهاجموه كلهم فى الحال الى الفرار من أمامه لكنه جد
فى أثرهم وأوغلوهم فى الفرار الى مكان قصى كان فيه رفاقهم رابضين
فى كمين لهم فخرجوا عليه من كمينهم هذا ، فتكاثروا عليه فجأة
وسرعان ما أحدقوا به وبرفاقه القلائل الذين كانوا بصحبته ، وكان
قصد الترك من وراء ذلك القبض على الملك .

الا أنه استل حسامه فى شجاعة وأخـذ يدافع عن نفسـه
ويدفعهم وهم يكرون عليـه ، ومد كل واحـد من هؤلاء الترك يده
وتسابقوا أيهم يمسكه ، الا انهم سرعان ما ارتدوا على أعقابهم خوفا
من ضربات سيفه ، لكنه أصبح الآن وحيدا ليس له من عون آدمى
ينجيه منهم ومن الوقوع فى قبضتهم لو انهم عرفوه ، وبينما هـم
فى ذلك الموقف يحاولون الامسـاك به اذا بواحد من رفاق الملك
اسمه وليم دى برو **Preux** صاح فى صوت عال بالعربية « أنا
الملك » فصدقوه فيما قاله وأمسكوا به فى الحال وأخذوه أسيرا الى
جيشهم .

أما رفاق الملك الذين قتلوا فى هذا الاشتباك فكانوا « رينيه
دي مارون Marun وكان من الفرسان الأبطال ولكنه كان مجردا

من السلاح ، كما قتل أيضا ابن أخيه واسمه « وولتر » وكذلك « الان » Alan ولوقا صاحب الاصطبل .

وعم خبر ما حصل كل النواحى ، وجزع الجيش كله وتملكه الحزن ، وسرعان ما امتشق العسكر أسلحتهم وهمزوا جيادهم وانطلقوا يفتشون عن الملك فصادفوه عائدا فكان سرورهم به عظيما اذ وجدوه سليما معافى فى بدنه ، فسار معهم وانطلقوا بأسرع ما يمكنهم فى أثر الترك الذين كانوا قد قطعوا مسافة طويلة من الطريق أفضت الى أن تملكهم الارهاق الذى حال بينهم وبين الاشتباك معه ولم يعودوا قادرين على محاربته ففروا سراعا على وجوههم ومعهم وليم « دى برو » الذى أخذوه أسيرا ، وكانوا فى غاية السعادة اعتقادا منهم أنه هو الملك ريتشارد .

ان الرب هو الذى هيأ للملك أن يسلم حتى يتابع من الأعمال ما هو أكثر أهمية والزم .

وبينما كان الترك يمضون سراعا الى وجهتهم عاد رجالنا الى الجيش وقد غمرتهم السعادة وهم يمجدون الرب اذ تمكنوا من استرجاع الملك سالما معافى ، وزاد فى غبطتهم أنه كاد أن يكون من الهالكين فى أثناء تجواله الذى حفته المخاطر ، غير أن الحزن الكبير اعتراهم من أجل « وليم دى برو » الذى أسلم نفسه طواعية للعدو ، وفاء منه للملك واخلاصا له وافتداه بذاته .

فما أجل هذا الوفاء وما أعظمه !!
انه لوفاء مشكور ممجد .

وأى اخلاص نادر المثال أبلغ من أن يتلقى المرء الخطر عن طواعية لينقذ غيره !!

على أن طائفة من خواص الملك وأهل بيته يكنون له الولاء فى أعماقهم راحوا يلومونه على ما كان منه من اندفاع كبير ، وحذروه من أن يأتى بمثله مرة أخرى ، والتمسوا منه ألا يتجول فى المستقبل وحيدا حتى لا يقع فى شراك ينصبها له العدو ، فقد قيل ان بقاء الكل مرهون بسلامته هو نفسه ، ويجب عليه على الدوام أن يعى أن حياته – بكل ما تعنى الكلمة – أغلى من حياة أى فرد فى قواته ، وأن الترك جادون فى السعى فى هلاكه هو ذاته أكثر من هلاك جنده .

وقال له رجاله : « اذا ما فكرت مرة أخرى فى خروج مثل هذا الخروج فالواجب يقتضيك أن تصحب جندا كثيرين شجعانا ومحاربين أشداء لا أن تخرج فى ثلة قليلة » .

كانت الألفة بين الملك ريتشارد وهؤلاء الأصدقاء الخلص هى التى جراتهم على مخاطبته بهذه اللهجة الجافة ، ومع ذلك فانه فى كل معركة خاضها كان يؤثر أن يكون أول من يخرج للهجوم ، كما يؤثر أن يكون فى الوقت ذاته أن يكون آخر من يعود بعد الفراغ من المعركة التى خاضها ، اذ من ذا الذى يستطيع أن يدحض ما طبعوا عليه من العنف حتى ولو اشتد الهجوم عليهم ؟

والحق انه ما من معركة خاضها الا وخرج منها ظافرا مكللا بالنجاح بفضل شجاعته وبفضل رحمة الرب ، ثم انه كان يعود من كل معركة بطائفة من الترك الذين أسرهم وهزمهم ، فأما الذين يقاومونه فما جزاؤهم الا جز الرقاب .

الملك ريتشارد وجيشه يعاودون ترميم قرى السهل و « يازور » ويتغلبون على الترك ويفتكون بهم اذ يهاجمونهم

بعد أن استجم الجيش وظهر أنه عاد الى ما كان عليه من نشاطه السابق صدر قرار ملكى يقضى بأن يتسلح كل فرد ويعد عدته لحملة تخرج فى سبيل الرب ، وتقرر أن تمضى هذه الحملة لاعادة اصلاح قرى السهول وارجاعها الى ما كانت عليه فى السالف، اذ جرى الاعتقاد بأن هذا الموضع كان ضرورة ملحة لضمان سلامة حركة الحج التى كان لابد لها أن تمر عبر هذه النقطة ، ومن ثم عين الملك جماعة سوف يوكل اليهم الحفاظ على يافا واكمال أسوارها ومراقبة أبوابها مراقبة دقيقة فلا تغفل أعينهم عن ملاحظتها ، ولا يأذنون لأحد ما بمغادرتها الا أن يكون تاجرا ممن يحملون الطعام . واختير لهذه المهمة أسقف « افرو » وكونت « شالون » وهيج « دى ريبول » Rebol مع طائفة أخرى من الناس وان يظلوا كلهم فى يافا .

وحدث فى يوم الأربعاء السابق لعيد جميع الفرنسيين (الذى هو يوم الثلاثين من أكتوبر ١١٩١ م) ان شاهد الملك ريتشارد وهو يتجول فى سهول الرملة بعض الجواسيس المسلمين فلم يتوان عن المبادرة الى الهجوم عليهم ونزل عليهم كأنه الدب المفترس أو البرق الخاطف فبدد فى الحال جمعهم ، ومزق بعضهم اربا ، وكان من بين من بتر أعضاءهم أمير من كبار أمرائهم اذ تركه جثة بلا رأس ، فلما رأى رجاله ما حل به فروا على وجوههم يلتمسون النجاة لأنفسهم .

فلما كان اليوم التالى وهو عيد جميع القديسين الموافق الحادى والثلاثين من أكتوبر ١١٩١ خرج الملك والجيش ولم يبعدوا كثيرا واختصروا زحفهم حيث ضربوا مخيماتهم وعسكروا ما بين كازال بليز Casal Pleues ويازور Casal Moen ، وكان الجيش التركى حينذاك موجودا فى الرملة التى اتخذها العدو مركزا لعملياته الفجائية وليترك بنا الأضرار الجسيمة ، ولقد ظل جيشنا مقيما بين هذين المكانين خمسة عشر يوما أو أكثر ، أكمل فيها الملك ريتشارد اصلاح ما تحتاجه بازور » من اصلاح .

وزيادة على ذلك فان الداوية اعادوا ترميم قرى السهول وان دأب الترك على مداومة تهديدهم لنا ومباغتتنا ابانا بين آونة وأخرى كلما وجدوا الى ذلك سبيلا .

وحدث فى يوم من الأيام أن تجمع حشد كثيف منهم ومعهم ما يقرب من ألف فارس وكانوا على وشك الهجوم على عسكرنا ، وسرعان ما امتطى الملك ومن معه ظهور جيادهم وانطلقوا لصد المهاجمين ، وهبوا الى أسلحتهم ، لكن الترك ما لبثوا أن ولوهم أقفيتهم وفروا لواذا وان هلك بعضهم ، وكان هلكاهم يومذاك ستة وعشرين رجلا وأسرنا منهم ستة عشر آخرين أخذناهم أحياء ، أما الباقون فقد أسعفتهم جيادهم الخفيفة بالهروب رغم أن الملك ظل يطاردهم فى اصرار كبير وجد فى آثارهم حتى لاحت له معالم الرملة واضحة كل الوضوح حيث كان الترك مرابطين بها . وحينذاك قفل جميع رجالنا راجعين وعادوا الى معسكرهم .

فـ ٣٠

الملك وشعبه يحرزون نصرا كبيرا ويحمون اتباعهم ضد الترك حين خرجوا لالتماس العلف

خرج رجال مسلحون وسادة الى الناحية التماسا للحشائش والعلف لجيادهم ودوابهم التى تحمل أمتعتهم ، وكان خروجهم هذا بعد ستة أيام من عيد جميع القديسين أعنى يوم عيد القديس ليونارد (الواقع يوم السادس من نوفمبر) وكان الاسبتارية يتولون حراسة السادة ،وهم المسئولون عن سلامتهم أثناء تجوالهم فى الأودية بحثا عن مواضع الربيع والعشب ، وأوغلوا كعادتهم فى السير فى طلب العلف وقد كلف هذا التوغل بعضا منهم حياته حين انطلقوا دون أن يأخذوا حذرهم .

كان الداوية ــ كما قلنا ــ مسئولين عن سلامة هؤلاء «السادة» غير أنه حدث ان هب ما يقرب من أربعة آلاف فارس من فرسان الترك قادمين من Bombrac وهاجموا الداوية هجوما لا هوادة فيه وأحدقوا بهم من كل جانب وضيقوا عليهم الخناق قاصدين القضاء المبرم عليهم فان لم يتمكنوا من القضاء عليهم فلا أقل من اسرهم أحيــاء ، وأخذت جمــوع الترك تتزايد لكثرة من أخذوا فى الانضــمام اليهم بين لحظــة وأخرى ، فأدرك الداوية حينذاك ــ وقد اشتدت محاصرة العدو لهم ــ ان الواجب يقتضيهم مقابلة العنف بالعنف وسرعان ما ترجلوا عن خيولهم وجعلوا ظهورهم الى ظهور رفاقهم المقاتلين واستقبلوا العدو ووجوههم الى الوراء واقبلوا يدافعون عن أنفسهم دفاعا بطوليا ، الا ان العدو هاجمهم فى الحال وسرعان ما تمكن من قتل ثلاثة من فرسان الداوية .

حينذاك احتدمت المعركة واشتد أوار القتــال ، وتبودلت الضربــات العنيفــة بين الجانبين ، وطــارت خوذ كثيرة من فوق الرؤوس ، وكان لالتحام السيوف بعضها ببعض شرر يتطاير فى الجو ، وتعالت صرخات المتقاتلين وأنينهم ، واندفع الترك اندفاعا جنونيــا ولكن الداوية ردوهم على أعقابهم من كل جانب وانتهى الأمر أخيرا باقتحامهم صفوف الداوية وأمسكوا بعضهم وتبين أخيرا لأندرو دى شافينى Chavigny ما يجرى لاخوانه الداوية فهب مسرعا لمعاونتهم ومعه خمسة عشر فارسا من خاصة فرسانه ، ونجح فى تخليص الداوية مما هم فيه من الحصار الذى أخذ بأنفاسهم ، وانقذهم « لاندرو دى شافينى » من أيدى أعدائهم .

ولقد أبدى « أندرو دى شافينى » فى هذا الاشتباك ما دل على أنه محارب مقدام وبطل مغوار ، وكذلك كان رفاقه على نمطه ، فقد هاجموا عامة الترك هجوما عنيفا لم يجدوا بدا حياله الا الفرار ، الا أن أعداد العامة كانت تتزايد باستمرار فما تكاد تفر طائفة حتى تحل محلها أخرى أكثر منها عددا ، وحمى وطيس القتال واستحر الاشتباك وزاد عنفا عن ذى قبل .

كان هذا كله يجرى فى الوقت الذى كان الملك ريتشــارد فيه يولى اهتمامه الذى لا ينقطع الى الاستمرار فى ترميم « يازور » فلما ترامت الى ســمعه الصرخات العالية من جانب محاربيه أصدر أمره الى كونت « سنت بول » والى ايرل « ليسيستر » بالركوب على وجه السرعة لنجدة الداوية وامدادهم بالتأييد العاجل الكبير ، كما أرفقهما باثنين آخرين هما « وليم دى كاجو » (٢٨) Cageu و « اوتو دى ترانسينجيس » Transiness .

بينما كان هؤلاء ينطلقون كانت صيحات الاستغاثة تتعالى من جانب « السادة » فحث الملك كلا من الايرل والكونت على مضاعفة

سرعتهما ، بل انه هو ذاته سرعان ما أخذ سلاحه وانطلق أثر الايرل والكونت ، وجواده من تحته يطوى به أديم الثرى طيا .

بينما كان الايرل والكونت يسرعان لنجدة أصحابهما كان هناك كمين مؤلف من أربعة آلاف من رجال العدو قد انقسموا الى مجموعتين : برزت احداهما ـ وكانت تكمن الى جوار النهر ـ الى الداوية وهاجمتهم ، أما الأخرى فهاجمت الايرل والكونت .

حينذاك اقترح كونت سنت بول على ايرل ليسستر العظيم اقتراحا مذموما تنقصه الحنكة فحواه أن ينطلق الكونت فيقاتل الترك على أن يظل الايرل موضعه ليراقب سير المعركة وليلاحظ ما يسفر عنه الالتحام ، فيمد يد المعونة الى صاحبه ان كانت ثمت حاجة ماسة لهذه المعونة ، فان لم يوافق الايرل على ذلك الاقتراح فعليه أن يبدأ بالقتال وحده منفردا وأن يقف كونت سنت بول يرقب الأمر ، فآثر ايرل « ليسيستر » أن يقوم هو بمهاجمة العدو لأنه لا يستطيع أن يحتمل الوقوف ساكنا ويظل بلا حراك والمعركة تدور رحاها ، ومن ثم انفصل هو ومن معه عن الكونت وكر على العدو كرة ضارية ألقت به فى وسط جموعه واستطاع أن ينتزع من يد العدو فارسين من فرساننا كان العدو قد أمسك بهما وعاملهما معاملة تنطوى على الوحشية والقسوة .

ولقد أبدى الايرل فى هذا الالتحام شجاعة عظيمة ومثابرة محمودة فكان يصرع هذا ويقطع رأس ذاك ، مما جعل اسمه يتردد على الألسن بالمدح ونال مجدا تردد فى الآفاق منذ ذلك اليوم ، كما أكبر الناس فيه صفاته كمقاتل وعظموه من أجلها .

واشتد القتال بين الجانبين وزاد حدة وضراوة واختلط الحابل بالنابل حين وصل الملك ريتشارد الذى اندفع مزمجرا ،

فلما أدرك من معه ـ وكانوا قلة ـ أنه لن يكون مساويا لهذا العدد الضخم من العدو قالوا له : « أيها الملك العظيم : انه ليس من الخير أن تبدأ أمرا لا يتيسر اتمامه ، ونحن نرى ان ليس من الأمان فى لحظتنا هذه أن نلتحم ـ ونحن قلة ـ بمثل هذا الحشد الكثيف القوى من رجال العدو ، وهب انك تؤثر المخاطرة فلن تكون قادرا على تحمل هجوم العدو حتى ولو كنت تعتقد أنه من الضرورى مساعدة من هم فى حاجة الى المساعدة والانقاذ ، اذ لن تتمكن حينذاك من احراز الغاية التى تصبو اليها لان قواتنا ليست كافية تماما للوقوف فى وجه هذه الجموع الكثيفة والتصدى لها ، واننا لنعتقد أن الخسارة ستكون طفيفة ان هلك من يحيط بهم العدو ان قيس هذا الهلاك بوقوعك فى أيدى الترك أسيرا ، ففى ذلك واد لآمال المسيحية ونفقد كل تطلع الى المستقبل ، ولذلك فالرأى عندنا هو أن تبقى أنت سالما وبذلك يمكن تجنب الخطر » . فاربد وجه الملك حين سماعه هذا الكلام وغلى الدم فى عروقه من الغيظ ورد عليهم ردا أراد به تفنيد ما قالوه اذ قال لهم :

« حين التمست من رفاقى المحبوبين أن يمضوا قدما الى القتال التمست منهم ذلك بعهد غليظ منى أن تصلهم النجدة غب رحيلهم ، فان لم أف بما خبرتهم به ولم أكن معهم هناك فى الدفاع عنهم وهم الذين وثقوا بى فلسوف يقتلون ـ لا قدر الله ـ عن بكرة أبيهم لانى لن أكون حينذاك الى جوارهم ولأنى سأكون آنئذ مستكينا الى الراحة واذ ذاك لن أكون جديرا بأن اسمى بالملك » .

ثم أمسك الملك ريتشارد عن الافاضة فى الكلام وأسرع فهمز جواده فانطلق به وهو يتسعر سخطا لا يمكن وصفه ، وما أحسبنى مخطئا ان قلت انه سخط سخط مجنون ، ثم انه كر على الترك ففرق جموعهم المتراصة المتشابكة بهجومه الباسل عليهم ، واخترق

صفوفهم كأنه البرق ، وكان يصرع الكثيرين منهم بضربة واحدة منه ، ثم يعود فيقتحم صفوفهم مرويا حسامه من دمائهم ، ضاربا به ذات اليمين وذات الشمال ، ومجندلا هذا أمامه وذلك من خلفه ، لا يخاف أحدا ، وصال فيهم فكأنه الهزبر الفتاك ، وكان انى سار أهلك من يكون على يمينه وعلى يساره ، فتراه باترا يد أحدهم ، وذراع آخر ، أو قاطعا رقبة غير هذا وذاك ، وهكذا دواليك .

كان ممن صرعهم الملك ريتشارد فى هذا اليوم وعجل بهم الى الهاوية أمير شاءت الصدفة البحتة أن تضعه فى طريقه ويلقاه ، وكان أميرا قويا ذائع الصيت فى قومه اسمه اياز المهرانى Aralchais لكن لماذا ترانى أفيض فى تفصيل ما جرى ؟

لقد قهر الملك يومذاك الجميع ، فمنهم من لاذ باذيال الفرار ، ومنهم من لقى حتفه بحد سيف الملك ، ومنهم من أخذه أسيرا فى الأغلال .

وتتبع الملك ريتشارد ومن معه الهاربين بعض الوقت ثم عاد الى رجاله بعدد كبير من الأسرى .

هكذا كانت انجازاته فى ذلك اليوم .

لقد أتمها على الوجه الذى يريد دون أى عون من جانب الفرنسيين (٢٩) .

ولقد حدث فى ذلك اليوم ان قدم ثلاثة من الأتراك الذين ارتدوا عن دينهم وأعلنوا اعتناقهم المسيحية واستسلموا للملك ريتشارد ، وربما فعلوا ما فعلوا بدافع مما يكون قد استولى عليهم من رهبة الهلاك والخوف منه .

فـ ٣١

صلاح الدين يخدع الملك ريتشارد بالحيل والعهود الزائفة فيؤخره بعض الوقت ويحمله على التوقف عن الحرب أملا منه فى استرداد الأرض الطاهرة كما يقوم فى الوقت ذاته بهدم بعض القلاع

كان الموضعان اللذان أشرنا اليهما من قبل قد رمما بعض الترميم ، وأدرك الملك ريتشارد مدى اشمئزاز جيشه من عجرفة الترك واحساس عسكره بالكراهية الشديدة لهم ، كما تضاءل خوف الجيش منهم بعد ما اصطدموا بهم فى كثير من المعارك فسحقوهم بعون الرب ، أو على الأقل أنزلوا بهم من الأضرار ما هو أفدح من الخسائر التى أنزلها الترك بهم ، وأرسل الملك رجالا ذوى ضمائر حية الى صلاح الدين وأخيه العادل يطلب منهما أن يردا عليه مملكة الشام وكل ما يتبعها ، وأن يعيدها اليه كاملة غير منقوصة كما كانت عليه أيام الملك الأبرص . وزاد الملك فطالب صلاح الدين بقيام مصر بدفع الجزية اليه كما كانت تدفعها الى أسلافه [الصليبين] من قبله فى بعض الأحيان .

كما طالب باسترداد كل شىء كان ملكا لمملكة بيت المقدس ورده اليه هو ذاته ، باعتباره الوريث الشرعى بحق صلته بأولئك الذين كانت هذه النواحى ملك يمينهم ، وكانوا هم أصحابها .

ومضى الرسل الذين زودهم ريتشارد بكل صلاحيات السفراء والتزاماتهم والتقوا بصلاح الدين ووضعوا أمامه فى جلاء تام كل المطالب الملكية ، فلم يرضخ صلاح الدين لما سألوه ، ولكنه قال

لهم : ان ملككم يطلب ما لا حق له فيه ، ثم قال : « اننا لا نستطيع أن نذعن لما يطلبه ملككم ونستجيب لكل ما سال ففى ذلك تلطيخ لشرف الملة (٣٠) ، الا اننى رغم ذلك كله سوف أرسل الى ملككم جوابى مع أخى الملك العادل بأنى سوف أعطيه كل بلاد القدس الممتدة من نهر الأردن الى البحر العربى [أى البحر الأبيض المتوسط] دون أى نقص أو قيد ، لكن على شرط واحد هو الا يعاد قط بناء مدينة عسقلان سواء آكان ذلك على أيدى المسلمين أو المسيحيين » .

وجاء الملك العادل الى الملك ريتشارد (وكان ذلك يوم ٧ نوفمبر) ليعلن اليه ما قاله صلاح الدين (٣١) ، غير أن الملك لم يشأ أن يتحدث اليه فى ذلك اليوم لأنه كان لا يزال متوعكا وقد قصدوه ، الا انه رغم ذلك كله أمر « ستيفن دى تيرنهام » أن يمضى فيقدم للملك العادل فى سفرته أحسن أنواع المطعومات وأشهى الأطباق المختلفة ، وكان تناول العادل طعامه فى ذلك اليوم فى السهل الواقع بين « يازور » و « الصفيرية » وقرية يهوشافاط .

فلما كان اليوم التالى أهدى العادل الى الملك ريتشارد سبع ابل غالية ، وخيمة رائعة ، ثم جاء هو بنفسه وسلم للملك الرسالة التى معه من صلاح الدين .

وتدبر الملك ريتشارد ماذا يؤول اليه الأمر وقد عرف ان مصير الحرب معلق لم يبت فيه لأى الطرفين ، ولكنه قرر انه ينبغى عليه – فى الوقت الحاضر – أن ينتظر ليرى ماذا تتمخض عنه هذه الأحداث وأن يأخذ حذره ، لكن وأسفاه !! لقد كان مخطئا فلم يفكر فيما كان من خديعة سابقة من جانب خصمه ، ولم يتوقع مراوغة جديدة تسفر عن وقوعه فى الخطأ وذلك عن طريق كسب

مزيد من الوقت لمتابعة تدميره مدن الاقليم وقلاعه وتحصيناته .

ونجح العادل بذكائه أن يوقع فى شركه الملك الطيب وأن يخدعه بكلماته المعسولة وأن يداهنه ويصانعه حتى اطمأن الملك اليه ، ومحضه وده وخصه بصداقته ، كما أظهر السرور بهدايا العادل فتقبلها قبولا حسنا ، وظل السفراء جيئة وذهوبا وهم يحملون الهدايا الصغيرة الى الملك ريتشارد الذى لم يكن شعبه راضيا عما كان منه فى هذا الصدد فلم يكتموا نقدهم اياه وصرحوا بذلك علانية حتى لقد عدوا مصادقته الكفار أمرا ينطوى على الخطيئة ، الا ان العادل صرح بأنه حريص كل الحرص على عقد السلام وتأكيد الوفاق بين الجانبين ، وقد أدى ذلك الى أن يبقى الملك معلقا ورآى ان الخير فى عقد سلام مشرف يؤدى الى زيادة شأن المسيحية وتوسيع رقعة حدودها .

كان الأمر الذى يجعل الملك ريتشارد أكثر الحاحا وأشد سعيا فى عقد السلم هو ما أدى اليه رحيل ملك فرنسا من اشاعة الخوف فى نفسه ، ثم ما كان يعرفه من عدم الثقة به وعدم الاطمئنان الى صدق أمانته فقد برهنت الأحداث الكثيرة من قبل على أن صداقة [فيليب] كذب ومين .

ولقد قيل ان العادل استطاع أن يستميل اليه الملك ريتشارد بهداياه التى كان مستمرا على ارسالها اليه صحبة رسله وان كان الملك قد تبين له فى آخر الأمر ان الوعود التى حملها اليه أولئك الرسل لم تكن أكثر من كلمات جوفاء ، وان المفاوضات الجارية بين الطرفين لم تؤد الى النتيجة المرجوة ، لا سيما وأنها توقفت بسبب حصن الشوبك اذ جعل الملك هدمه شرطا من شروط الصلح (٣٢) فلم يوافق المسلمون على هذا الشرط ، وحينذاك لم يعد ثم ما يتفاوض معهم بشأنه .

ولما شاع أن الطرفين لم يصلا الى السلام المنشود ولا الوفاق الذى كان غاية المرام مضى الترك يضاعفون من هجماتهم هنا وهناك مما حمل الملك ريتشارد على المبادرة الى الاشتباك معهم فى القتال ، ثم انه رغبة منه فى ازالة كل شائبة تحط من قدره فى عيون رجاله جاءهم بكثير من رؤوس الأعداء وعرضها عليهم ليقيم الحجة على كذب ما رمى به عندهم ، وتفنيدا للمزاعم التى زعمها بعضهم بأنه ضالع مع الأعداء ، وليوضح لهم أن الهدايا التى جاءته من المسلمين لم تحمله على التوقف عن مهاجمتهم ، وان كل ما قيل فى هذا الصدد ان هو الا فرية باطلة ، لكنه مع ذلك لم يسلم من وجود رجال ظلوا على خصومتهم له وسعيهم الدائب لتشويه سمعته ، وكانت هذه الطائفة من الرجال هى التى تسعى الى ابتزازه ماليا ، وانه لمن النادر أن تجد أحدا لايجذبه رنين المال فان لرنينه وقعا عذبا مغريا .

ف ـ ٣٢

المشاق التى تحملها رجالنا بسبب كل من المطر والعدو أثناء وجودهم فيما بين سنت جورج والرملة وفى الرملة ذاتها

حين تم ترميم الكازالين وشحنهما بالحراس تحرك الملك شطر الرملة على رأس جيشه ، فلما سمع صلاح الدين بما كان من تحرك « ريتشارد » لم يجرؤ على الخروج للاشتباك به فى معركة سافرة ، بل أمر بهدم مدينة الرملة وتسويتها بالأرض ، الا آنه لم يبدا الشروع فى الهدم بل مضى قدما نحو النطرون لأنه كان يشعر بالأمان فى الجبال أكثر مما يشعر به فى غيرها ، ولقد عسكر جيشنا فيما بين سنت جورج والرملة وظل مقيما فى هذه الناحية اثنين وعشرين يوما فى انتظار بقية الناس وفى انتظار وصول القمح .

كذلك قاسينا أخطر الهجمات من جانب العدو الى جانب الأمطار التى هطلت بغزارة حتى أخرجتنا من معسكرنا مما حدى بملك بيت المقدس وبرجالنا الى الاقامه فى سنت جورج والرمله بدلا من الموضع الذى هم فيه الآن ، الا ان كونت سنت بول ذهب الى يازور » فاقام بها .

وبقينا فى الرملة ما يقرب من ستة أسابيع فى عيشة غير راضية رغم ان حلاوة الخاتمة عوضتنا عما لقيناه فى البداية من صعوبة ومشقة ، وتكبدنا فى أثناء اقامتنا هنا فى الرملة كثيرا من الهجمات التركية التى اقضت مضاجعنا وحرمتنا من كل أنواع الراحة ، فقد دابوا على ملاحقتنا بالغارات ورمينا بالنبال قصد ازعاجنا ، فلما كان مساء عيد الرسول توماس المبارك (وهو العشرون من ديسمبر) خرج الملك ريتشارد من المعسكر على رأس طائفة صغيرة من خاصته متجها شطر كازال يسمونه بلانشجارد Blancheguard لنصب كمين للترك ، ولكنه تخيل خطرا سوف يداهمه فى الطريق فتخلى عما كان فى نيته وكر راجعا الى معسكره . والمعتقد انه لم يفعل ذلك الا بالهام الاهى اذ أخبره اثنان من المسلمين كانا قد لجآ اليه ان صلاح الدين أرسل فى هذه اللحظة بالذات ثلاثمائة تركى مسلحين من خيرة رجاله الى « بلانشجارد » الذى كان الملك ريتشارد ينوى الذهاب اليه .

وفى هذا اليوم ذاته خرج الملك « جى » الى عكا التى مضى اليها بعد ذلك بثلاثة أيام « ستيفن دى تيرنهام » هو الآخر ، فلما كان منتصف ليلة عيد الطاهرين المقدسين (وهو ٢٨ ديسمبر ١١٩١ م) غادر الداوية والاسبتارية المعسكر عائدين الى الرملة فوصلوها عند اطلالة الفجر بما معهما من الغنائم ، وهما يسوقان مائتى رأس من الغنم جمعاها من المناطق الجبلية المجاورة لبيت المقدس .

فـ ٣٣

وقعة ايرل ليسيستر الرائعة ضد الترك وانتصاره النهائى حين قدم رجالنا لمعاونته

حدث فى أحد الأيام أن قام ايرل « ليسيستر » النبيل مع ثلة صغيرة من الناس بمهاجمة طوائف كثيرة من الترك ، وذلك فى محاولة من جانبه لطردهم وكانوا قد غرهم بنفسهم الغرور . فزحفوا حتى صاروا على مقربة منا ، فما كادو يبصروننا حتى فروا يسابقون الريح ، غير ان ثلاثة من رجال الايرل كانوا أسرع من سواهم انطلقوا فى أثرهم يطاردونهم ، فلما بلغوهم قذفوا بأنفسهم عليهم فى غير حذر ولا تعقل يريدون قتلهم ، فأمسكهم العدو وأخذهم معه أحياء ، فلما علم الايرل بما حدث لرفاقه لم يطق الانتظار وعزم عزما باتا على التحرك وعدم السكون فأرخى لجواده العنان ولج فى مطاردة أكثر من مائة تركى بغية انقاذ رفاقه ، ولكن بينما كان فى أثرهم وهم يعبرون أحد الأنهار اذا بحوالى أربعمائة تركى يطلعون فجأة عليه وقد أمسك كل واحد منهم فى يده برمح من الغاب وقوس ، واستطاعوا أن يقطعوا من الوراء كل ما بين الايرل ورفاقه من جهة وما بينه وبين الجيش من جهة أخرى ، فاستحال عليه وعلى من معه الرجوع الى المعسكر ، واحاط الترك بالايرل ورجاله الذين معه وقاتلوهم قتالا صادقا مجمعين العزم على امساكهم، وسرعان ما أنزلوا « وارين فيتزجيرالد » من فوق ظهر جواده وانهالوا عليه ضربا بالهراوات الحديدية الرؤوس ، وجرى اشتباك عنيف أشد العنف ، وسمع للرماح صدى وهى تصيب بعضها بعضا وراحت السيوف تهوى على المغافر ، والضربات تنهال من كل جانب ، وما انقضى غير قليل من الوقت حتى أنزلوا كلا من روجر دى لافونتينيل « La Fontenele » وروبرت نيل Neal

من فوق جواديهما ، وكان هذا الحشد الكثيف من الترك والفرس يسعى من وراء هذا الهجوم الى تطويق الايرل نفسه والقبض عليه. وقد نجحوا فى النهاية فى مسعاهم ولكن بعد مشقة اذ رموه من فوق ظهر جواده وكالوا له الضرب فى وحشية ، كما قذفوا به وسط المعمعة فى النهر عساه يغرق . فلما أدرك أن ذلك يتطلب منه حزما شديدا استل سيفه وراح يضرب به ذات اليمين وذات الشمال من يكون هناك من الترك الذين كانوا يهددونه ، ثم جاءت النجدة فى هذه اللحظة من جانب اثنين أحدهما هو « هنرى فيتو نيكولاس » وثانيهما من رجل أمجد يستحق الاشادة به الا وهو « روبرت دى تيوبيرج » الذى أكسبته بطولته التى لا تبلى ذكرا خالدا على مر الدهور وسيظل اسمه باقيا حتى تفنى الدنيا وما عليها ، اذ ما كاد يبصر « الايرل » وقد شارف على الاغماء لفظاظة ما ألحقوه به من التعذيب القاسى وما ناله من الأذى الفظيع على أيدى الكثيرين حتى ترجل عن جواده وقدمه الى « الايرل » ليركبه ، اذ كان يرى أن سلامة « الايرل » أهم وأجدى من سلامته هو ذاته .

اننى لأخشى أن تكون قلة نادرة هى التى تقتدى به ، فتفعل من الفعل المجيد مثل ما فعله روبرت دى تيوبيرج ، أما الأفعال الشريرة فما أكثر مقلديها .. لقد كان فيما فعله هذا الرجل النبيل « روبرت » انقاذ لروحه وللايرل ، وان ما فعله لعمل سرى مجيد .

الى جانب هؤلاء كان مع « الايرل » كل من « رالف دى شنت مارى » Ste Marie وارنولد دى بوا Bo وهنرى دى ميلوك Mailoc ووليم وشاؤول بروى Brui . ولكن أين هؤلاء بين كثيرين غيرهم ؟ ... لقد دافعوا عن أنفسهم دفاعا رائعا ، ولكن

شجاعة قلة لم تكن كافية ازاء أعداء لا يحصيهم العد ، ولقد استمر القتال أمدا غير قصير ، وكانت هناك جموع جديدة من الترك تحل محل الذين أنهكتهم الحرب ، وراحوا ينزلون الأهوال على « الايرل » ورفاقه القلائل ويرهقونهم بضرباتهم المستمرة حتى اذا لم يعودوا قادرين على احتمال وطأة المعركة تعلقوا برقاب جيادهم والضربات لا تزال تنهال عليهم وهم لا حراك بهم حتى اذا صاروا أشبه بفاقدى الاحساس ولم يعودوا قادرين ساقهم الأتراك أسرى الى النطرون .

ما أجمل أن يضع الانسان ثقته فى الله !!

« ان حافظ اسرائيل لا ينعس ولا ينام » (٣٣) وان « الله أمين لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون » (٣٤) .

ما كاد جيشنا يسمع بهذه الأحداث حتى امتشق فرساننا أسلحتهم وانطلقوا فى أثر الترك فى شدة وهاجموهم وفرقوهم ومزقوهم شر ممزق ، وكان من رجال بنى وطننا «اندروا دى شافينى» وهنرى دى جراى Gray Preaux وبطرس دى برو وغيرهم ممن فاقوا سواهم شهرة وذيوع صيت ، وقد فتك كل واحد من هؤلاء بمن صادفه من الترك فى أول لقاء كان بين الجانبين ، وكان التركى الذى هاجمه « بطرس دى برو » ذا بأس شديد ومن أعظم بنى جنسه شجاعة وبطشا ، حتى لقد استحال على بطرس نفسه وعلى العديد من أصحابه أخذه فى هجوم واحد أو أسره ، ولم يتيسر لهم التغلب عليه الا بصعوبة شديدة ولم يفرغوا منه الا بقتلهم اياه .

كما طعن « اندروا شافينى » أميرا شاء حظه التعس أن يعترض سبيله فألقاه من فوق جواده وطرحه أرضا وأصابه بجرح كانت فيه منيته فلم يعد بعد ذلك أبدا مصدر ازعاج . على أن هذا التركى

نفسه كان قد تمكن من أن يشك « أندرو » فى ذراعه برمحه المصنوع من الغاب ويكسره فلما سقط هذا الأمير تجمع الترك حوله وجاهدوا جهادا كبيرا لانقاذه ، ولكن كان السيف قد سبق العذل فقد انقضى أجله فكان من جملة الهالكين .

على أن ذلك كله لم يحل بين الترك وبين أن يشدوا على رجالنا شدة نكراء ، ويكيلوا لهم الضربات الكثيرة حتى ردوهم الى الوراء بفضل عصيهم ذات الرؤوس الحديدية،وكاد النصر أن يكون للترك لولا وصول امدادات جديدة زادت من عدد رجالنا وأدت الى مضاعفة حماسة من كانوا موجودين قبل وصولهم ممن كان الانهاك قد بلغ بهم غايته،وحينذاك نشبت معركة حمى فيها الضرب والتضارب ، فهاجم « الايرل » وهوجم ، وصارع الترك وصارعوه حتى أثخنوه ضربا بهراواتهم ، ولكنه أطاح برؤوس الكثيرين من أولئك الذين كانوا يهددونه ، وانهال عليه الكثيرون بالضرب ، وكان هو اذا ضرب خصمه ضربة لم يعد فى حاجة لان يثنيها أو يلحقها بأخرى ، ونفق تحته جوادان حتى لقد قيل انه ما رؤى قط مثل هذا الشاب أو واحد فى مثل سنه الناعم تتم على يده مثل هذه البطولات الرائعة .

ولقد تسارع الى نجدته من جيشنا حشد كثيف من الفرسان الأشاوس الذين لا يدرك شأوهم ولا يشق لهم غبار ، ولم يقدر لواحد من هؤلاء الفرسان أن يجرى عليه القتل يومذاك ، ولكن جرى ذلك على الترك الذين حاقت بهم الهزيمة وتجرعوا غصصها فتفرقوا فى شتى النواحى ، وانطلق رجالنا يقصونهم لمسافة طويلة حتى اذا أنهكهم التعب عادوا سالمين الى الجيش .

ف ٣٤

المتاعب التى كابدها رجالنا من جراء الأمطار والزوابع وغارات العدو أثناء سفرهم من بيت نوبة الى القدس

تراءى الى سمع صلاح الدين حينذاك أن رجالنا يتأهبون للاغارة على المدينة الطاهرة ولم يعد يفصلهم عن جنده أكثر من ميلين ، ولما لم يكن يرى السلامة فى محاربة المسيحيين فقد أمر بتسوية أبراج « النطرون » وأسوارها بالأرض ، فلما فرغ من ذلك انطلق منها الى القدس (وكان ذلك يوم الثانى عشر من شهر ديسمبر) .

كذلك غادر الترك السهول الى شعاب الجبال .

ولما أخذ الجيش فى الانسحاب نادى المنادى فى جيشنا بالتأهب للزحف الى سفوح الجبال ، فلما تم ترتيب كل شىء وانقسم الجيش الى كتائب زحفوا فى أحسن نظام واكمل ترتيب حتى بلغوا موضعا يسمونه « بيت نوبة » (٣٥) ، وهنا هطلت الأمطار الغزيرة علينا وهبت العواصف الهوجاء ، التى لم تر العين لشدتها مثيلا من قبل والتى نفق بسببها عدد ضخم مما معنا من دواب النقل ، وصحب هذه الأمطار الغزيرة المزمجرة سقوط البرد الكثير وهبوب الرياح التى راحت تضرب فى عنف وشدة حظائر الخنازير وقذفت بها الى مسافات بعيدة ، ونفقت الخيل بسبب البرودة القاسية والرطوبة القارصة ، وفسد الكثير من الأزودة من الفطائر التى تعفنت من الرطوبة ، كما فسد لحم الخنزير المسمى « بالبيكون » ، وصدأت معظم الزرديات والدروع ولم يعد فى قدرة أحد اعادتها الى سابق

رونقها ولمعانها الا بعد صقلها صقلا تطلب جهدا كبيرا ، وفسدت الأقمشة والثياب ، وانتشر الضعف بين الكثيرين الذين أهلكهم ما صحب هذا الضعف من الوباء الذى استفحل حتى لم تعد الناحية ملائمة للحياة ، ولا الأحوال الطبيعية مناسبة . ولم يتبق لدى الناس غير راحة واحدة هى ما انطوت عليه صدورهم من أمل يهدهدها الا وهو أنهم زائرون فى القريب العاجل قبر السيد اذ كان يخالجهم شوق ملح لا يوصف فى أن يطالعوا مدينة القدس ويتموا عدة حجهم .

وأعد كل فرد من الطعام ما يكفيه زمن الحصار ، ولكم وددت لو قد تسنى لك أن ترى الناس وهم ينثالون زرافات من كل صوب وحدب ... اذن لرأيت وجوها علاها البشر وغمرتها الفرحة ، وتقبل أصحابها كل ما نزل بهم بنفس راضية .

فأما الذين سقطوا مرضى فى يافا فقد حملوهم الى المعسكرات فى الحشايا والمحفات وكلهم أمل فى الذهاب الى القدس ، وترتب على ذلك وفود جموع غفيرة من شتى بقاع الأرض يراودها الأمل فى زيارة القبر المقدس مع الجيش . ولقد كان هذا الأمل وحده هو الذى تغلب على كل متاعبهم .

وبينما كان المرضى يحملون حملا اندفع الترك عليهم يفتكون بهم وبمن يحملونهم لأنهم كانوا يؤمنون بأنه لا ينبغى أبدا أن يبقى واحد من أعدائهم حيا على ظهر البسيطة .

فماذا نستطيع أن نقول أكثر من هذا ؟

انما نقول ما قيل من قبل « ان الرجل الصالح اذا مات فى غير وقته فسيكون فى راحة » (٣٦) .

ومن ثم فان الذين تحملوا هذا العـذاب فى هذا السبيل جديرون بأن يدرجوا فى سلك الشهداء ، وعلى الرغم من أن أعداءهم كانوا يريدون السوء بهم حين أروهم الموت رأى العين الا ان الخير كان فى هذا الموت فانهـم « قد صـاروا فى زمن قصير الى اكمال حسناتهم (٣٧) .

ف ٣٥

الناس يعدون أسلحتهم وتملوهم الغبطة بالحج الى القـدس . الداويـة والحكماء العـاقلون ينصحون بعدم السفر الى القدس ولكن لا يصغى أحـد الى نصيحتهم .

عمت الفرحة كل العسكر لأنهم أصبحوا يأملون فى الوصول وشيكا الى ضريح السيد الذى طال شوقهم اليه ، فشرعوا ينظفون مغافرهم حتى لا يعلوها الصدأ ، ولفوها بالقماش حتى لا يذهب بريقها بسبب الرطوبة ، وجففوا أطراف سيوفهم الحادة بالخرق حتى لا تطفىء البرودة لمعانها .

ترى لماذا أعدد كل شيء !!

لقد أسرع كل فرد الى الخروج فى هذه الرحلة ، وتغلبوا على كل ما يعوقهم أو يفسد سفرهم ، وتطلعوا بنفوس مستبشرة للوفاء بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى اتمام حجهم ، رضى المسلمون أم كرهـوا .

على أن أهل الحجا والرأى الثـاقب منهم خالفوا العـامة فى رغباتها الطائشة ولم يجاروها فيما ذهبت اليه وذلك حين نهض

الداوية والاسبتارية والبولان (٣٨) Poulins من مواطنى هذه البلاد الذين كانت الرؤية عندهم أصح فيما ينبغى عمله اذ تقدموا الى الملك ريتشارد ينصحونه الا يذهب الى القدس فى ظل الظروف الحاضرة ، وكانت حجتهم فى ذلك ما قالوه للملك ما يلى :

أولا : هب أنهم حاصروا المدينة وكرسوا كل جهدهم لمهاجمة صلاح الدين والمحاصرين فيما فان الجيش التركى المرابط خارجها وفى الجبـال القريبـة منها لابد وأن يشن هجمات فجائيـة على المهاجمين الذين يواجهون حينذاك معـركة تنطوى على خطر جسيم اذ يصبحون مهددين ، من ناحية بخطر القوات الخارجية ومن ناحية أخرى بالمحاربين الذين يندفعون عليهم من المدينة .

ثانيا : هب ان كل شيء سار وفق ما يشتهون وانهم استولوا على مدينة القدس وعدوا ذلك الاستيلاء فى صالحهم فلابد لهم من أن يكلوا حراسة المدينة الى أقوى الرجال وأشدهم بأسا ، الا ان ذلك الأمر – حسبما أكدوا للملك – لن يكون من السهولة بمكان لا سيما وانهم يدركون أن العامة كانت فى أشد اللهفة لاكمال حجها ثم الرجوع الى ديارها دون ابطاء أو تمهل ، لأنها قد ملت مشـاق السفر وسئمت متاعبه .

حين فرغوا من عرض هذه الأمور جميعها على الملك أشـاروا بوجوب تأخير الزحف حتى يتمكنوا من المحافظة على سلامة قواتهم الحربية وسلامة القوات الشعبية اذ يجب أن يبقى هذان الجانبـان سليمين طالما لم يفرغوا بعد من الحج الذى لن يكاد العسكر يفرغون منه ومن الوفاء به حتى تتفرق جموعهـم وتذهب كل جمـاعة الى ديـارها .

وعلى الرغم من كل هذا الذى بينوه الا أن أحدا لم يأخذ به ولم يستوعب أحدهم مدى الصدق فى نصحهم .

فى خلال الرحلة المشار اليها الى القدس تربص الملك وقومه لبعض الترك فى « يازور » وقتلوهم

بدأ العام الجديد أعنى عام ١١٩٢ م من مولد سيدنا ، وكانت سنة كبيسة هى الأخرى ٠ وفى اليوم الثالث بعد ختان السيد ، (أعنى يوم الثـالث من شهر ينـاير) كان جيشنا يقوم بعمل الاستعدادات اللازمة الدقيقة للزحف ، ففى الليلة السالفة قام قطيع من الترك الغلاظ القلوب بالاستخفاء فى الأحراج المجاورة لبلدة « يازور » (٣٩) لمراقبة الطريق الذى كان من المفروض أن يمر به جيشنا فلما أطل الفجر انطلقوا من مكمنهم وانقضوا على أول رجلين مسلحين من رجالنا راوهما فى هذا الصباح الباكر وقتلوهما فى الحال ، وكان قد نمى الى علم الملك ريتشارد منذ وقت مبكر نبأ هذا الكمين التركى مما دعاه لأن يظل هو الآخر مقيما قرب الكمين ليلته هذه فى « يازور » متربصـا للعدو ٠ فلما كان الصـباح علم بهجومهم فأسرع بالزحف عليهم يراوده الأمل فى أن يتمكن من انقاذ الرجلين المقاتلين من أيدى عدوهما قبل ان يفتك هذا العدو بهما ، ولكن كان السيف قد سبق العدل فقد أتم الخصم اجهازه عليهما ٠

لاذ الترك بالفرار السريع حين تبينوا علم الملك ريتشـارد مرفرفا ، فأدركوا أن الملك قادم عليهم وكان عددهم يقرب من مائة تركى ، فجد الملك فى مطاردة بعضهم ففروا منه الى الجبال ، غير انه لحق بسبعة منهم تركهم ما بين قتيل أذاقه الردى وأسير ساقه الى معسـكره ، كما فر ثمـانون تركيـا غيرهم الى « مجـدل يابا » وحينذاك امتطى الملك « ريتشارد » صهوة جواده القبرصى الكميت

وانطلق سريعا فالتحم بالترك ونجح فى اطاحة رقبتى اثنين منهم فسقطا من فوق جواديهما قبل أن يتمكن رفاقهما من الامساك بهما ، ولم يكن ثم ما يجارى هذا الكميت الذى هو عليه فى خفته وسرعته ٠

كان هناك فى هذه اللحظة « جوفرى دى لوزنيان » وفى صحبته آخرون فتمكنوا من قتل وأسر عشرين تركيا ، ولو كانوا قد تتبعوا الآبقين الآخرين وتحملوا مزيدا من التعب لأمكنهم — من غير شك — القبض على أكثرهم ٠

هنا ينتهى الكتـاب الرابع

الكتـــاب الخـــامس

ف ١

بناء على النصيحة التى نقدم بها الداوية والجماعة التى ذكرناها حالا وكانت ضد رغبة العامة توقف رجالنـــا عن الحج الى القدس وركزوا جهودهم على اعادة بناء عسقلان قبل كل شىء

لما كان العـام عام ١١٩٢ م من مولد سـيدنا ، وبعد أيـام قلائل من عيد الغطاس (وهو السادس من يناير) – عقد مجلس تشاور فيه حكماء الشعب واتفقوا على أن يجتمعوا مع أبرز سكان البلاد مرة أخرى ليقرروا أيهما أجدى وأكثر نفعا : أيزحفون على مدينة القدس ويهاجمونها أم يبدلون خطتهم فيتجهون وجهة أخرى كما شرحنا آنفا ؟

فأما الداوية والاسبتارية والبولان (١) الذين ذكرناهم من قبل فقد قدموا أقوى الحجج المدعمة التى تؤيد فكرة الانصراف عن الزحف على القدس ، وبينوا ان الخير كل الخير انما يكون فى صرف جهودهم لاعادة بناء مدينة عسقلان ، وبذلك يشرفون على الترك القادمين من مصر وهم فى طريقهم الى القدس ويكونون محملين

بالأطعمة والأزودة ، وانتهى الأمر أخيرا بالزعماء الى تصويب هذا الرأى ايمانا منهم بأن خير السبل التى يجب عليهم اتباعها والتى تعود بالنفع على المسيحيين هى انقاذ عسقلان من أيدى الترك واعادة ما تهدم منها والاشراف على المسالك حتى لا يعود الترك ينعمون بممر آمن لهم هناك .

الا أن الزعماء لما أفضـوا الى العسكر بما قر عليه قرارهم عارضتهم العامة فى قرارهم هذا الذى أحزنها أبلغ الحزن وأظهرت ما تضطرم به نفوسها من ألم شديد لأن رجالها لم يحققوا ما كانوا يطمعون فيه وما كانوا يؤملونه من زيارة ضريح السيد ، وأعلنوا أنهم فوجئوا بهذا المنع ، وأنه قد استولى عليهم الحزن الذى محى كل أثر لنشوتهم السابقة التى أحسوها حين أقدموا على رحلتهم هذه ، كما ان اليأس الذى ران على نفوسهم واكتنفها قضى على كل أمل كان عندهم من قبل ، فنقموا أشد النقمة على كل من اتخذوا هذا القرار ، وتذمروا من تأخيرهم عن الوفاء بعهدهم الذى قطعوه على أنفسهم وصبوا اللعنات على من وقفوا فى سـبيل ما يشتهون وصدوهم عن زيارة القبر المقدس .

ولو (٢) علم هؤلاء الناس بالوضع السىء الذى يعانيه من يعيشون فى القدس لكانوا أقل تذمرا مما هم عليه الآن ولشعروا بشىء من الراحة والهدوء ، ذلك أن المقيمين فى القدس كانوا فى أشد حالات الضيق من جراء سقوط الثلج والبرد بكميات غزيرة ، وكانت هذه الثلوج اذا ما ذابت تحولت الى مياه غمرتهم ، كما أن السيول المنصبة من قمم الجبال جرفت كثيرا مما فى طريقها من الخلق ، وأهلكت الخيل وحيوانات النقل ، ومات ما سوى ذلك من جراء البرد القارس ، هذا الى جانب ما كان الناس يقاسونه من ندرة الطعام أو قلته عندهم ، فنالهم التعب وأصبحوا خماصا ،

ولو علم عامتنا بهذا الوضع الذى يحياه الترك وكيف أضر بهم الجو العاصف لأدركوا انه من اليسير عليهم أخذ عدوهم باليد وفى غير مشقة ، ولكان الاستيلاء على المدينة بعد ذلك أمرا يسيرا ، أما ان هم أقدموا على السفر الى القدس الآن فلسوف يرحل الحجاج بعد فراغهم من حجهم الى ديارهم ولا يبقى هناك من يستطيع الدفاع عن البلد (٣) .

ف ـ ٢

حزن العامة الفادح وشعورهم بالأسى البالغ لرجوعهم من غير أدائهم حجهم ومضيهم بدلا من ذلك الى الرملة

كان عيد سنت هيلارى على الأبواب [١٣ ينـاير] وكانت الهموم قد أثقلت كاهل أهلنا وأضر بهم الحزن لرجوعهم مع هذه الجموع الزاخرة حتى كاد الكثيرون منهم أن يطرحوا جانبا ملتهم المسيحية ، ولعنوا اليوم الذى خرجوا فيه من بطون أمهاتهم الى هذه الدنيا ، وغمرهم الأسى أن قد ظلوا على قيد الحياة ليقاسوا مرارة هذا الألم . كما أن الكثيـرين منهم قد أوهن المرض قواهم وعضهم الفقر بنابه فصاروا ضعافا لا يكادون أن يكونوا قادرين على العمل وبذل الجهد ، أو حتى حمل الزاد ، كما أن البرد القارس وتساقط الثلوج الغزيرة أضـعفا جيادهم وما لديهم من دواب الحمل ، فتساقطت هذه الحيوانات على الأرض اذ عجزت أرجلها عن حملها ، وكانت اذا مرت بأرض طينية تهالكت بما تحمل من أثقال بسبب الضعف الذى ألم بها لعدم وجود ما يسد جوعها وما تقتات به ، وكان سائقوها يتأففون من ذلك فيلطمونها ويلطمون وجوههم هم أنفسهم بأكفهم ، وتنفرج شفاههم عن كلمات فيها كفر وتجديف حملهم على النطق بها ما هم فيه من شقاء وتعاسة ، ولم يسبق لقوم

ان كابدوا مثل الذى يكابده هؤلاء الآن ، ولا عانوا ما يعانونه فى هذه اللحظة حتى ولو قيس بهم المجرمون الأندال المحكوم عليهم بالاعدام ، ولم يحدث لقوم أن مروا بمثل هذه الظروف القاسية الوطأة التى يمرون هم بها الآن ، ولا ضربتهم شدة كهذه الشدة التى لم تبرحهم حتى لفظ الكثيرون منهم أنفاسهم وفارقوا الحياة .

لقد كانت التعاسة نصيب هؤلاء الشباب المحاربين الذين قاتلوا فأصابوا حظا كبيرا من المجد وطيب الأحدوثة والشهرة ، وذلك بفضل ما خاضوه من معارك خرجوا منها وعلى رؤوسهم أكاليل النصر .

فيالشقاء أولئك الفرسان الذين كثيرا ما صادفتهم أوقات عصيبة فصمدوا لها أحسن الصمود !! لقد أصبح الجميع الآن يكابدون الأسى ويقاسون الضعف المتزايد ويأكلهم اليأس ، وأصبحوا رهن الأمرين من ضعف البنية الجثمانية وغلبة الغم عليهم ، وكان هذا الغم أشد وأذكى من كل شىء سواه .

وكاد الكثيرون من المرضى أن يهلكوا ويلاقوا منيتهم لولا الملك ريتشارد لأنهم عجزوا عن العناية بأنفسهم ولم يجدوا أحدا يرعاهم فى محنتهم هذه ، وحينذاك تحركت الرحمة فى قلبه وأشفق عليهم فوالاهم بعنايته فأنفذ الرسل الى كل ناحية يبحثون عمن داهمهم السقم ومن لحقت بهم علة من العلل ، فجمع بفضل طيبة قلبه كل من كادوا أن يلفظوا أنفاسهم وأمر بهم أن يصحبوه الى « الرملة » التى كان الجيش كله قد ارتد اليها بعد أن كان قد غادرها قبل ذلك بقليل .

فـ ٣

المحن العظمى والحزن الذى أصاب الجيش فيما بين الرملة وعسقلان بسبب أخطار الطريق والجو العاصف ورحيل الفرنسيين وتخليهم عن الجيش

بينما كان الجيش مقيما فى الرملة وقد خيم عليه الحزن الشديد اخذ عدد هائل من أفراده فى التسلل والهروب ، وقد فعلوا ذلك اما نجاة بأنفسهم من مصاعب الرحلة ، واما تحديا من جانب البعض منهم لقاداتهم اعلانا عما فى نفوسهم من المقت والسخط عليهم ، وترتب على هذا التسلل أن قل عدد العسكر قلة ملموسة وتضال جمعهم تضاؤلا لم يعد خافيا على أحد ، كذلك فارقه معظم الفرنسيين غضبا منهم لسير الأمور عكس ما يشتهون ، وآثروا البقاء فى يافا منصرفين الى اللهو يصرفون فيه أوقاتهم ، كما عاد بعضهم الى عكا حيث الطعام الوفير ، بل ان بعضهم يمم وجهه نحو « صور » للانضمام الى المركيز الذى كان يشجعهم على هذا العمل ويحثهم على نهج هذا السلوك ويشجعهم تشجيعا كبيرا . كما أن فريقا من المتسللين أرادوا اظهار ما تنطوى عليه نفوسهم من غضب وازدراء لبقية الجيش فرحلوا مع « دوق برجنديا » الى « يازور » فأقاموا بها ثمانية أيام سويا .

وأسخط هذا الموقف الذى وقفه هذا الفريق الملك ريتشارد وأحفظه فخرج قاصدا « يبنى » مع ابن أخيه « هنرى » كونت شمبانيا ومع بقية الجيش الذى قد حجمه وتضاءل عدده الى حد بعيد ، فوجدوا الطريق أمامهم مليئا بالطين والقاذورات مما جعلهم – وقد حان وقت نومهم – فى أشد حالات التعب الذى لم يكونوا معه فى حاجة الا لشىء ولو قليل من الراحة بعد هذا الاجهاد ، وأمضى الجيش

بقية ليلته هذه فى « يبنى » يتناهبه الغم ويمضه الانهاك مما بذل من جهد ، ولا يستطيع أى قلم أو لسان أن يصف ما كان عليه العسكر من نصب وبؤس ، فلما طلع الصباح مضى فى المقدمة الذين كان موكولا اليهم نصب الخيام ، وأخذ الجيش فى التقدم الى الأمام تحت حراسة مسلحة . وانه لمن المستحيل أن نصف أهوال رحلة اليوم الغابر ، وكيف تضاعفت عن ذى قبل وزادت عما كانت عليه ، ذلك أن البرد والثلج المتساقطين أخذا يلسعان وجوههم زيادة عما هم فيه من الانهاك التام والسأم الملل ، وهطل المطر عليهم من السماء التى صارت كأنها الميازيب قد انفتحت فصبته حتى لكأنها أبت الا ان تساهم هى الأخرى فما فيه هلاكهم . كما استحالت الأرض الى بركة من الطين الذى كانت تغوص فيه أقدامهم مما أدى الى وقوع سائقى العربات والجياد والناس فى مستنقع الطين ، وكانوا اذا خرجوا بعد جهد جهيد من حفرة سقطوا فى أخرى أشد منها خطورة ، وعزت النجاة على كثيرين ممن ترددوا فى هذا الوحل .

ترى من ذا الذى يستطيع أن يصف مرارة ذلك اليوم ؟ .

ومن ذا الذى يقدر على أن يخبر بوقع هول ذلك اليوم المنكر ، أو يلم بشقوة أولئك التعساء شقوة تمثلت فى أنينهم وبكائهم !!

ان أشد الوجوه صرامة قد أغرقتها الدموع المنسكبة كأنها المطر .

لقد سئموا الحياة وكرهوا العيش فتبلدت أحاسيسهم من هول ما لاقوا من التعب ، وأبصروا دوابهم المعدة لحمل المتاع تتساقط حولهم وقد نفقت ، وشاهدوا الطعام الذى يحملونه قد جرفته المياه الهادرة أو سقط فى الطين .

لقد بلغ نصبهم والأهوال التى حاقت بهم والانهاك الذى ألم بهم مبلغا أفضى بهم الى أن يلعنوا اليوم الذى ولدتهم فيه أمهاتهم ، وكثيرا ما راحوا يلطمون خدودهم حتى انتهى بهم السير الى مدينة « عسقلان » فوجدوها خرابا وقاعا صفصفا ، وأطلالا تنعى من بناها ووجدوا المسلمين قد سووها بالأرض حتى لقد لاقوا هم أنفسهم أشد الصعوبة فى دخولها عبر أبوابها التى بلغوها بعد ان اعتلوا أكواما من الأحجار المتراكمة ، وكان هذا يوم العشرين من يناير .

وانطلق كل فرد هذه الليلة حرا يفعل ما يشاء أن يفعل تبعاً لقدراته .

. . . .

ف ــ ٤

مرة أخرى يلاقى الجيش الأمرين من الجو العاصف ونقص الطعام

تشرف مدينة عسقلان على بحر الروم وهى ذات موقع فريد ، يمكن الدفاع منه ضد أى مغير عليها ، هذا الى جانب ان المدينة ذاتها كانت أزهى من أية مدينة أخرى لولا ان ميناءها غير صالح لرسو السفن ، وكان هذا الميناء فيه كثير من الخطورة على المراكب التى اذا دخلته لم تسلم من أن تجنح اذ تتلاعب بها أمواج البحر التى لا تهدأ أبدا عن الصخب والهدير .

ولقد بلغ الجيش عسقلان فى وقت كان الجو فيه غير ملائم ، ولم تجرؤ السفن التى تنقل الأزودة على الذهاب الى عسقلان بما حملت ، فظلت بعيدة ثمانية أيام موصولة ضربت فيها المجاعة القاسية الجيش ، وقل ما عنده من المئونة قلة ملحوظة ، وظل الناس والدواب طول هذه الأيام الثمانية لا يتناولون سوى التافه الذى جلبوه

معهم ، ولم يكن الخروج للبحث عن الطعام أمرا مأمونا بسبب الكمائن التركية المتناثرة فى الناحية .

فلما هدأ الجو فى النهاية استطاعت بعض السفن التى تحمل الطعام الدخول ، لكن سرعان ما عادت العاصفة عاتية ، وكانت السفن المعروفة بالبرجية Barges والشوانى التى كان الجيش قد بعث بها فى طلب الطعام قد جنحت فتحطمت فغرقت بفعل العواصف ، وغرق معظم من كانوا بها من الرجال ، كما تحطمت مراكب الملك المعروفة باسم البطسات ومراكب غيره ، وحينذاك استغل الملك حطامها وبنى مراكبه الطويلة التى عزم على أن يعبر بها البحر (٤) ، لكن لم يقدر له ما كان فى نيته وعزمه .

ف ـ ٥

حين يسمع صلاح الدين برجوع جيشنا وتفرقة يرد امراءه وعسكره الى بلادهم حتى شهر مايو

حين سمع صلاح الدين خبر تفرق رجالنا على الساحل وهلاك جزء من عسكرنا أذن لجميع أمراء جيشه برجوع كل واحد منهم الى داره ووطنه بمن معه من الجند حتى يلتفتوا الى ما فاتهم من مهام أسرية ، وأعلمهم أنهم أحرار حتى شهر مايو وهو الشهر الملائم للقتال ، فلما سمع بهذا من معه من الترك الذين ظلوا يقاتلون تحت رايته قتالا ضاريا لمدة أربع سنوات موصولة مضوا فى فرحة الى ما خلفوه فى بلادهم من القلاع والحصون ليتملوا رؤية عائلاتهم التى طالت أشواقهم اليها .

لقد كان كثير من الأمراء وأصحاب المراتب الكبيرة وسادة الجيش يسترجعون فى أذهانهم ذكرى الحملة المنكوبة ، وكانوا كأنهم قوم أصابتهم ضربة أذهلتهم ، اذ اعتادوا فى الماضى أن يرجعوا فى أغلب الأحيان من كل معركة من معاركهم على وجه التقريب وعلى رؤوسهم أكاليل النصر لما يكونون قد أنزلوه بخصومهم من الهزائم ثم اذا ما فرغوا من ذلك وعادوا الى آلهم عادوا اليهم وأيديهم مثقلة بما غنموا ، أما اليوم فها هم ذا يعودون دون أن يكونوا قد أحرزوا من النصر شيئا فى طول سفرهم هذا ، أضف الى ذلك أنه مما زاد الطين بلة والأمر سوءا أنهم فقدوا عددا كبيرا من ذوى قرباهم فى القتال الذى جرى وخسروا خسائر مالية فادحة ، ثم هيهات أن يجدوا العزاء عمن هلك من أمرائهم وعظمائهم الذين عجز صلاح الدين عن افتدائهم من الأسر ، حتى لرقد أمر الملك ريتشارد باطاحة رقابهم فى عكا كما قلنا آنفا .

من أجل هذا كله أحسوا بالمقت الشديد والكراهية لصلاح الدين .

على هذه الصورة دخل جيش صلاح الدين فقابله الناس

ف ـ ٦

الملك ريتشارد يغرى الكثيرين من الفرنسيين الذين تركوا الجيش بالعودة اليه واعادة تشييد عسقلان بالرضاء التام

كان شهر يناير قد أوشك على الانتهاء وأخذ الجو فى الاعتدال والتحسن ، واذ كان الملك كاسف البال لتفرق الجيش فقد بعث الرسل من ناحيته الى الفرنسيين يدعوهم للرجوع الى المعسكر فى عسقلان حتى يزداد عدد الجيش ويقوى بهم ساعده ويشتد ترابط

رجاله بعضهم ببعض ، وحينذاك يستطيعون أن يقرروا ما هى أجدى السبل التى عليهم أن يسلكوها ويتفقوا على خير ما يمكن ان يفعلوه .

وقال فى ذلك : « ان أجدى الأمور نفعا ان يكون الجيش كله حاضرا حتى نتمكن من أن نناقش فيما بيننا جميع هذه الأمور فى ترو وعقلانية والا لو دبت الفرقة بيننا وتوزعنا شيعا — لا قدر الله — فقد حاق بنا الخطر وفقدنا ما نحن فى حاجة ماسة اليه ألا هو التعاون المشترك ، وحينذاك نقع فى مآزق حرجة ونصبح فريسة لأعدائنا الخونة » .

ورد الفرنســـيون على الملك أنهم على أتم استعداد لتنفيذ تعليماته شريطة أن يؤجل ذلك الى ما بعد عيد الفصح ، لكن أن آثر بعضهم الخروج قبله كانت لهم الحرية فيما آثروه ، لا يعارضهم فى ذلك معارض ، أو يتدخل أحد فى ارادة أحد ، وأن يأذن الملك ويشارد لهم بالرحيل ويزودهم بمن يصحبهم للقيام بحراستهم ، ورأى الملك أن الظروف فى الوقت الحاضر ، وفى هذه اللحظة بالذات ترغمه على موافقتهم . فوافقهم مكرها . فلما تم الاتفاق على هذه الشروط عاد الفرنسيون [الى الجيش] واتحدت كتائبه كلها معا .

كان الأمر الذى اتفقوا عليه جميعا هو وجوب ترميم أسوار عسقلان واعادة بناء المدينة على الرغم مما صار اليه الزعماء ومعظم الناس من فقر مدقع لم يترك لديهم ولا معهم من المال الا النزر اليسير الذى لا يكاد يفى بما هم فى حاجة اليه من ضرورات الحياة ، الا أن ذلك لم يحل بينهم وبين الشروع فى العمل ، وساهم كل واحد منهم بقدر ما أمكنه وما توفر لديه من مال ، ومضوا ينقلون آكواما من الحجارة وحفروا حفرا عميقة بحثا عن أساس احدى البوابات الكبرى حتى ضربت معاولهم الحفر فأصابت بناء من الحجر الصلد .

لقد كنت تراهم فى هذا اليوم يعملون معا يدا واحدة ، وكنت ترى الزعماء والأشراف والفرسان والســـادة والمحاربين يعملون جميعا فى نقل الحجارة والصخور ويتقاذفونها فيما بينهم فتنتقل من يد هذا الى يد ذاك الى غيره وهلم جرا ، ولم يكن ثم فارق يومذاك بين رجل الدين والعلمانى ، أو بين الشريف والعـــامى ، أو بين الخادم والأمير ، فالكل سواسية يعملون جنبا الى جنب فى عمل واحد مشترك ، ومن ثم أنجزوا فى وقت قصير قدرا كبيرا من العمل ، فظهر التأثر على محيا العمال بما أنجزوه .

لقد قيل « اذا وجد البناؤون وأقبلوا على العمل قام البناء شـاهقا ، وسرعان ما قامت الأســوار ، وكان فى عسقلان كثير من الأبراج التى كانت قد سويت بالأرض تماما لكن صار بها الآن ثلاثة وخمسون برجا أطول وأقوى من التى كانت بها من قبل ، وقام غيرها الى جانبها وان لم تساوها طولا ، وقد سميت خمسة من هذه الأبراج بأسماء بناتها .

تقول الأخبــار القديمــة ويذكر شهود العيان فيما سلف من الزمان أن أولاد نوح الشهير وأقواهم كان يدعى بخام ، وانه أنجب اثنين وثلاثين ولدا تناوبوا الحكم من بعده وأسسوا مدينة عسقلان ، وتحكى الأخبار عنهم أنهم حين رغبوا فى اتمام بناء المدينة التى شرعوا فى تشييدها استعانوا بناس من كل أنحاء بلادهم ، ويقال ان البرج المسمى الآن ببرج العذارى انما شيدته بنات أردن أن يذهبن فى الدنيا بالحب والشهرة الخالدة .

كذلك أقام الفرسان برجا آخر عرف ببرج « الدروع » . أما البرج المسمى ببرج « الدم » فمنسوب الى بعض أهل الجرائم الذين كلفوا ببنائه جزاء ما اقتروه من الجرائم والآثام ، ومن ثم عرف

بهذا الاسم أو بالبرج الدموى لأنه يقال انهم افتدوا أنفسهم وصانوا دماءهم من ان تراق فشيدوه ·

اما رابع هذه الأبراج فيعرف ببرج الأمراء اذ يزعم الناس أن الأمراء هم الذين بنوه · وأما الخامس فيعرف ببرج البدو نسبة الى بناته الذين كانوا من هذه الجماعة ·

هذا ما يقال من أن هذه الأبراج قد بنيت على أيدى هؤلاء الناس ، فنسب كل برج الى من اضطلعوا بتشييده ، ومن ثم كانت هذه الأسماء أسماء لتلك الأبراج ·

سرعان ما قام البناء شامخا بعد أن جلبوا له البناة والفعلة المهرة ، وساهم الملك ريتشارد بدور بارز فى هذا العمل فلم يترك ناحية الا وشارك فى بنائها ، وكان يعمل فى البناء بيده فكان هذا العمل من جانبه حاملا الآخرين على الاقتداء به ، كما أنه بتوزيعه الأموال ساعد الفعلة على مضاعفة الجهد ، وأدى تشجيعه الى قيام كل زعيم ، من الزعماء وكل كبير من أكابر الناس بتحمل نصيبه فى اتمام جزء من البناء ، كل حسب ما يملك من مال ، وكان اذا توقف أحدهم عن العمل لنقص فى المال الذى فى يده سارع الملك الوقاد الذهن والذى كان قلبه أكبر من مكانته فبسط يمناه من ماله الخاص على من توقف ، وأمده بكل ما يحتاجه هو وسواه ، ومن ثم سار العمل فى التشييد سيرا حثيثا · وتم على وجه السرعة حسب ما أشار وبناء على ما دفعه لهم : وكانت هذه المبالغ من ماله ، حتى لقد صار الناس يقولون انه صاحب الفضل والمسئولية فى اتمام ثلاثة أرباع المدينة ·

الملك ريتشارد ينقذ من أيدى الترك فى الداروم ألفا ومائتى أسير ممن كانوا أسروهم وكانوا فى الطريق بهم الى مصر

كان صلاح الدين قد أعد عدته فى هذه الأثناء لاسترداد ألف ومائتى أسير مسيحى فرنسى ومن مواطنى هذا القطر كانوا فى الطريق الى مصر قد ساقهم أتباع صلاح الدين حتى بلغوا بهم موضعا يعرف بقلعة « الداروم » فأقاموا ليلتهم فى تلك الناحية على نية متابعة السير بهم فى الغد ، ولكن شاءت ارادة الرب وتدبيره أن يتم انقاذهم من الأسر على يد الملك ريتشارد ·

لقد حدث أن كان الملك خارجا ـ كدأبه ـ فى ذلك اليوم على رأس قوة من فرسانه الأشاوس المختارين ليشاهد قلعة الداروم ويتدبر أمر الاستيلاء عليها اذ كانت طريقا آمنا للترك ينقلون عبره الذخيرة والامدادات والأزودة ما بين مصر والقدس · وكان العدو قد بلغ الداروم والشمس موشكة على الأفول ، فلما أدركوا بيرقه ـ وقد صار على مقربة منهم ـ عرفوا أن صاحبه قادم عليهم فدب الفزع فى أوصالهم وتولاهم الخوف وخشوا الهلاك واندفعوا الى البرج الرئيسى يلتمسون ملجأ لأنفسهم لكنهم تركوا خارجه من كانوا معهم من أسراهم الذين بادروا الى الهروب الى كنيسة من الكنائس لجوها على مقربة منهم ، فلما جاءهم الملك أطلقهم وفك أسرهم جميعا ، فخرجوا سالمين لم يصبهم أذى ولم يمسسهم ضر ، ثم عمد الملك الى جماعة من الترك الذين وقعوا فى يده وأيدى من معه فقتلهم شر قتله ، وأصاب غنيمة كبيرة من الخيول الغالية وساق

أمامه عشرين تركيا أخذهم معه أحياء وكانوا من أكابر قومهم ، هذا الى جانب من أهلكهم اذ أعمل السيف فيهم .

ترى من ذا الذى يخالجه شك فى أن الرب هو الذى جعل الملك يصل الى هذه الناحية فقد كان وصوله ضرورة لا محيص منها من أجل خلاص هؤلاء الأسرى . فلو انه لم يصل الى ذلك الموضع هو ومن معه لكان الرق مصير جميع من استخلصهم الملك من يد العـدو ، ولأصبحوا فى ربقة الأسر الذى لم يكن لهم خلاص منه أبدا .

ف ـ ٨

الملك ريتشارد يرسل الى المركيز يسأله الحضور فيرفض .

بعد أن فرغ الملك ريتشارد من هذه الأحداث فعل مثل الذى فعله من قبل مرارا عدة وأعنى به أنه بعث رسـلا من قبله الى المركيز (٥) يسأله الحضور لينضم الى الجيش الموجود فى عسقلان ، وان يكون حريصا على الوفاء بالتزاماته تجاه المملكة (٦) التى يتطلع اليها ، كما أمره بتنفيذ هذا الطلب وفاء بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه لملك فرنسا ، الا أن هذا المركيز الفاسد رفض سؤال الملك ريتشارد ورد عليه ردا ملؤه السخرية من هذا الأمر الرسمى وتمسك بأنه لن يستجيب له قط ما لم يعقد الملك ريتشارد اجتماعا معه ، والا فلن ينقل قدما فيذهب الى الجيش ولن يستطيع أحد زحزحته قيد أنملة عما يراه .

لذلك اتفقـا على أن يجتمعا فيما بعد فى « الزيب » (٧) لمناقشة الأمر .

ف ـ ٩

دوق برجنديا الذى كان الملك ريتشارد استدعاه الى عسقلان يغادره الى عكا لعدم رغبة الملك فى امداده من المال ما يكون عارية

بينما كان الملك وبقية الناس يبذلون قصارى جهدهم لاعادة أسوار عسقلان الى ما كانت عليه من قبل اذا بنزاع يشب بين الملك وبين دوق برجنبديا الذى دفعته اليه غيرته من الملك ، فقد تناقصت الأزودة عند الناس وقل ما بيدهم من الأموال وآلت الى نفاد ، وحينذاك شرع الفرنسيون يلحون على الدوق يطالبونه بأجورهم التى لا تزال لهم فى ذمته ، وقالوا انهم لم يعودوا قادرين على العمل فى المعسكر دون أن يتسلموها ، وبذلك وضعوا الدوق بين المطرقة والسندان ولم يكن معـه من المال ما يكفى نفقتهم ، لكنـه تصور أن الملك ريتشارد لابد وأن يقبل امداده بالمال على سبيل العارية اضافة الى ما كان قد سبق منه من امداده الفرنسيين بعكا بالمال اللازم الذى سألوه اياه على لسان الدوق كما ذكرنا ذلك آنفا ، على أن يسدد دوق برجنديا هذا القرض من مبلغ الفدية الذى سوف يدفعه الأتراك عمن وقع منهم فى الأسر فى عكا ، ولم يكن الدوق قد استطاع سداد الدين الأول بسبب عدم دفع شىء من الفدية ، ولم يكن عندهم سوى الأسرى ، ومن ثم رفض الملك ريتشـارد الاستجابة لطلب الدوق .

وكان هذا الموقف وأمور أخـرى مواضع نزاع آثارها الدوق قد حملت الأخير على الرحيل وهو غاضب موغر الصدر ، وعلى الرغم من عدم قدرة الدوق على دفع ما لرجاله الفرنسيين عنده من الأجر الا انهم رافقوه فى خروجه وأسرعوا معه فى الذهاب الى عكا .

القتال فى عكا بين البيازنة أعوان الملك «جى» وبين الجنوية انصار المركيز والفرنسيين . القاء البيازنة بدوق برجنديا من فوق جواده وهروبه مع المركيز الى صور وارسالهم فى طلب الملك ريتشارد الذى يعقد الصلح بينهم

ولما ذهبوا الى عكا وجدوا أن قد شب نزاع حاد بين الجنوية والبيازنة الذين دفعتهم شهامتهم الكبيرة ومراعاتهم الحق أكثر من كل ما سواه الى الوقوف الى جانب الملك «جى دى لوزنيان» وتأييده، على حين انتصر الجنوية للمركيز لاسيما وأن فى عنق الأخير عهد ولاء قطعه على نفسه لملك فرنسا .

كان هذا هو السبب الذى أفضى الى وقــوع الشــقاق بين الجانبين وهو شقاق أسفر فى خاتمته عن اراقة الدماء ومهاجمة كل فريق للآخر فنجم عن ذلك حرب أهلية وفتنة فى عكا ، ووقعت الاضطرابات فى كل ناحية من المدينة التى عمتها الفوضى .

وبينما كان الفرنسيون يقتربون من المدينة اذا بضجة عالية تصك أسماعهم ، وأصوات الأهالى يدعو بعضهم بعضا للخروج الى القتال ، وسرعان ما حمل الفرنسيون سلاحهم ، وتقدموا مشهرين سيوفهم لمساعدة الجنوية الذين ما أن رأوهم حتى زاد عنادهم وتعاليهم ، فلما عرف البيازنة انهم أصبحوا هدفا للهجوم غضبوا

وسخطوا وخرجوا لصدهم ، واذ عرف خصومهم أنهم جاؤوا يريدون قتالهم أجابوهم لمثل ما جـاؤهم من أجله ، وركزوا هجومهـم على دوق برجنديا فكروا عليه كرة صدق وأحاطوا به وطرحوه أرضا من فوق حصانه وأصابته طعنة من حربة ، ثم ارتدوا الى المدينة وأحكموا غلق أبوابها وحصنوها حتى أصبحت قادرة على صد أى هجوم آخر قد يشن عليها ، وكان قد تبين للبيازنة أن الجنوية سبق وأن أخبروا المركيز بوجوب المبادرة الى الحضور لأخذ مدينة عكا لأنهم أخذوا العهد على أنفسهم أن يسلموها له .

على أن البيازنة أخذوا حذرهم من مثل هذه المكيدة واستعدوا لدرأ مثل هذه المحاولة من جانب الجنوية واحباطها ، مستهدفين من وراء ذلك حماية أنفسهم والدفاع فى الوقت ذاته عن البلد .

سرعان ما قدم المركيز فى سفنه على رأس قوة ضخمة مسلحة ، وقد راوده الأمل فى مباغتة المدينة والاستيلاء عليها على غرة منها ، الا أن البيازنة تأهبوا لمنعه والوقوف فى وجهــه مستعملين آلات رمى الحجارة والمجانيق وظلوا يقاومون الهجمات التى شنت عليهم على مدى ثلاثة أيام معتمدين على بأسهم ، فقاتلوا قتال الأبطال وراح كل يبارى الآخر فى اظهار بأسه حتى قام البيازنة فأخبروا الملك ريتشارد بما هو جار وطلبوا منه الاسراع فى الحضور اليهم .

كان الملك فى هــذه اللحظة فى « قيصرية » فى طريقه الى الاجتماع المتفق عليه بينه وبين المركيز لاجراء الحوار بينهما .

ووفد رسل البيازنة على الملك ريتشارد وشرحوا له ما وصلت اليه الأمور من خطورة ، وما صار عليه الوضع من سوء ، وسألوه نيابة عن البيازنة أن ينهض سريعا لانقاذ عكا التى عادوا اليها بعد ابلاغهم

الملك الرسالة التى وكل اليهم ابلاغها له ، وكانت عودتهم الى البلد وقد أرخى الليل سدوله .

على أن المركيز ما كاد يعلم أن الملك ريتشـــارد على وشـك الحضور حتى ارتد سريعا على عقبيه الى صور دون أن يضيع لحظة واحدة ، فقد أزعجه حضور الملك لادراكه فداحة الخطأ الذى اقترفه .

كذلك مضى دوق برجنديا على رأس طائفته الفرنســـية الى صـــور .

أما الملك فقد وصل الى عكا غداة أربعاء الصوم الكبير أعنى يوم ٢٠ فبراير ١١٩٢ م وعلم بالفوضى التى ضربت البلد بأجرانها وما هى فيه من عدم انتظام الأمور ، فلما كان اليوم التالى أخذ مقاليد جميع الأمور فى يده وتحمل هو المسئولية اذ أصبح هو الآن الشخص الوحيد الباقى الموجود فى الاقليم ، القادر على فعل هذا العمل ، ثم جمع الناس وخطبهم خطبة اقتنعوا منها بما قاله ، كما ضمنها الحجج القاطعة التى لا تحتمل جدلا فقال :

« ليس هناك من شىء يكون أعظم اعتبارا بين الشركاء من الصداقة ، وليس ما هو أطيب من الزمالة ، ولا أحسن وقعا من الوفاق ، كما أنه ليس ثم ما هو أخطر من التحاســـد المؤدى الى التهلكة ، وليس هناك ما هو أنكى وأضر من تفرق الرأى والتباغض وشجب السلام ، ولا أدعى الى الشر من تدنيس التحالف القائم على المحبة ... وأن ما أقامه الحب المتبادل ، وما ساهمت الصداقة فى دعمه لا يمكن فضه الا بالحسد » .

واستطاع الملك بهذه الكلمات أن يعيد الجنوية الى ركيزة السلام والى التواد والمصالحة مع البيازنة ، فعاد ما كان بين الطرفين من وفاق الى سابق عهده . وختم بقبلة السلام .

فـ ١١

الملك ريتشـــارد يجتمع مع المركيز فى الزيب ويدعوه للعودة الى القوات المتحدة فلما رفض المركيز هذا التوجيه أمر الملك بمنع ما كان قد وعده به من اقطاع وأرض كما أمر بمنع المال عنه

حين تم السلام بين الأطراف المتنازعة بعث الملك بتعليماته الى المركيز ليحضر اجتماعا فى « الزيب » فان توصـــلا الى نـــوع من الاتفاق بعون الرب أمكنهما المضى قدما ، وأمكن ان تتكلل أعمالهما بالنجاح فى ادارة دفة أمور المملكة ادارة ناجحة تحت سلطانهما المشترك . والتقى الملك بالمركيز ، وجرت بينهما مناقشات طويلة لكنها لم تسفر عما كان يرتجى من هذا اللقاء ، وكان السبب فى ذلك راجعا الى محاولة المركيز المراوغة والتنصل من أى ارتباط جدى بالجيش ، وتعلل برحيل دوق برجنديا والفرنسيين ، ومن ثم ترك المركيز المعسكر الحربى وعاد الى صور مكرسا نفســـه للاستمتاع بفراش الزوجية ،ومتعللا بغياب الفرنسيين وجاعلا هذا الغياب مبررا لموقفه هذا .

ورأى الملك ريتشـــارد أن امتنـــاع دوق برجنديا والمركيز والفرنسيين من تلقاء أنفسهم من الانضمام الى الجيش أدعى لاعتبار شروط اتفاقهم مشجوبة وغير ذات موضوع ، الا أنه ظل مع ذلك أمدا غير قصير لا يدرى أى طريق فيه الخير يتخذه فى مثـــل هذه الأزمة ، ولذلك عقد اجتماعا سريا تشاور فيه مع أكبر رجال الحملة

وأكثرهم حكمة وأرزنهم عقلا ليقف على ما يرونه أجدى السبل التى يجب عليه سلوكها ·

وصحبهم فى خروجهم ملتمسا منهم ومتوسلا اليهم والدموع تترقرق فى مقلتيه ان يطيلوا مكثهم أكثر مما مكثوه ، وان يكون ذلك على نفقته الخاصة حتى يستطيعوا مد يد العون الى هذا القطر المغلوب على أمره ·

لكنهم رفضوا رجاءه رفضا باتا ·

ومن ثم اذن لهم فى الرواح والعودة الى عسقلان التى أرسل منها فى الحال رسولا غادرها على جناح السرعة الى عكا يحمل تعليماته الى المشرفين على المدينة ألا يسمحوا للفرنسيين بالدخول اليها والاقامة فيها حتى لا تكون هذه الاقامة سببا فى الحاق أى ضرر بالبلد ، أو أن تكون مصدر ازعاج قد يؤدى الى فضيحة أو تنجم عنها أية مشكلة ·

لذلك ما ان وصل الفرنسيون الى عكا حتى وجدوها مغلقة فى وجوهم فاضطروا الى الاقامة خارجها ·

ف ١٥

صلاح الدين يبعث فى استقدام جيشه حين يسمع بانسحاب الفرنسيين فيحضر الجيش

وفى يوم الجمعة الحزينة Good Friday أصبح الجيش فى حالة تمزق تام بسبب رحيل الفرنسيين الذين أدى رحيلهم الى

وصول الأمور الى هوة سحيقة ، اذ انسحب ما يقرب من سبعمائة (٩) فارس كانوا مزودين بخير العتاد والسلاح ، الى جانب ما كانوا عليه هم أنفسهم من صيت ذائع أكسبتهم اياه غزواتهم الباهرة ·

ولقد عم الحزن الناس قاطبة وتقطعت أنفسهم حسرات بسبب رحيل هؤلاء الفرنسيين وما صار اليه الجيش من قلة ملحوظة فى العدد ، وحق لهم أن يبكوا على ما وصلت اليه حالهم ·

حين سمع الترك بما جرى انشرحت صدورهم واغتبطوا أيما غبطة وأخبروا صلاح الدين بما تناهى الى علمهم ، فبادر فى الحال الى ارسال الرسل والسعاة الى جميع رعاياه وأمرائه وزودهم بالكتب التى تتضمن أمره اليهم ان يفرغوا من كل شئ يعوقهم ليجيئوا سراعا الى بلاد القدس ، ولقد جاء فى هذه الكتب قوله اليهم : « لقد دبت الشحناء بين الفرنجة وتحاسدوا فيما بينهم وأصبح البلد بغير مدافع يدافع عنه ، كما انهارت قوة الجيش المسيحى وتضعضع بأسه ، وليس من شك عندى فى أن القطر بأجمعه وكبرى مدنه أعنى عكا وصور قد صار احتلالها أمرا ميسورا ، وانه سوف يتم على وجه السرعة » ·

واستجاب الترك لأمر السلطان فعادوا سراعا كما أمرهم وان كان رجوعهم هذا على غير رغبة منهم لان ذكريات الماضى لم تزل عالقة بأذهانهم · وعلى الرغم من أن جيشهم الآن صار أقل مما كان عليه من قبل الا أنه كان أضخم من جيشنا اذا ما قيس الاثنان من ناحية العدد بعضهما ببعض ·

ف ١٦

نار تنزل من السماء – كما هى العادة – عند ضريح السيد وتضىء مصباحا وتكررت رؤية صلاح الدين لهذه الظاهرة ثلاث مرات كلما أمر باطفائها عادت للاشتعال

ولما جاء مساء عيد الفصح [وكان الرابع من ابريل سنة ١١٩٢ م] مضى صلاح الدين الى ضريح السيد الموقر فى القدس عساه يكتشف حقيقة النار السماوية التى تهبط من عل بأمر ربانى فى مثل هذا اليوم من كل عام فتشعل مصباحا هناك ، وظل صلاح الدين وغيره من الترك الذين معه يشاهدون فى يقظة تامة مدى الايمان الذى عليه هؤلاء المسيحيون الكثيرون المصفدون فى الأغلال وهم يناشدون الرب بعيون مغرورقة بالدموع ان ينزل عليهم رحمته واذا بالنار المقدسة تنزل فجأة أمام أنظار الجميع وتشعل المصباح الذى سرعان ما أخذ يشع الضوء فينعكس على كل ما حوله .

فلما شاهد الناس ما جرى خفقت قلوبهم سرورا وعمت الفرحة صدور المسيحيين ومجدوا الرب بأصوات عالية .

أما المسلمون فقد أخذهم العجب وصعقوا مما يرونه من معجزة لم تخف على أحد ، وان أنكروا ما رأوا وادعوا أن هذه النار ليست سوى حيلة احتالها البعض لخديعة الناس .

وأراد صلاح الدين أن يتبين حقيقة الأمر فأمر باطفاء المصباح الذى اشتعل بأمر الاهى ، فأطفىء فعاد للاشتعال مرة ثانية بقوة علوية ثم جرى ذلك مرة ثالثة .

فما أعظم قدرة الرب !! ومن ذا الذى يستطيع أن يقاوم الغلاب القاهر (١٠) « ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب » . وما من أحد يقدر على أن يقاوم ارادته .

استولى العجب على السلطان مما رآى وآلمته هذه المعجزة وأخذته الدهشة مما عليه هؤلاء المسيحيون من ايمان واخلاص ، وجرت على لسانه كلمات كانت نبوءة بما سوف يحدث له فقد قال فى لهجة جازمة : « ما أرى فيما جرى الا اشارة الى أن قد دنا أجلى وانى سأموت عن قريب ، أو أن ستضيع هذه المدينة من يدى حالا » .

ولم تخطىء فراسته اذ فارق هذه الدنيا فى عيد الصوم (١١) التالى .

ف ١٧

احتفال الملك ريتشارد بعيد الفصح فى عسقلان

احتفل الملك ريتشارد فى عسقلان بعيد الفصح المجيد الذى وافق الخامس (١٢) من ابريل ، مد الموائد الحافلة بالطعام والشراب لكل من يريد الطعام والشراب ، وكان قد نصب خيامه فى البساتين الموجودة خارج عسقلان ، وأعد من كل شىء وفرة ليقدمها لشعبه حتى يكون احتفالهم بالعيد أبهى وأروع ما يكون ، ولم يكن هناك ما يستحق الثناء أكثر من كرمه وأريحيته التى تحسب من أعماله المجيدة : اذا سارت الأعمال الباهرة القلب الطيب يدا فى يد فهيهات لنفس وضيعة أن تتمكن من رد الأيدى السخية .

« فاليد تتبع القلب فى عطائه الكريم »

ف ـ ١٨

اعادة بناء عسقلان من الخزينة الملكية

في يوم الاثنين من أسبوع الفصح (السادس من ابريل) عاد الملك متحمسا أشد الحماسة الى مشروعه الرامي الى اتمام بناء أسوار المدينة ، وراح يحث الجميع بأسلوب ينطوي على المودة والصداقة على أن يمضوا في العمل بهمة لا تعرف الكلل ، وسرعان ما كمل المشروع بفضل تنظيماته ومعاونته حين تولى ذلك هو بنفسه وصرف عليه من ماله الخاص ، وفرغ البنـاء بلا أدنى مشكلة من جانب الفرنسيين الذين سبق انسحابهم رغم أنه كان يتحتم عليهم — وفاء لليمين التي أقسموها — ان يساهموا في العمل بالقدر الذي ساهم به الملك ريتشارد .

ف ـ ١٩

خروج الملك ريتشارد لاستكشاف غزة وداروم

خرج الملك يوم الثلاثاء من أسبوع عيد الفصح (الموافق السابع من ابريل) وفي صحبته طائفة قليلة من رفاقه للوقوف على أخبار غزة .

ثم مضى في يوم الأربعاء الى « داروم » سالكا نفس الطريق قاصدا ما قصده حيال غزة ، ودار حولها يتفقدها ليعرف أي موضع فيها يمكن الهجوم منه عليها .

ولما رآه ورفقته جماعة الترك الذين أغلقوا الداروم على أنفسهم راحوا يرمونهم بسهامهم ونشابهم ، ويطلقون ألسنتهم بالشتائم

وان لم تكن تجدي ، ثم لم ينشب الملك أن عاد الى عسقلان حين فرغ من تفقد كل صغيرة وكبيرة وتم له الوقوف على كل شيء يرومه وعاد أدراجه الى عسقلان .

ف ـ ٢٠

الفرنسيون يقضون أوقاتهم في اللهو وفي الحانات بعد استدعائهم من عسقلان الى صور

رحل الفرنسيون كما قلنا ، وبينما كان الذين رافقوهم بأمر الملك الى عكا عائدين الى المعسكر في عسقلان وصل الفرنسيون الى صور ، وليس من سرف القول ان وصفنا هنا ما شغلوا به أنفسهم هناك وكيف كانوا يقضون أوقاتهم ، ذلك أنه على الرغم مما كان يظن بايمانهم ، وان هذا الايمان كان الدافع لهم على القدوم الى الأرض الطاهرة للحج الصادق ، الا أنهم سرعان ما تخلوا عن حياة الجهاد وانغمسوا حتى الأذقان في اللهو والفجور وسماع الأغاني تنشدها على مسامعهم النسوة الساقطات ، وانصرفوا الى ولائم الفجور حتى ليقرر شاهد عيان أنهم كانوا لا يشاهدون الا في صحبة الراقصات اللائي يطلعن في ملابسهن الخليعة المثيرة والدالة على حياة الاثم التي يتقلبن فيها ويعشنها ، فأكمامهن مشدودة بشرائط احكمن لفها لتبرز من أجسادهن ما يثير شهوة الناظرين ، ويرتدين العباءات ظهرا لوجه ويجعلنها حول أوساطهن وبين أذرعهن، وبذلك فان الثياب التي كان مفروضا أن تغطي الأجزاء الخلفية من أجسادهن كانت في غير موضعها .

لقد كانت عباآتهن حول بطونهن وليست لظهورهن .

وكن يضعن حول أعناقهن عقودا مرصعة بنجوم براقة ومزينة بالجواهر المتلألئة، ويتوجن رؤوسهن بأكاليل من الورود والزهور.

وكن يدرن حاملات فى أيديهن الأطبـاق بدلا من السيوف .

وكان الرجال (الفرنسيون) يمضون ليـاليهم فى حفـلات الشراب ولا يعـرف النـوم سبيله الى أجفانهم فاذا احتدمت حميا الشراب وألجمت الخمر شـاربيها تأججت فيهـم رغبة جامحة الى الفتيات فيسعون اليهن ويطرقون أبوابهن فان وجدوها مغلقة فى وجوههم أو سـبقهم اليهن غيرهم هموا بتحطيمهـا وانطلقوا يسبون ويفوهون بألفاظ نابية ، ويقسمون أغلظ الايمان جريا على مالوف عادات الفرنسيين فى مثل هذه الأحوال ، ويتفوهون بألفاظ وعبارات ينزعج من سماعها كل رزين عاقل .

ترى ماذا أقول أكثر من هذا ؟

أقول ان سلوكهم برهن على أنهم لم يكونوا جادين حين قالوا انهم جاءوا للحج !!

على أنه ينبغى أن أؤكد لك انهم لم يكونوا جميعا على هـذا النمط من السلوك المعوج المرذول فقد كان بينهم رجال لا ينظرون بعين الرضا الى هذا الأسلوب السفيه الذى ينهجه غيرهم ، كمـا أحزنهم كل الحزن الشـقاق الذى نشب بينهـم وبين الملك (١٣) [ريتشـارد] .

ف ٢١

امثلة على أن الشقاق الشاجب الآن بين مسيحيينا فى الأرض الطاهرة لم يحصل مثله أبدا فيما سلف من الأزمنـة

لقد تم للملك المعظم شارلمان النابه اسما ، والمجيد أعمالا فتح كثير من الأقطار ، كما دانت ممالك عدة لسلطانه ، ولم يرو أحد قط أنه قد أضرم أى نزاع فرق بين رجال جيشه حين خروجه لاخضاع اسبانيا ، ولا فى حملته التى نهض بها للاستيلاء على سكسونيا التى قام فيها بأعمال مجيـدة ، منها انتصـاره العظيم على فيتيين Witedun النذل الساقط .

كذلك لم يكن هناك نزاع بين الرفاق حين زحف عبر رومة ليقـاتل أقـوى النـاس شـكيمة وهو « أوجـلاند » Augland الذى كان قد وقف قرب « ريجو » Reggio احدى مدن كلابريا على رأس قوة شرقية بلغت من البأس أقصاه ، وكان « أوجلاند » ومن معه قل ان تستطيع قوة بشرية أن تتغلب عليهم الا بمشيئة الرب وعونـه .

كذلك لم يحدث أبدا لأى جيش حارب تحت قيادة قائد واحد ان أدى الشقاق الى تفرقته شيعا وأحزابا ، أما أرض القدس فقد ماجت بالحروب الكثيرة .

لم يحدث قط فى كل ما ذكرنا ان تفتت من جراء الشقاق أى جيش يحارب بقيادة موحدة .

رئيس رهبان دير هيرفورد يأتى سفيرا من انجلترا الى الأرض الطاهرة ليخبر الملك ريتشارد بضرورة العودة الى وطنه للاضطراب المتفشى فى مملكته

حينما انتهى عيد الفصح وأصبح الجو ملائما لعبور البحر وفد على الملك ريتشارد وافد بث الاضطراب بين كافة العسكر ، أما هذا الوافد فهو رئيس دير هيرفورد Hereford بانجلترا حاملا كتابا الى الملك من مستشاره وليم (لونجشامب) أسقف ايلى Ely يخبره فيه انه (أى المستشار) وغيره ممن كان الملك ريتشارد قد وكل اليهم حكم انجلترا أثناء غيابه قد أخرجوا من قلعة البلاد ، وان طائفة ممن ساندوه قد قتلوا فى الهياج الذى قرر رئيس رهبان الدير انه شاهده بنفسه ، وأن قد تم طرد مستشار الملك من انجلترا تنفيذا للاجراءات التى اتخذها ضـده « جون » أخو الملك ، وكان جون يتول حينذاك كونتية مورتين Mortain وانه لم تعد فى الخزانة الملكية ولا فى غيرها من الخزائن من المال الا التافه الذى أمكن اخفاؤه فى صعوبة فى الكنائس .

وأضاف رئيس الدير الى ذلك قوله انه بعد هذه الاضطرابات والأهوال فر الى نرمنديا نفس هذا المستشار والقسيس والأسقف ومدبر أمور كل المملكة ، كما أن الكونت المشار اليه ألح بشدة على ايرلات المملكة ونبلائها أن يقطعوا له يمين الولاء والخضوع وأن يسلموه القلاع ، ثم امتدت يده فاغتصب الأموال السنوية الموجودة فى الخزانة الملكية .

وقال رئيس رهبان الدير للملك « فان لم تحضر على وجه السرعة الى وطنك للثأر لنفسك من هذه الاهانات وتئد الشرور التى دبرت ضدك وترد كيد الكائدين فسوف تسوء الحالة أكثر مما هى عليه الآن ، ولن تستطيع استرداد حقوقك وتتجنب خطر الحرب » .

استولى الذهول الشديد طويلا على الملك مما سمعه ، وألجمه التعجب فأمسك الا عن كلمات قلائل راح يهمهم بها ، ودارت فى ذهنه أمور كثيرة وأفكار شتى ، فقد كان الخبر الذى طرق أذنيه خبرا لا يصدقه العقل ويرفضه اليقين ، اذ من ذا الذى يطيق احتمال ما يسمعه من نهب أملاكه جهرا ؟ ومن ذا الذى تبلغ رباطة الجاش به وثبات الجنان عنده حدا يتحمل معه هذا الظلم الفادح وتلك الخسارة الفادحة ؟ زد على ذلك أن الخبر السىء يجىء – حتى ولو كان غير مؤكد – فيضفى على النفس خوفا مصحوبا بالقلق الذى يحس المرء معه بالهلع .

ولما علم الآخرون بالأزمة [التى فى انجلترا] جزعوا هم أيضا واستفزتهم سورة الغضب لما صارت اليه الأمور من تعقيد ، وبما وقع بين الأمراء من شقاق سفيه خشن المراس ، وأدركوا أن لو رحل الملك [من فلسطين] فلن يعود أحد باقيا فى هذه الأرض يمكن الاعتماد عليه لما كان من سيطرة الغيرة على النفوس واستحكام النزاع بين أهل عسقلان وأهل صور ، فلا مشاحة ان وقعت البلاد الى الأبد فى براثن التـرك لخلو البـلاد من قيـادة تأخذ فى يدها بزمام الأمور .

ف ٢٣

حين سمع العسكر بالخبر المخفى عنهم مما علمه الملك من قاصده وعزمه على العودة الى بلاده عزموا على تعيين ملك آخر عليهم وآثروا المركيز على « جى »

فلما كان اليوم التالى لهذه الأحداث جمع الملك اليه قادة الجيش وشرح لهم المشكلة كما سمعها وأعاد على أسماعهم كلمات رئيس دير رهبان « هيرفورد » ، وبين لهم أن الضرورة تفرض عليه العودة الى الوطن ، ولكنه أخذ العهد على نفسه – ان هو غادر هذه الأراضى – أن يزود العسكر الذين يخلفهم وراءه هنا بثلاثمائة فارس والفين من صفوة المشاة مع قيامه بالنفقة عليهم من ماله الخاص .

ولما فرغ من كلامه سألهم من منهم يريد العودة معه حالا الى انجلترا ؟ ومن ذا لذى يؤثر البقاء هنا ؟ وأعلمهم أنه لا يكره أحدا أو يرغمه على أى من الأمرين بل تارك لكل منهم أن يختار ما يحلو له وأخبرهم أنهم أحرار فى ايثار ما يريدون ، ومخيرون لا مجبرون .

فلما تداولوا الأمر فيما بينهم بعض الوقت ثاب اليهم رشدهم وقالوا له : « اما وقد تناهب النزاع البلد ودمره الشقاق ولم تتضح الخاتمة ولم تعرف على وجه اليقين الى ماذا تصير اليه الأمور بسبب عدم نجاح الملك جى – حتى هذه اللحظة – فى موضوع استحواذه على المملكة فانهم يرون أن الضرورة التى لا مفر لهم منها هى اختيار ملك جديد يبذلون له الطاعة ويسلمون اليه أمرهم ويولونه شئون البلاد وقيادة الناس فى الحرب ، ويسلم اليه الجيش زمامه وهو

راض وعن طواعية، فان لم يتم هذا الأمر قبل رحيل الملك ريتشارد فانهم راحلون على بكرة أبيهم لعجزهم عن الحفاظ على البلد .

فرد عليهم الملك ريتشارد فى الحال سائلا اياهم أى الاثنين هم يؤثرون الملك جى أم المركيز ؟ فأجابه صغيرهم وكبيرهم فى نفس واحد وقد ركعوا أمامه متوسلين اليه ومستعطفينه أن يولى عليهم المركيز ، وقالوا له انهم يؤثرون المركيز بالامارة فيكون الأمير عليهم ويكون المدافع عنهم لما يرونه فيه من أنه أنفع للمملكة لأنه أكثر فراسة من « جى » وأقدر منه ، فلم يكن من الملك ريتشارد سوى احترام هذا الرجاء الذى أجمعوا عليه ، وان كان فى الوقت ذاته قد كره فيهم تقلبهم ، اذ أنهم هم أنفسهم كانوا الى الأمس القريب كثيرى اللوم له مزورين عنه ، واذا ما ذكروه بما يشينه وسلقوه بألسنة حداد .

ف ٢٤

وفاء من الملك ريتشارد لهم فانه يرسل فى طلب المركيز رغم ما عليه من نزعة تخريب وما كان من موادعته لصلاح الدين

استجاب الملك ريتشارد للالتماس الذى أجمعوا عليه وقدموه اليه من ايثارهم المركيز ووافق هو عليه ، وعهد الى طائفة من كبارهم وأشرافهم بالذهاب الى « صور » للعودة بالمركيز ، وأن يحيطوه بما يليق به من آيات التشريف ، وتم الاتفاق برضا من الملك ريتشارد أن تتألف السفارة الذاهبة الى المركيز من أعلم الرجال وأبرزهم ليخبروه بأنه هو الشخص الذى وقع عليه الاختيار بالاجماع ، وكانت هذه السفارة تتألف من : هنرى كونت شمبانيا،

واوتو دى ترانسينجس Transinges ، ووليم دى كايو Cayeu وخرج كل من هؤلاء فى حاشيته وأتباعه متوجهين الى صور وأسرعوا يحملون الى المركيز الخبر العظيم الذى كان يشتاقه ويتطلع اليه منذ زمن بعيد .

غير أن المثل يقول « كم بين الكاس والشفة من هوة ، وكأن الرب رأى أن المركيز ليس بالرجل الذى يستحق أن توكل اليه المملكة وانه ليس بأهل أن يكون ملكا عليها فقد جد الأمر التالى : ذلك أن الملك ريتشارد طالما الحف عليه وأكثر من سؤاله – بعد رحيل الملك الفرنسى كما أشرت أنفا – أن يمد يد العون والمساعدة فيساهم فى فتح المملكة ولكنه كان يرفض على الدوام ويأبى الا أن يكابر مكابرة المتغطرس مما استوجب لومه ، ثم انه زاد على ذلك بأن شارك فى التآمر ضد التاج الملكى وضد الجيش الموجود فى عسقلان ، فهادن صلاح الدين على شروط منها أن يذهب اليه ويقسم بالحفاظ على ما بينهما من سلم وموادعة فلا يكون بينهما بعد اليوم حرب ولا قتال ، على أن يتسلم من صلاح الدين لقاء ذلك نصف مدينة القدس وحصون بيروت وصيدا ونصف البلاد الواقعة على ذلك الجانب من نهر الأردن ، وكان صلاح الدين سعيدا كل السعادة بهذه الشروط على الرغم من اصرار أخيه العادل على رفضها رفضا تاما ظل مقيما عليه .

ولقد سمعنا بعدئذ ان [الملك العادل] ظل يلاحق صلاح الدين حتى لا يعقد أى سلام مع أى مسيحى الا أن يكون ذلك برضاء الملك ريتشارد ، وكان العادل يقول لصلاح الدين : « انك لست بواجد مسيحيا يبز الملك ريتشارد وفاء ، أو تلقى فردا يدانيه فى صدقه ، واننى لن أوافق على شروط أى موادعة – أيا كانت هذه الشروط – تعقد من غير علم الملك ريتشارد وبغير رضائه ،

وترتب على خطته هذه أن فشل مشروعه الدنىء ولم تثمر هذه الخيانة [من جانب المركيز] عن أية جدوى .

ولقد انكشفت هذه الخطة فيما بعد بأوضح جلاء فلقد حدث أن قابل « ستيفن دى تيرنهام » هؤلاء السفراء الذين كانوا دائمى التردد بين صلاح الدين وبين المركيز ، وكانوا على الدوام فى جيئة وذهاب يحملون قول كل طرف الى الآخر ويتفاوضون شفاها بينهما، وكان لقاء « تيرنهام » لهم أثناء رجوعهم من عند صلاح الدين فى القدس ، وكان فيهم من اذا ذكرنا أسماءهم كانوا موضع الازدراء ، اذ منهم « بليان » صاحب « ابلين » وكذلك ريجينالد صاحب صيداء ، ولكن لن نطيل الكلام عنهما فقد أسفر عملهما وحماستهما المقوتة عن لا شىء كأنها التراب ذرته الرياح » .

ف ـ ٢٥

حين سمع المركيز باختياره ملكا تملكته الفرحة هو وجميع شعبه وأعدوا أسلحتهم وكل ما هو ضرورى لتتويجه

عاد الى صور الرسل الذين كانوا قد سافروا لاحضار المركيز وانجزوا مهمتهم التى نيط بهم أداؤها ، وشرحوا له شرحا مستفيضا ما كان من الاجماع على اختياره ملكا ، الى جانب موافقة الملك ريتشارد على هذا الاختيار ، وكان انتقال التاج اليه مشروطا بحضوره هو وجيشه ليباشر مباشرة تامة صحيحة تحمل مسئوليات المملكة والانتقام من الترك انتقاما بليغا ، وأن يكرس نفسه منذ هذه اللحظة لحكومة مملكة بيت المقدس واعتبارها مملكته .

ويقال انه حين سمع ما قالوه رفع كفى الضراعة الى السماء فى سرور منبعث من قلبه ، ودعا ربه قائلا : « أيها الرب والمولى الذارىء البارىء ، يا من خلقتنى ونفخت الروح فى جسدى ، انك أنت الملك الحق والخالق المنان ، أسألك أن تمنحنى أيها المولى – ان رايتنى جديرا بحكم مملكتك – ان تمد فى عمرى حتى أرى نفسى متوجا ، اما أن رأيت غير ذلك فلا تنعـــم على أبـــدا بأن أرقى هذا المعراج » .

ولما شاع فى صور وعرف القاصى والدانى أن المركيز سوف يتوج عمت الفرحة العظمى الجميع ، وأخذ كل واحد يبذل جهده فى تهيئة ما يراه لائقا للمشاركة به فى الاحتفال بالتتويج ، فمنهم من استدان لشراء الملابس أو السلاح حتى يظهر بمظهر يتلاءم والمكانة التى ارتقاهـا من سيكون فى خدمته ويزيد فى ابهتــه وعظمته ، وشغل الناس أنفسهم بسلاحهم وصقلوا سيوفهم وزردياتهم، وقام الفرسان والشباب يتلاعبون كأنما يقاتل بعضهم بعضا وما هـــم بمتقاتلين ، ولكنهم يحاكون المعارك الساخنة الطاحنة ، ويعلنون فى تباه واعتزاز أنهم ماضون للقضاء على الترك ، والحق أنهم كانوا أمجادا شجعانا ، لولا انه كان ينقصهم العون الربانى ، فلقد هلك بعضهم فى تمازحهم الثقيـل الذى بالغـوا فيه ، اذ يقول المثـل السائر « لا تسرفن فى الضحك حتى لا تحزن طويلا ، لأن كل مبالغة محسوبة » .

ف ٢٦

شيخ الجبل يرسل اثنين يطعنان المركيز

حين انجز كونت هنرى ومن معه ورفاقه السفارة التى جاءوا من أجلها انقلبوا الى مدينة عكا ليزودوا أنفسهم بما يحتاجونه ،

وبينما هم موشكون على العودة الى الجيش الموجود بعسقلان اذا بيد الموت تمتد الى المركيز على غير انتظار فتغتاله وتودى به . ذلك أنه وجهت اليه ذات يوم دعوة لتناول الغداء مع اسقف بوفيه (١٤)، فلما فرغ منها وبينما هو فى طريق أوبته وهو طافح الوجه بالبشر ، منشرح الصدر اذا باثنين من طائفة الحشيشية يخرجان عليه فى موضع معين غير متدثرين واندفعا نحوه باقصى سرعة وقد أشهر كل منهما سكينا كانت فى يده وراحا يطعنانه هنا وهناك فى بطنه فكانت جراحه قاتلة ، ثم انطلقا مسرعين أقصى السرعة ، فسقط المركيز فى لحظته من فوق جواده ، لكن تم القبض على أحد المغتالين واطيحت رأسه ، وأما الآخر فلجأ الى كنيسة من الكنائس مستجيرا بها الا أن القوم أخرجوه وسجنوه فى وسط المدينة حتى فارقت روحه بدنه وأسلم روحه الدنسة التى اقترفت هذه الجريمة الشنعاء .

الا أن القوم سألوه قبل أن يلفظ أنفاسه عن الدافع له على ارتكاب ما ارتكب فاعترف بأنه ورفيقه جاءا الى هنا منذ وقت بعيد لتنفيذ هذه الجريمة ، وأنهما أقدما على ما أقدما عليه طاعة لأوامر عليــا ، وأن خلاص روحيهما انما يكون فى تنفيــذ ما وكل اليهما تنفيذه ، واتضح أنه صادق فى ما قال كل الصدق ، وانهما ظلا طول هذا الوقت فى انتظار اللحظة المناسبة لتنفيذ مهمتهما ، وقالا ان شيخ الجبل [رشيد الدين سنان] هو الذى أرسلهما ، وأنه حكم بقتل المركيز ، كما أنه حدد الوقت والساعة للفتك به .

كان اسلوب شيخ الجبل قتل كل من يرى أنه لا يستحق الحياة وغير جدير بأن يظل بين الأحياء . وكان من تقاليد شـيخ الجبل الموروثة أن يربى أولادا كثيرين تربية عالية فى قصره ويظلون فى خدمته ، ويعلمهم الحكمة ويجعلهم يتقنون لغات مختلفة وبذلك

يستطيعون التعامل مع كل قوم بلسانهم وفى كل أرض بلغة أهلها دون حاجة الى مترجم يترجم بينهم وبين أهل تلك البلاد .

كان هؤلاء الفتيان ينشأون على القسوة البالغة من حيث العقيدة التى فيها الغموض الشديد فيشب هؤلاء المريدون الغلمان – أتباع هذه العقيدة – على أتباع تعاليمها فى صرامة ، ولا يحيدون عما لقنوه فاذا رأى شيخ الجبل انهم بلغوا سن الرشد أذن لهم بالمثول فى حضرته ، وجب جميع خطاياهم فيفتكون بمن يراد الفتك به سواء أكان ذلك الرجل قويا أو أميرا ، ويذكر لهم شيخ الجبل اسمه وأن قد حق عليه القتل ، ويعطى كلا منهم سكينا طويلا طولا مفزعا لانجاز هذه المهمة المكلف بها ، فيمضى الواحد من هؤلاء الفتيان لما ندبه له شيخ الجبل من غير ابطاء ولا تريث انصياعا لأمر الشيخ ، حتى يبلغ الفتى الأمير المسمى له أيا كان هذا الأمير ويكون الفتى قد عمل فى خدمة هذا الشخص زمنا تسنح له الفرصة المناسبة لتنفيذ ما وكل اليه القيام به وينجز مهمته وهو مؤمن كل الايمان انه سينال رحمة ما بعدها رحمة ازاء قيامه بهذا العمل .

وليس من شك فى أن الاثنين اللذين قاما باغتيال المركيز هذا الاغتيال الفظيع كانا من هذه الطائفة .

لفظ (١٥) المركيز نفسه الأخير فتسارع رجال الحاشية الذين كانوا حوله فى رفعه من رقدته وأخذوه بين أيديهم وحملوه الى القصر وهم لا يكفون عن البكاء عليه وندبه لأن السعادة التى نعموا بها منذ قليل سرعان مازلت وأدبرت بلا رجعة .

وأقام انصار المركيز المخلصون المراسيم الواجب اتخاذها ، وكلفوا زوجته [ايزابيل] الا تغفل عينها عن حراسة مدينة « صور »

وأن لا تسلمها الى أى كائن من كان الا أن يكون هذا الشخص هو الملك ريتشارد ، أو أن يكون من أقارب الملك الشرعيين .

ما ان مات المركيز حتى دفن فى احتفال مهيب فى مدفن الاسبتارية .

وعلى هذه الصورة كان انتهاء ما كانوا ينعمون به من الفرح ، أما السلطة العليا التى كان المركيز قد سعى اليها سعيا طويلا وحثيثا وتمناها من أعماقه والتى لم تتوفر له الا منذ قليل فقد انتهت لما انتهى هو اليه من خاتمة لا رجعة له منها . وبهذا فان ما كانت ترجوه الأرض المقدسة من عزاء وسلوى قد زال وحل مكانها اهوال جديدة .

ف ٢٧

قيام بعض الفرنسيين باتهام الملك ريتشارد بقتل المركيز مدفوعين فى هذا الافتراء بالرغبة فى تشويه سمعة الملك ورميه باغتيال المركيز

فى معترك هذا الاضطراب الذى سيطر على الناس والذى كان اشبه ما يكون ببذور بذرها العدو وراحت تنمو كالطفيليات وتفسد ما حولها من حقول الحنطة سرت بين الناس همسات راح الفرنسيون يهمسون بها ويذيعونها وغرضهم منها السعى الى اخفاء نذالة قومهم ، فزعموا ما زعموا من افك راحوا يلوكونه بألسنة مسمومة ويهمسون به فى آذان الناس اذ اتهموا الملك ريتشارد اتهاما باطلا بذيئا بأن له يدا فى قتل المركيز فزعموا انه استأجر اثنين من جماعة الحشيشية بمال كبير ، ثم دفع بهما لاغتيال المركيز فاغتالاه .

يا للضغينة السوداء !! انها تسعى لتشويه كل ما هو جميل وطيب وتفسده ، وهى مدفوعة الى ذلك بالغيرة من كل ما هو طيب وخير ، فان لم تستطع القضاء على الأعمال الخيرة والفعال النيرة حاولت الحط منها ، على أن الذين أكلت الغيرة قلوبهم من الملك ريتشارد وامتلأت حقدا عليه لم يكتفوا بتشويه سمعته فى هذه الناحية من العالم ، بل زادوا فبعثوا الى ملك فرنسا يحذرونه من الحشاشين أتباع شيخ الجبل لأنهم فتكوا بالمركيز ، وأخبروه بأن الملك ريتشارد بعث بأربعة من أتباع هذه الطائفة الى فرنسا بغية اغتيال ملكها .

ترى أى عقاب ينبغى انزاله بمن تفتق خيالهم عن مثل هذا الزعم الباطل ! « عجت الأمم ، تزعزعت الممالك .. ذابت الأرض » .

لقد حسب هؤلاء القوم أصحاب الطوية السيئة أنهم قادرون على زيادة سلطانهم وستر خدائعهم الذميمة بمزاعم خبيثة .

ف ٢٨

الفرنسيون فى صور ينتخبون كونت هنرى ملكا وتمضى رسلهم الى الملك ريتشارد يخبرونه بما فعلوا وبمقتل المركيز

حين فرغ النـاس من مواراة جثمان المركيز الثرى تجمع الفرنسيون ممن كانوا يعسكرون خارج المدينة وقد قاربوا أن يكونوا عشرة آلاف نسمة ، وبعد أن تداولوا بعض الوقت موقفهم الذى هم فيه بادروا فأوحوا الى امرأة المركيز [ايزابل] أن تسرع فتسلمهم المدينة ، رضيت أم كرهت ، حتى يقوموا هم بالمحافظة عليها فتكون آمنة سالمة حتى يقضى فيها ملك فرنسا بما يراه ، ولكن ايزابل

ردت عليهم قائلة انها سوف تسلم البلد الى الملك ريتشارد عند مجيئه لرؤيتها بدلا من تسليمها الى ملك فرنسا ، وأعلمتهم أنها ليست بمسلمة اياها الى أحد الا أن يكون الملك ريتشارد ، وذلك تنفيذا لتوصيات مولاها وزوجها الراحل ، وهى التعليمات التى ألقاها اليها قبل وفاته ، وقالت لهم فيما قالت :

« ما من أحد سوى الملك ريتشارد جاهد الجهاد الكبير لانتزاع البلد من أيدى الترك وردها الى سابق ما كانت عليه من التنعم بالحرية ، وانه وحده لصاحب الحق كله فى أن يقرر مصير المملكة حسبما يراه فى صالحها » .

فلما وقف الفرنسيون على ردها هذا أحنقهم أشد الحنق واستشاطوا غيظا وسخطا .

وبينما كان الفرنسيون يتجادلون حول من يكون له الاشراف على البلد اذا بالكونت « هنرى » يصل الى صور وقد أذهله ما جرى حين سمع به ، على أن الناس ما كادوا يرونه ماثلا بينهم حتى التفوا حوله فرحين به كأن الرب أرسله لخيرهم ، واصفقوا أمرهم فيما بينهم فى الحال على اختباره أميرا عليهم وحاكما ، فلما جاؤوا اليه أخذوا يتوسلون اليه أن يتفضل بقبول التاج الملكى ، واستعطفوه الا يرفضه ولا يعتذر عن قبوله وانهم لن يقبلوا أى حجة يعتذر لهم بها ، ثم زادوا فالحوا عليه أن يتزوج أرملة المركيز صاحبة المملكة بحق الوراثة الشرعى .

فأجابهم الكونت فى لحظته انه سوف يستجيب لرأى عمه الملك فيما ينبغى عليه اتخاذه حيال هذا الموضوع الذى استدعاه الرب من أجله ، فبادر السفراء بالسفر من غير تمهل ولا ابطاء ليفضوا الى الملك (ريتشارد) بأن الناس كافة انتخبوا الكونت هنرى بالاجماع بدلا من المركيز الذى اغتيل على تلك الصورة الآثمة .

ف ٢٩

اصرار الملك ريتشارد على مهاجمة الترك كل يوم معملا القتل والأسر فيهم

ظل الملك ريتشارد قبل مجىء هؤلاء الرسل اليه من صور منصرفا بلا كلل أو ملل الى مطاردة الترك ، مغتنما فى ذلك قرب اعتدال الجو بعد انقضاء أشهر الشتاء المكفهر وأيامه القارسة البرودة ، ولم يكن فى هذه الأرض من أحد يخافه الترك خوفهم من الملك ريتشارد ، فهم يحسون فى باطنهم بالفزع منه لانه لا يكف لحظة عن غاراته المتوالية عليهم ولا يدع لهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم أو يستريحون فيها ، ولم يكن له من شريك فى هذا الهجوم الذى ينزله بهم كل يوم ، وقلما كان يعود من هذه الاشتباكات الا وقد قتل منهم عشرة أو اثنى عشر أو عشرين أو ثلاثين ، كما يعود بالأسرى أحياء ، ولم يحدث قط فى زمن من أزمنة المسيحية أن هلك من الشرقيين مثل هذا العدد على يد فرد واحد .

ف ٣٠

المشطوب يدفع الفدية ويرحل . والترك يمسكون طائفة من المرتزقة وهم خارجون فى طلب العلف

فى يوم الثلاثاء السابق لعيد القديس « الفيج » alphege (وهو السادس عشر من ابريل سنة ١١٩٢) دفعت فدية ابن المشطوب الذى كان الملك قد أسره هو وطائفة معه من قبل فى عكا كما قلنا . فلما دفع الفدية أطلق سراحه فرحل .

وحدث بعد قليل من هذا الحادث أن خرج بعض رجالنا من المرتزقة المسلحين Squires هم وخدمهم يطلبون الكلاء والعلف ، ولجوا فى سيرهم فبعدوا كثيرا دون أن يأخذوا حذرهم ، فاذا بكمين من الترك يبرز اليهم على غفلة منهم ويثب عليهم فقتل منهم بعضا وأخذ البعض الآخرين أخذ اليد أحياء ففرض عليهم الأسر، واستولى على عدد كبير جدا مما معهم من الجياد .

ف ٣١

صراع بين الملك ريتشارد وبين دب وحشى اعترضه وهدده بالخطر (١٦)

خرج الملك على رأس جيشه يوم الأربعاء السابق لعيد القديس مرقص الانجيلى [وهو يوم ٢٢ ابريل] متجها الى تل الصافية ، فلما بلغ تلك الناحية وجدها خالية ليس بها من أحد اذ كان العدو قد فر منها حين علم باقترابه ، فلما كان فى أثناء عودته صادف دبا مفترسا شديد التوحش ، ذا أنياب ومخالب شديدة الطول ، فلما صرخ به الملك ارتد عن طريقه بعض الارتداد ولكن لازال على مسافة دانية ، ووقف يواجه مطارده ، وارغى وازبد حتى تكاثر الزبد على شدقيه ، واستشرى غضبا وقف شعره وانتصبت اذناه ربتعد فى قوة وتهيأ للوثوب على الملك .

صرخ الملك فى الوحش صرخة عالية فلم تحرك الصرخة منه ساكنا بل ظل ثابتا فى موضعه ودار حول نفسه ليواجه الملك المحبوب حين رآه يلتف حوله بجواده ، فلم يكن من الملك الا أن هاجمه وقذفه برمح كان فى يده ، فتقدم الدب قليلا الى الأمام ليقابل الملك فرماه الملك فى خاصرته ليرده عنه الى الوراء ، لكن الوحش كان هرقلى

الجنة ، وكان مخيفا يبعث الفزع فى قلوب من يراه فثنى بثانية ثم اتبعها بثالثة بالرمح فى صدره العريض فلم يوثر فيه الرمح الا بجرح وانكسر قطعتين ..

حينذاك جن الوحش جنونا اذ أمضه الجرح فكر كرة عنيفة على الملك الذى أسعفه جواده الذى تحته رغم قصر الوقت وضيق المكان ، وقفز من أمام الدب فنجا لم يمسه ضر .

غير ان الدب كان قد أصاب سرج الجواد من عند كفله ، والحق ان وثبته هذه انجته من شر مستطير ، كما ان نصل الرمح الذى كان بارزا بعض الشىء من صدر الحيوان حال بينه وبين الاستمرار فى الاقتراب من الجواد .

ثم عاد كل منهما لمهاجمة الآخر وفى هذه المرة هاجم الوحش الملك فتلقاه الملك بحسامه بضربة أصابت مؤخرة عنقه وقد أودع هذه الرمية كل قوته فغار النصل فى رقبة الدب .

وبينما كان الدب مذهولا من هذه الضربة تحرك الملك سريعا والتف بحصانه حول الدب وهاجمه وضربه بحسامه ضربة قطت رقبته وحينذاك عهد بالحيوان المهزوم الى صياديه .

فـ ٣٢

رجالنا يمسكون بعض الترك

ولما كان يوم الثلاثاء السابق لعيد الرسولين الطاهرين فيليب وجيمس (وهو الثامن والعشرون من ابريل سنة ١١٩٢ م) خرج

« روجر دى جلا نفيل » Glanville مع رفاقه من تل الصافيـة Blanchegarde ومـروا أمـام أبـواب القـدس وتغلبوا عـلى طائفة من الشرقيين الذين صادفوهم وأخذوهم مقرنين فى الاصفاد ورجعوا بهم وهم فى أسرهم .

فلما كانت الغداة ــ أعنى يوم الأربعاء (التاسع والعشرين من ابريل) صادف الملك ريتشارد بعض الشرقيين بين تل الصافية وغزة ، فقتل ثلاثة منهم وأسر خمسة أرسلهم الى عسقلان .

فـ ٣٣

الملك ريتشارد والداوية يقبضون مرة ثانية على الترك .

الملك ريتشارد والداوية يقبضون مرة ثانية على الترك فى داروم

فى يوم عيد القديسين المباركين فيليب وجيمس [أول مايو] وفى الليـلة التاليـة وكان الملك ريتشـارد يقضيها فى فوربيـا La Forbé مع طائفة قليلة من الناس ، ولما تبلجت أضواء الفجر أغار عليهم الترك وفى ظنهم أنهم سوف يمسكونهم أو يقضون عليهم القضاء المبرم الذى لا حياة لهم بعده وهم لا يشعرون ولا يظنون ان شيئا مما جرى يجرى ، لكن الملك هب واقفا من فراشه ونحى غطاءه جانبا لكنه لم يجد ما يحمله سـوى درعه وسـيفه وتقـدم لصد المهاجمين وأمسك سبعة منهم (١٧) وقتل أربعـة غيرهم ، ففر الآخرون من أمامه .

ثم أرسل الملك رجالا من الداوية والتركوبول لتفقد الناحية التى حول القلعة المسماة بالداروم فصادفوا عشرين من الشرقيين كانوا قد خرجوا من القلعة يجمعون الشعير فأمسكوهم وأرسلوهم الى عسقلان ·

ف ـ ٣٤

قدوم الرسل المشار اليهم من صور وأخبارهم الملك بموت المركيز واختيار هنرى مكانه · سعادة الملك لسماعه هذا الخبر ومبادرته بمنح الكونت جميع ما طلبه منه كما بعث فى طلب الفرنسيين

بينما كان الملك ريتشارد يتابع سحقه للترك والظهور عليهم فى بطاح الرملة ويطاردهم وهم يفرون من آمامه اذا بالرسل المشار اليهم الوافدين عليه من « صور » يصلون اليه ويقصون عليه ما كان من موت المركيز واختيار الكونت هنرى بدلا من المركيز ملكا للمملكة ، الا أنهم أضافوا الى ذلك ان الكونت لم يجرؤ على تولى الحكم من غير أن يتلقى موافقة الملك ويستمع الى نصيحته وارشاده ·

حين سمع الملك بوفاة المركيز لزم الصمت برهة غير قصيرة وأذهله خبر موته الذى لم يكن متوقعا اذ لم يكن لهذا الأمر أن يجول بخاطر أحد ما ، لكن أثلج صدره ما سمعه من نبأ اختيار ابن أخيه وما ناله من الشرف الملكى لانه عرف ان شعبه كان يأمل كل الأمل فيما جرى ومن ثم خاطب الملك الرسل قائلا :

« أما وقد أخبرتمونى بأن المركيز قد لاقى قدره الذى لا محيص له منه فما أشد الحزن وما أفجع وقع نعيه على نفوس الأحياء ، ولكن هل يفيد الأسى الميت ؟ ··· لقد سعدت اذ اعلمتمونى بخبر انتخاب الكونت هنرى ، واذا كانت هذه هى مشيئة الله فانى أرغب رغبة صادقة فى أن يتم القاء مقاليد أمور المملكة اليه ويكون حكمها له بعد أن يتم فتح البلاد فتحا تاما ، واننى لأمحصه النصح الا يتزوج من أرملة المركيز طالما أن المركيز اغتصبها من غير حق بينما زوجها كان لا يزال حيا ، لأنه ان فعل ذلك يكون قد اقترف هو الأخر جريمة الزنا (١٨) · ومع ذلك فعلى الكونت أن يتقلد مقاليد الأمور فى المملكة ، وانى لأمنحه السيادة على مدينة عكا فتكون له الى آخر عمره هى وكل ما يتعلق بها ، كما أمنحه صور ويافا وجميع الأراضى التى يتم له فتحها ان شاء الله ··· ألا وانى أسألكم ان تخبروه نيابة عنى انه يجب عليه أن يجيئنا بأسرع ما يمكن ليشاركنا فى الحملة وأن يأتى معه بالفرنسيين ، ذلك لأنى مجمع العزم على أخذ الداروم ان كان بها أحد من الترك يجرؤ على مقاومتنا » ·

قال الملك ريتشارد للرسل هذا الكلام ثم عاج فعاد أدراجه الى عسقلان ·

ف ـ ٣٥

رجوع السفراء المشار اليهم من حضرة الملك الى صور واعلانهم رغباته · زواج المركيزة من الكونت يحدث موجة من الفرح يعم الجميع · تسلمه صور وغيرها من القلاع

بعد سماع السفراء ما قاله الملك لهم عادوا الى صور حتى الكونت الذى سيصير ملكا وأعادوا على سمعه ما قاله الملك : لم

ينقصوا أو يزيدوا فيه حرفا ، فعمت الفرحة جميع الناس واستبدت بهم الغبطة ، وأخذت حاشية الكونت تحثه على الاقتران بوريثة المملكة ، لكنه رفض حتى لا يؤذى (١٩) الملك ريتشارد .

أما الفرنسيون وكبار رجالات المملكة فقد رأوا فى هذا الزواج دعما لمكانته وشجعوه على اتمامه ، وبينما هم يحاولون الوصول لتحقيق هذا الأمر اذا بالمركيزة [ايزابل] تجىء الى الكونت بمحض ارادتها وتقدم اليه مفاتيح المدينة .

حينذاك بادر الفرنسيون فى لهفة الى تقبل الأمور على وضعها وأصروا على أن يتم قران الكونت هنرى بالمركيزة فى احتفال مهيب يكون مستوجبا كل الجوانب الشرعية ، بمعنى أن يتم فى الكنيسة وأن يحضره حشد كبير من رجال الدين والعلمانيين .

ولست أظن أن الذين أغروا الكونت على الزواج من المركيزة كانوا فى حاجة كبيرة لبذل مجهود ضخم فليس هناك من محاولة لارغامه على اتمام هذه الرغبة .

تم عقد (٢١) القران فى أبهة رائعة وعم الفرح الجميع اذ تمت الأمور وفق ما يشتهون ، فأما الفرنسيون فقد استخفهم السرور ، كما فرح النرمنديون وراح الجانبان يجرجران أذيال النشوة أن يكون الكونت ذا قربى لكل من ملكى فرنسا وانجلترا وأصبحوا يتطلعون الى أن تكون الأيام القادمة أسعد من كل أيام سلفت لما يسفر عنه هذا الرباط القائم بين الاثنين ، وتطلعوا الى أن يعم الوفاق فيمحو كل أسباب الشقاق والتخاصم .

ولما فرغ الناس من الاحتفالات بالزواج بعث الكونت رجالا من عنده يتولون شئون مدينتى عكا ويافا وغيرهما من مدن الاقليم

وقلاعه وحصونه ويحكمونها باسمه وتحت اشرافه حتى تكون له السيادة على كل شىء فيعده الجميع مولاهم من الآن فصاعدا .

وحين انتهى الأمر على هذا النحو أصدر قرارا يقضى بأن يستعد كل فرد للخروج حالا ليشارك فى الحملة الماضية لاحتلال قلعة الداروم .

ف ٣٦

الكونت هنرى يخرج قاصدا عسقلان ومعه دوق برجنديا وعسكره لمساعدة الملك ريتشارد فيلقى استقبالا طيبا فى عكا

حين فرغ الكونت هنرى من تعيين من يثق فيهم حراسا يرقبون سير الأمور فى مدينة صور وفى قلاع الاقليم خرج هو ودوق برجنديا على رأس العسكر متجهين شطر عكا لاعداد العدة واتخاذ الاجراءات اللازمة للحملة ، وحملا كل المواد الغذائية التى يحتاجها الجيش فى رحلته .

ولقد استصحب الكونت معه فى هذا الخروج زوجته اذ لم يعد يطيق بعده عنها ولو لحظة ، فلما تناهى الى سمع من بعكا ان الكونت قادم عليهم هبوا الى استقباله مرحبين به ، ولاقوا مولاهم الجديد هنا بالاحترام والاجلال وهم يغنون ويرقصون فى نشوة والغبطة .

ثم التفوا حوله وساروا به الى داخل المدينة ، فكنت اذا رأيتها وقد زينوها بمقدمه حسبتها هيكلا قد اسدلت الستائر على جوانبه، كما فرشوا له شقق الحرير، وعبقت الشوارع والساحات

برائحة البخور وعطره الفواح وراحت النســاء يرقصن ، وجن الناس فرحا وسرورا .

وأزيدك فأقول ان النـــاس خرجوا على بكرة أبيهم متقلدين سلاحهم وقد قاربوا ستين ألف نسمة وهبوا كلهم الى استقباله معلنين انه صار ولى أمرهم وحاكمهم ، ومفصحين بذلك عن أنهم قبلوه عن طيب خاطر ، وبقلوب راضية سعيدة به .

ثم أخذه رجال الدين من يده وساروا به حتى صاروا أمام مذبح الكنيسة فقدموا اليه الصليب (٢٢) المقدس وغيره من الآثار الطاهرة ليقبلها ، كما قدم هو وغيره من جانبهم الهدايا الغالية . فلما انتهى ذلك كله خرج محروسا الى القصر الملكى فأمر بنصب مأدبة فاخرة ، ونافس كل شخص الآخر على قدر طاقته وقدراته المالية لتعظيم الملك القادم .

فـ ٣٧

الملك ريتشارد ـ يقطع الملك « جى » بدافع من حبه جزيرة قبرص اعترافا ببسالته وتعويضا له عن انتزاع مملكته منه

جرى العرف على انه اذا ارتفع شخص هوى فى الغالب آخر ، وبكلمات أدق « خسائر قوم عند قوم مكاسب » لقد أرضى الكونت هنرى نفسه باكتســابه المملكة التى كانت قد انتزعت من الملك « جى دى لوزنيان » الذى كان قد خاض من أجلها كثيرا من المعارك التى أدت الى استرداده اياها فدافع وتكبد فى الدفاع عنها كثيرا من التعب والكفاح والعرق ثم انتهى به الأمر بعدئذ الى ان يكون كمواطن من عامة المواطنين ، ولم يكن ذلك راجعـا الى انه لم يكن

أهلا لحكم المملكة اذ لم يكن ثم من هو أكفا منه ولكن لأنه كان رجلا مستقيما غير ذى عوج ، وليس بدنس الأخلاق ولا خسيس العرق أو لئيمه ، على ان هذه الصفات التى كانت تجعله أهلا لارتقاء ذروة الفضل وكسب الاحترام هى التى هوت به الى القاع .

لقد كان فارسا مغوارا ، فهو الذى حاصر عكا حين استولى عليها المسلمون لأول مرة ، وأظهر فى ذلك الحصار بسالة فائقة واقداما يفوق الوصف . وعلى الرغم من أنه هاجمها زمنـا طويلا الا ان عدد الترك كان يتزايد باستمرار ، وكان هو فى حاجة ملحة الى مزيد من العســكر ليتمكن من الاستيلاء عليها من الناحيـــة البحرية ، على ان الحقيقة الثابتة ـ كما أشرنا الى ذلك من قبل هى أن أخذها استعصى على ملكين من قبل ووجدا أن هذا الاستيلاء أمر بالغ الصعوبة .

ان ما طبع عليه جى دى لوزنيان من خلق صريح كان أحجى بأن يزيل من طريقه كل عائق يحول بينـــه وبين الاســـتحواذ على عكا ، لكن يبدو أن القيم فى الدنيا قد انقلبت رأسا على عقب حين نرى ان الفعـال الباطلة المشينة تبوىء أصـــحابها ـ وهم أرذل الناس ـ مراتب الشرف والسؤدد ، وتبين أنه كلما ازداد اتسام أعمال الناس بالخسة رفعتهم الدنيا الى مدارج العلياء ، ومن ثم أصبحت سنة الحياة هى توقير النذل ، واسقاط الرجل الحر الكريم الى الدرك الأسفل وتلطيخه بالعار .

هذا هو « جى » الملك ولكن من غير مملكة .

على ان الملك ريتشارد أشفق على « جى دى لوزنيان » لما يتمتع به من سجية طيبة فاقطعه جزيرة قبرص لا لشىء ما على الرغم من أن

الداوية كان قد سبق لهم ان اشتروها من الملك ، وبذلك أصبح « جى دى لوزنيان » امبراطورا لجزيرة قبرص .

ف ٣٨

كثرة مجيء الرسل من انجلترا الى الملك بالرسائل التى يعارض بعضها بعضا مما حير باله فبات لايدرى ماذا ينبغى عليه عمله

كان الرسل كثيرى التردد على الملك ريتشارد وقت أن قتل المركيز ، وكان هؤلاء الرسل فى كل مرة يدعونه للعودة الى وطنه ، وان كان بعضهم يقول ان الأمور تسير على ما يرام ، ويذهب آخرون الى ان مملكة انجلترا على وشـــك الوقوع فى يـد من يطمع فيها فيهاجمها فيستولى عليها ، كما حاول غير هؤلاء وهؤلاء اغراءه بالعودة الى انجلترا ، وقال سواهم بل عليه ان يتم حجه . وأدى اختلاف هؤلاء جميعا فيما بينهم الى وقوع الملك فى حيرة فلم يعد يعرف : أيهما يصدق ، ويضاف الى ذلك ان تجربته السالفة أوقفته على حقيقة خلق ملك فرنسا وجبلته ، ويقول المثل « من كان له جار سوء فقد ساء صباحه » .

ف ٣٩

كيف تمكن الملك ريتشارد بقواته وحدها وبدون معاونة الفرنسيين من الاستيلاء على قلعة الداروم فى مدى أربعة أيـــام كما أسر ثلاثمائة تركى بهـــا

بينما كان كونت هنرى ومن معه من الفرنسيين وهم لايزالون فى عكا يعدون اقوى التجهيزات لمهاجمـــة الداروم لم يطق الملك

ريتشارد صبرا ان يظل ساكنا حيث هو ، ومن ثم خرج بعسكره من عسقلان قاصدا داروم ، واختار رجالا عهد اليهم بحراســـة عسقلان وبذل فى ذلك أموالا طائلة استأجر بها المحاربين المرتزقة الذين بعث بهم لحراسة القلاع المجاورة ، وعهد اليهم بمراقبة جميع الطرق والمسالك ، وأمرهم الا يغفلوا عن ذلك ليلا ولا نهارا حتى لا يتمكن الترك من الذهاب الى الداروم فى يسر ، كما كانوا يفعلون من قبل وحتى يعجزوا عن حمل الأزودة والسلاح أو أى شىء آخر كانوا قد اعدوا العدة لنقله الى جيشهم الموجود فى القدس ، وحتى لا تعود داروم الملجأ الآمن الذى يلجئون اليه فيتخذون منها مركزا لغاراتهم المتعددة على شعبنا .

حين أتم الملك هذه الاستعدادات خرج مدججا بالسلاح مع حاشيته ولم يصحب أحدا سواهم قاصدا قلعة الداروم فبلغوها فى يوم أحد فنصب على مقربة منها خيامه هو ورفاقه ، ولما لم يكن معه سوى نفر قليل فانهم لم يكونوا يدرون على وجه التحقيق من أى جانب يتحتم عليهم مهاجمة الحصن ، اذ كان من المستحيل على فئة قليلة ان تحاصر هذا الحصن من جميع نواحيه ، فلو انهم قسموا أنفسهم اقساما وأحاطوا بجميع جهـــاته فلن يكونوا قادرين على مقاومة أى هجوم يشنه الترك عليهم ولا يســـتطيعون ضربهم ، لذلك بقوا جميعا معا فى السهل وعلى مقربة من البلد .

حين رأى الترك قلة عدد رجالنا سخروا من أن تقوم قلة كهذه القلة بمحاربتهم فى الوقت الذى هم فيه أكثر منهم ، فخرجوا من الحصن وظلوا يضايقونهم مدة طويلة كما لو كانوا يســتفزونهم للقتال وهم يفوقونهم كثرة ، فلما طال الأمر على الترك ارتدوا على أعقابهم الى الحصن وأحكموا غلق أبوابه عليهم .

فى هذه اللحظة بالذات وصلت آلات رمى الأحجار الخاصة بالملك وهى الآلات التى كان قد أمر بارسالها بحرا .

حينذاك رأينا الملك والزعماء الآخرين والنبلاء يحملونها على أكتافهم – وهى مفككة – من الشاطىء الى مسافة بعيدة فى الداخل تقرب من ميل ويسيرون بها على أقدامهم والعرق يتصبب من أجسادهم ، فلما تكامل تركيب هذه الآلات وأصبحت فى وضع تصلح معه للعمل عهد بها الى الحراس وقام هو ذاته كواحد منهم فى عملية قصد بها مهاجمة البرج الرئيسى ، كما قام النرمنديون بمهاجمة غيره من الأبراج ، وهاجم البواتيون ثالثا ، وظل الجميع يوالون رمى الحصن بالقذائف حتى انهارت دعائمه وهوى أرضا .

فلما رأى الترك أن نهايتهم قد دنت وصارت قاب قوسين أو أدنى حزنوا لما أصابهم ولكنهم دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، على حين ظل الملك يوالى رميهم بالحجارة ليلا ونهارا من غير توقف أو انقطاع .

وكان يشرف على حصن الداروم سبعة عشر برجا أحسن القوم بناءها حتى بلغت من القوة مبلغا عظيما ، وكان أحدها سامق الارتفاع يبز كل ما سواه فى علوه الشاهق ولا يبلغه غيره فى القدرة على الدفاع ، ويوجد خارجه خندق عميق يدور حوله من شتى نواحيه كأنه السوار يحيط بالمعصم ، وكان أحد جانبى هذا الخندق مقوى بطبقة من القرميد ، والجانب الآخر مبنيا بالحجارة فأمر الملك النقابين ان يحفروا حفرا عميقا تحت الأرض وينسلوا من تحت القراميد ثم يقوضون السور فيستولى الرعب آنذاك على قلوب هذا الجنس الغادر فلا يستطيع رجاله حراكا ويعجزون عن الدفاع عن أنفسهم بالصورة المثلى التى ينبغى ان يكون عليها الدفاع أو تشل حركتهم فلا يستطيعون شيئا ، حتى الفرار لا يطيقونه ،

ودأبت آلات رمى الحجارة تعمل عملها وحطمت قذائفها المتتالية واحدا من مجانيق الترك الموجودة على البرج الرئيسى ، فطار صواب أصحابه وكان ذلك نازلة أرفض لها جنانهم .

تمكن الترك فى بادىء الأمر من طرد رجالنا بما راحوا يقذفونهم به من الحجارة ، وما يرمونهم به من السهام عن الأقواس والنشاب التى فى أيديهم وأخذت القذائف تتساقط بكثرة ، كل ذلك ورماتنا ساكنون يتطلعون الى فرصة تمكنهم من تدمير العدو لكنهم كانوا اذا لمحوا رجالا من رجاله على التحصينات قذفوهم ، فتمكنوا من جرح البعض وقتل آخرين ، فدب الخوف فى نفوس أغلبهم وعجز أكثرهم عن الحركة ، ثم زاد ضعف موقعهم حين أمسكت النار بباب الحصن فتهشم وعصفت به آلات الملك التى ترمى بالحجارة فتناثر واستولى اليأس على نفوس الترك من جراء الهجمات المتتالية عليهم فلم يستطيعوا المضى فى دفاعهم عن أنفسهم اذ لقى الكثيرون منهم حتفهم قتلا ، وأثخنت الجراح غيرهم فتساقطوا على الأرض . ومما زاد الأمر خطورة ان الملك كان اذا عزم على أمر من الأمور وشرع فيه لم يرجع عنه ولما كان لم يعرف الهزيمة قط حتى الآن فانه لم يكف أبدا عن نقب أساس البرج او الرمى بالأحجار وحينذاك خرج ثلاثة من صفوف المسلمين وذهبوا الى الملك ريتشارد يسعون فى اقرار السلام وعرضوا عليه أن يسلموه القلعة على شرط أن يدعهم يخرجون فى حرية ، على أن يخلفوا وراءهم كل ما يمتلكون ، لكن الملك رفض عرضهم هذا وطلب اليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ما استطاعوا الى الدفاع سبيلا .

حين أعيدت آلة رمى الحجارة التابعة للملك الى القلعة راحت تعمل بعنف وقوة أكثر مما كانت تعمل به من قبل ، ولم تكن تهدأ أبدا حتى لقد انهار واحد من الأبراج التى تعرضت للقذف المتكرر

فأحدث سقوطها دويا مفزعا ، وكان قد زلزل من أركانه من جراء ما قام به نقابو الملك من حفر سرداب تحته ، فلما أخذ الترك فى الفرار خوفا ان ينقض عليهم فيموتون تحت أنقاضه أخذ رجالنا فى مطاردتهم ، أما من لم تسعفه قدرته على المقاومة فقد لاقى حتفه اذ اخترمته السيوف فاردته . ولقد لجأ الترك الى البرج الرئيسى بعد ان عرقبوا خيولهم حتى لا ينتفع بها غيرهم ، وكان ذلك منهم جريا على مألوف عادتهم فى مثل هذه الحالة .

بينما كان العدو يلوذ باذيال الفرار دخل رجالنا الحصن دخول الظافرين الأبطال ، وكان طليعتهم فى اقتحامه «سجوين باريز» Seguin Barrez وتلاه حامل درعه واسمه «أوسبيارد» Ospiard واما ثالثهم فكان بطرس الجاسكونى .

ثم انطلق فى أثر هؤلاء الثلاثة كثيرون غيرهم سقطت أسماؤهم من ذاكرتى وسحب النسيان عليها ذيوله .

ولقد كان بيرق « ستيفن دى لونجشامب » أول بيرق رفرف فوق السور ، وتلاه علم ايرل « ليسيستر » وأما الثالث فكان راية اندرو دى شافينى ، وأما الرابعة فكانت راية ريموند فيتز » (٢٣) .

وقام الجنوية والبيازنة برفع أعلامهم هم أيضا فوق الأسوار .

وهكذا رفعت أعلامنا ونكست رايات الترك وقذف بها الى الأرض .

فى ذلك اليوم كنت ترى الترك اما بين مسرعين نحو البرج او آخرين تناوشتهم السيوف فسقطوا على الثرى ، أو غيرهم أصابتهم السهام فهلكوا قبل ان تسعفهم اقدامهم فتوصلهم الى البرج .

ولقد عثر رجالنا على طائفة منهم لازالوا فى التحصينات فقذفوا بهم فى العراء من علو شاهق فدقت عظامهم وتمزقوا أربا تناثرت هنا وهناك ، وكان عدد الترك الذين لقوا حتفهم فى نواحى الحصن المختلفة ستين شخصا .

وأما الذين فروا الى البرج معتصمين به فقد أدركوا الا عاصم لهم يومئذ من الهلاك اذ كان قد تم الاستيلاء عليه كما أوشك البرج ان يصير حطاما اذ استجاب رجالنا الشجعان لأمر الملك فشرعوا فى هدمه وأيقن الترك الا أمل لهم فى الاستمرار فى مقاومة الملك واستولى عليهم اليأس حتى اذا كان يوم الجمعة السابق لعيد العنصرة جاءوا الى الملك يرجون رحمته واستسلموا للرق الذى لا فكاك لهم منه ، وكان الدافع الرئيسى الذى حملهم على سلوك هذا المسلك هو أن أميرا من أمرائهم شديد البأس يدعى القيصرى (٢٤) (كان قد عهد اليه بحراسة الحصن) عجز عن مد يد المساعدة اليهم فلم ينقذهم مما يعانونه .

حين تم للملك الاستيلاء على حصن الداروم وجد به ما يقرب من أربعين من المسيحيين الأسرى مصفدين فى الأغلال ، فأطلق سراحهم وعادوا الى الحرية التى كانوا ينعمون بها قبل وقوعهم فى الأسر ، فلما كانت الليلة التالية عهد الملك الى رجاله بمراقبة الترك الذين كانوا لايزالون فى البرج فظلوا حيث وضعهم الملك حتى طلع صباح السبت فلما جاء مساء عيد العنصرة خرج الترك من البرج بأمر الملك وقد شدت أيديهم خلف ظهورهم بسيور من الجلد وأحكم وثاقهم حتى لقد حزت الحبال فى جلودهم وتركت أثارها فيهم وكانوا ثلاثمائة نسمة من الرجال اضافة الى من كان هناك من النساء والأطفال .

هكذا تم للملك ريتشارد الاستيلاء على قلعة الداروم بالقوة فى أربعة أيام لم يعاونه فى ذلك الأمر سوى رجاله وحدهم وقد تم ذلك الاستيلاء قبل وصول الفرنسيين .

وليس من شك فى أن رجالنا بذلوا أقصى الجهد فى اتمام هذا العمل وانجازه على هذه الصـــورة بدون الفرنسيين ، فاســتحقوا الفخر التليـــد .

ف ٤٠

حين وصول كونت هنرى الى الداروم أسلمه الملك حصنها فاخذه ثم غادرها الى فوربيـــا

بعد ان فرغ الملك من أخذ الداروم جاء كونت هنرى على جناح السرعة ومعه الفرنسيون ودوق برجنديا ليكونوا حاضرين ســاعة الاستيلاء على الحصن ، لكن كان قد تم الاستيلاء عليه قبل حضورهم ففاتهم الاشتراك فى فتحه ، وحينذاك خرج الملك للقــاء الكونت ورحب به أجمل ترحيب وســـار به الى الحصن وأقر له ـ فى حضـــور الكثيرين ـ أنه تنـــازل له عنه وعن كل ملحقاته وجميع ما سبق له الاستيلاء عليه وما سوف يفتحه .

كانت هذه الهدية هى أول ثمار أثمرتهـــا المملكة التى كان عليهم فتحها .

وأمضى (٢٥) الجميع فى قلعة الداروم ذلك اليـــوم احتفالا بعيد العنصرة العظيم وهو يوم ٢٤ مايو .

فلما جاء يوم الاثنين جهز الكونت الحصن بحامية ثم مضوا جميعا شطر عسقلان ، مخترقين غزة فبلغوا فوربيا Furbia التى ظل الملك مقيما بها ثلاثة أيام . أما البقية الباقية من قصة فقد يمموا وجوههم شطر عسقلان حيث احتفى الفرنسيون بعيد العنصرة احتفالا رائعا .

ف ٤١

حين يعلم الملك بأن الأمير التركى وألفا من رجـــاله يحصنون قلعة التين يمضى هو الى هنـــاك ويهدمها ، فيهرب جميع من بها

جاء الى الملك من اقليم قلعة التين أحد جواسيسه وأخبره أن ألفا أو أكثر من المسلمين موجودون بالقلعـــة مع الأمير قراقوش ، يبذلون همتهم لتحصينها لمقاومة المسيحيين ان هم مروا بهذه البقعة ، فما كاد الملك يســـمع هذا الخبر حتى انطلق الى هناك ووراءه العسكر ، وقضوا ليلتهم الأولى فى « ارندينتم » أو عيون القصبة ، ثم زحفو ـ مع اطلالة الفجر الى الحصن المذكور الذى سمعوا بتقوية الترك له لدفع المسيحيين فلم يجدوا به غير رجلين من الترك أخذوهما أسيرين ، وكان الترك قد حطموا أبواب القلعة حين انسحابهم السريع حين سماعهم ان الملك وجنده فى طريقهم اليهم بعد احتلالهم الداروم، فذعروا أشد الذعر ، ففـــروا منه ولم يعودوا يلقون بالا الا لنجاة أنفسهم حتى لا يكون مصيرهم مصير اخوانهم التعساء ، فلما رأى العسكر الموضع خاليا من الأعداء صعدوا الحصون العالية وقلبوا أنظارهم فى كل ناحية عساهم يصارخون من يقاتلونه ، فلما لم يبصروا أحدا كروا عائدين وأمضوا ليلتهم فى عيون القصبة .

حين يسمع الملك بما أحدثه أخوه الكونت جون بمملكته من فوضى اشتد جزعه واعتزم العودة الى بلاده

تلقى الملك ريتشارد وهو لايزال هنا رسولا من انجلترا وهو قسيس يدعى « جون النسون » يحمل اليك ما ساد انجلترا من الفوضى بسبب أخيه كونت جون الذى لم يستمع الى نصائح أمه الملكة أو غيرها بل ظل فى ضلاله يعمل ما تمليه عليه أهواؤه التى كان يشجعه عليها ملك فرنسا على يد مبعوثية الذين كانوا جيئة وذهابا بينهما .

وأكد « جون النسون » للملك ان الأمور وصلت الى حافة الهاوية وانه اذا لم يبادر الى وأد هذه الخيانة فسرعان ما سوف تفلت مقاليد السلطة من يده .

استولى القلق على الملك حين سماعه هذه الأنباء فجلس صامتا فترة طويلة يقلب الأمور ويستعرض ما ينبغى عليه عمله ، وانتهى تفكيره الى وجوب الرجوع الى بلده حتى لا ينتهى به الحال لأن يخلع ويطرد من غير حق من أرضه ومن المملكة التى ورثها شرعا .

ولما لم يكن الكثيرون قد عرفوا هذا العزم من جانبه فقد قال لبعضهم « لا شك ان الملك سوف يرجع الى انجلترا » ، وقال غيرهم « كلا ، بل سوف يستمر فيما هو فيه الآن ، ولن تستطيع مثل هذه الأخبار غير المؤكدة ان ترده عن انجاز هذا العمل المقدس الذى شرع فيه ، لأن فى ذلك حرمانه من غزو القدس اذ لو فعل ذلك للطخ شرفه .

اجماع الجيش كله على الذهاب الى القدس ومحاصرتها سواء بقى الملك ريتشارد أو عاد الى انجلترا

بينما تباينت آراء الناس المختلفين حول رحيل الملك ريتشارد اجتمع قادة الجيش وكبار رجالاته من فرنسيين ونرمنديين وانجليز وبواتيين وأهالى المين Maine والانجيفينيين وتعاهدوا بالاجماع ان لا يأذنوا لأحد باعتراض طريقهم أو يحول بينهم وبين محاصرة القدس سواء رجع الملك الى انجلترا أم ظل مقيما معهم ، فلما شاع هذا القرار وأصبح معروفا للجيش كله فاضت نفوس الناس سرورا لا يمكن لأحد أن يصفه ، وعمت الغبطة جميع الناس . فقيرهم وغنيهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ولم يبق أحد ما فى العسكر الا وأظهر بطريقته الخاصة ما تخفق به جوانحه من السعادة التى انعكست معالمها على وجوههم ، فأوقدوا المشاعل وراحوا يرقصون وينشدون مختلف الأغانى حتى انتصف الليل ، ولم تغمض لهم عين طول ليلهم الذى أمضوه فرحين ولم يكن هناك من محزون سوى الملك الذى ظل مستغرقا فى التفكير فيما سمعته أذناه ، وراح يقلب الأمور على شتى وجوهها ويستعرضها واحدا بعد الآخر حتى اذا أنهكه التفكير الممض فى هذه المشكلات ألقى بنفسه فى فراشه غاضبا .

ولما بدأ شهر يونيو كان الجيش كله قد بلغ به الشوق الى الزحف مداه .

ف ٤٤

فى ابلين يهاجم الذباب المسمى Cincenelles وجوه العسكر ويلذعها حتى ليجعلها أشبه بالمصابة بالبرص

زحف الملك والجيش من arundinetum (٢٨) وانطلقوا فى نشاط عبر السهل نحو ابلين (بيت جبرين) التابعة للاسبتارية والمجاورة للخليل قرب الوادى الذى ولدت به مارى المباركة والدة العذراء مريم أم المسيح ، فلما بلغوها توقفوا بهـا برهة قصيرة وكانت الفرحة تغمرهم اذ راحت صـدورهم تخفق بالأمل فى ان يتابعوا رحلتهم الى بيت المقدس .

كانت توجد بهذه الناحية ـ وأعنى بها ناحية بيت جبرين ـ حشرة صغيرة معينة أخذت فى مهاجمة الجيش ، وهى أشبه ما تكون بشرارات طائرة متوهجة يسمونها Cincenelles وكانت الناحية جميعها غاصة بهذه الهوام والفراشـات التى كانت تحوم حول الحجاج بلا توقف .

وتلذع أيديهم ورقابهم وجباههم ووجوههم وأى جزء من الجلد يكون مكشوفا ، ويعقب اللذعة حالا ورم شديد الايلام فيبدو من تلذعه هذه الحشرة وكأنه مصاب بالبرص ، ولم ينجح الحجاج فى ايجاد وسيلة تقيهم ـ حتى ولو بعض الوقاية ـ من هذه الهجمات اللاذعة المؤلمة حتى ولو بستر أيديهم ورقابهم بالقماش .

ولما كانت قلوب الحجاج وصدورهم يهدهدها الأمل فقد أدركوا ان لابد لهم من توطين انفسهم على تحمل المتاعب صابرين ، واتفقت كلمتهم جميعا على المضى قدما الى حصار القدس .

ولم يكن من أحد صار فريسة القلق والاضطراب سوى الملك ريتشارد من جراء ما سمعه .

ف ٤٥

أحد قساوسة الملك ينصحه فى شدة وفى لهجة عنيفة فيقتنع الملك بما قاله القسيس ويرجىء العودة الى بلاده الى وقت آخر

حدث فى ذات يوم من الأيام والملك مستغرق فى التفكير وعيناه مثبتتان الى الأرض أن شـاهده وهو على هذه الحال فى فسطاطه قسيس من بواتييه اسمه « وليم » فأحزنه مرآه أشـد الحزن ، ولما كان هذا القسيس على علم بما كان عليه الملك من غم بسبب التقارير التى وافاه بها الرسل فانه لم يجـرؤ على الحديث معه ليخرجه مما أهمه ، ولكنه أخذ يراقبه بنفس تفيض عطفا عليه ، ثم لم يملك القسيس نفسـه من ان يستخرط فى البكاء المر وهو صامت صمت القبور ، فلما شاهد الملك ايماءاته العطوفة التى تنم عن رغبة حارة فى الكلام اليه قال له : « سيدى الكاهن استحلفك بحق ما تنطوى عليه نفسك من الولاء لى : ألا تلوذ بالصمت وهلا امسـكت عن الحديث معى . وهلا أخبرتنى بسر بكائك ان كان ما يعتورك من ألم يتعلق بأمر يخصنى ؟ » . فأجابه رجل الدين بصوت واه وعيناه مغرورقتان بالدموع : « لن أتحدث اليك حتى تعدنى جلالتكم ألا تسخط على مما سأفضى به اليك » .

فوعده الملك بما أراد وأكد وعده بقسم أقسمه له أنه ليس بمؤاخذه قط على أى شيء يقوله .

فلما اطمأن خاطر الكاهن شرع يقول : « مولاى الملك اما وقد عزمت على المبادرة الى العودة الى بلدك فما من أحد فى الجيش

الا وهو يسلقك بألسنة حداد ، ولاسيما من هم أشد ارتباطا بك وقربا اليك ، والذين يريدون لك الخير والمجد ، وان الرب ليأبى ان تتمكن بعض الاشاعات غير المؤكدة أن تصرفك عن فتح هذا البلد المنكود ، ونحن على بكرة أبينا نعتقد انك ان قمت بهذا العمل فانك لا مشاحة جالب على نفسك عار الأبد ، ولما كنت قد بدأت بداية مرضية فلا تسمح لفكرة عابرة ان تمحو المجد الذى أحرزته حتى الآن ، ولا تدع مجالا لقائل يقول فى الغد انك ركبت مركب الجبن بانصرافك عن عمـــل بدأته ثم تخليت عنه قبل اتمامه .. اذ ما أبعد البون وأشد الاختلاف بين بداية هذا العمل وبين خاتمته التى يتوقعها الناس اذا أنت فشلت ، وانى لا توسل اليك ألا تطمس تالق ما بدأت وما كنت قد شرعت فى أدائه فتسود صـــورتك فى عيون الذرارى ، ففى الذى انت مقدم عليه مفارقة من جانبـك لحجاك وحكمتك .

« ألا لايغيبن عن بالك ياسيدى الملك ما أنعم به عليك الرب ، فقد بارك أعمالك لتظل حية خالدة الى أبد الآبدين ، وحتى يذكرك الناس ولا يمحى اســـمك على مدى الدهور ، اذ لم يحدث قط ان استطاع ملك من ملوك الأرض فى مثل عمرك ان ينجز من الأعمال المجيدة مثل التى انجزتها .

« ألا فاذكر أيهـا الملك كيف كنت يوم كنت لا تزال كونت بواتو Poitou وما من أحد أبدا من جيرانك الأقوياء أو خصم من خصومك الالداء الا وأخضعته لسلطانك بفضـــل بأســـك ، ولا يغيبن عن بالك يا صاحب الجلالة المناوشات الجمة والاضطرابات التى أثارها البراباسونيون (٢٩) Brabacons الذين استأصلت شأفتهم وفرقت شملهم وانت فى طائفة قليلة من قوادك » .

« ألا فاذكر أيها الملك كيف انتصرت النصر الباهر حين رفعت الحصار عن « هوتفورت » Hautefort ، ذلك الحصـــار الذى فرضه عليها كونت سنت (٣٠) جيل وكيف طردته حتى فر من وجهك يجلله العار ويكسوه الشنار .

« الا فاذكر أيها الملك مملكتك التى ورثتها لا ينافسك فيها منافس وحزتها من غير قتال ومن غير أن يعارضك فيها معارض .

« الا فاذكر أيها الملك أعمالك العظيمة المنطوية على الشجاعة ، وكم من الامم أخضعت لسلطانك وكيف استوليت استيلاء بطوليا على مدينة « مسينا » !! ، وكيف أظهرت هناك بأسك حين كبحت جماح الشعب الاغريقي الذى بلغ التطاوه منه عليك ان جرؤ على ان يستفزك ويهاجمك ، ولكن العناية الربانية أبت الا أن تخلصك من ايديهم وتقضى عليهم وتلحق بهم الدمار والضياع » .

« تذكر أيها الملك أنعم الرب التى أنعم بها عليك» وحسب غنى نعمته » « حين أخضعت جزيرة قبرص التى لم يجرؤ أحد من قبلك على القيام بهذا العمل حيالها ولكنك استطعت بفضـــل الرب ان تقهرها فى خمسة عشر يوما ، كما ألقيت القبض على امبراطورها ، ثم التقيت بتلك السفينة الشديدة الضخامة التى كانت عاجزة عن دخول ميناء عكا بسبب الريح التى عاكستها ، ولكنك أغرقتها بفضل شوانيك ، فسقط فى الماء ثمانى مئة تركى كانوا عليها فاغرقتهم فتلقفتهم ثعابين البحر فابتلعتهم فهلكوا .

« ألا لا يغيبن عن بالك يا مولاى الملك ما كان من أمر حصار عكا وكيف وصلت الى هنـــاك فى الوقت المناسب لاحتلالها ، فلما هاجمتها استسلمت لك وكنت يومذاك تعانى أشد الآلام من

المرض الذى ألم بك والذى يسمونه ارنالديا Arnaldia ، لكن شاءت ارادة الرب ان تسبغ عليك ثوب الصحة وتلبسك رداء العافيـة بينما هلك من هذا الداء ذاته كثيرون من الأمراء ولم تكن أنت منهم .

« تذكر أيها الملك هذه الأرض التى عهـد اليك الرب بأمر حمايتها ، وانها لمسئوليتك أنت وحدك لا يشاركك فى حملها مشارك لأن ملك فرنسا رحل عنها رحيل الرعديد . « تذكر أيها الملك أسرى المسيحيين الذين أطلقت سراحهم وحطمت أغلالهم التى كانوا يرسفون فيها وهم بالداروم ، والذين كان التـرك قد صفدوهم ليفرضوا عليهم الرق فبعث بك الرب الى هناك لتكون عونا لهم ، وانى لأتوسل اليك توسلا حارا صادقا ان تسأل قلبك كيف رعاك الرب وشرفك وأنعم عليك بعديد من الانتصارات ، وحالفك النجاح يتلوه نجاح حتى لم يعد اليوم هناك ملك أو أمير يقدر على مقاومتك ، وليس من شك فى أنه لم يفت ذاكرتك كيف أن قلعة الداروم خضعت لك بالأمس القريب بفضل اقدامك واصرارك فتم لك ذلك فى أيام معدودات لا تتجاوز الأربعة ، وما كان لنا أبدا ان ننسى يوم كنت نائما وكاد العدو الخبيث ان يمسكك لولا ان انتزعتك رحمة الرب من أيديهم سليما معافى لم يمسك ضر ولم ينلك أذى ؟ » ، فهل ترانى فى حاجة الى مزيد من القول أزجيه اليك أيها الملك .. وهل ترانى فى حاجة لأن أذكر لك ما كان من الأعداء وقد أحاطوا بك من كل قطر وكيف أمكنك ان تخرج فى النهاية منتصرا عليهم وكيف مزقتهم يمينك شر ممزق فخضعوا لك .. ؟ وهل تراك فى حاجة لأن أعيد عليك خبر المدن التى قهرتها وما صاحب خطواتك كلها من انتصار عليها حتى حالفك النجاح فى كل ما أقدمت عليه .

« ألا فاذكر أيها الملك انك منذ مغادرتك العالم الغربى حتى اليوم وانت تخرج — أينما كنت — من نصر الى نصر ، وان أعداءك

ركعوا عند موطىء نعليـك لتجعل اصـفاد فى أرجلهم ، وان انتايوس » (٣١) Antaeus لم يخسر شـيئا من سـقوطه ، ولا هيدرا بتضخمها « وان السلطان ليهتز أمامك ويستولى الذهول على مصر منـك ويضطرب التـرك خوفا منك » تـرى ماذا أقول أكثر مما قلت لك أيها الملك !!

« أقول ان كل شخص يرى انك والد الجميع والمحامى الذاب عن المسيحية ، فان أنت تخليت عنها فقد تركتها لتكون لقمة سائغة فى فم أعدائها فيبتلعونها ويقضون عليها .

« ألا أيها الملك هلا سرت قدما فيما بدأت فيه ؟؟

« وهلا مددت يد العون للقوم الذين وضعوا آمالهـم فيك عساك تكون مخلصهم ؟

« ألا فامض فى طريقك أيهـا الملك بعون الرب ينر الرب أيامك » .

فـ ٤٦

الملك يعلن لعسكره انه غير عائد الى وطنه حتى عيد الفصح التـالى

سمع الملك ما قاله الكاهن وهو صامت لا ينبس ببنت شفة ولم يعلق عليه بشىء ولكنه كان يدير الأمور — وهى كثيرة — فى ذهنه ويزن كلماته ، ولقد ظل صامتا والكاهن مسترسل فى الحديث اليه كما ان الذين كانوا جالسين معهما فى الفسطاط « ثبتوا أنظـارهم عليه » .

لقد كان لكلام الكاهن وقع شديد فى قلب الملك فبدل كل ما كان اعتزمه ، حتى اذا كانت الساعة الثالثة من مساء اليوم التالى عاد الجيش عن بكرة ابيه وتوقف فى البساتين الموجودة خارج عسقلان ، وكان الاعتقاد الذى ساد الجميع ان الملك يعد عدته للرحيل وانه مسرع فى ذلك كل الاسراع ، الا ان الحقيقة هى أنه قد بدل رأيه بايحاء من الرب وبسبب كلام الكاهن ، وأفضى الى ابن أخيه كونت هنرى والى دوق برجنديا وغيرهما من الزعماء أنه لن يغادر هذه البلاد قبل عيد الفصح (من سنة ١١٩٣ م) رغم كل ما جاء من الالتماسات وما نقله اليه الرسل من الشائعات والشكايات فلما كان الرابع من شهر يونيو الواقع فى الاسبوع الثالث المقدس استدعى اليه الناطق باسمه ، واسمه « فيليب » وأمره أن ينادى فى الجيش كله بعزمه الأكيد على البقاء فى هذه البلاد حتى عيد الفصح القادم وأن على الجميع أن يهيئوا أنفسهم وكل ما يلزمهم حسب امكانياتهم المادية تأهبا لمحاصرة القدس .

ف ٤٧

فرحة الجيش حين سماعه بعزم الملك على البقاء وتهيئته نفسه لمهاجمة القدس

حين ذاع بين الناس نداء المنادى بما كلفه الملك به فرحوا فرحة الطفل بطلوع النهار ، وبادروا على بكرة أبيهم من غير ابطاء بتجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم وحزموا أمتعتهم ، وتأهبوا للرحلة ، ورفعوا أكف الضراعة الى السماء ويقولون : « لك الحمد أيها الرب القوى ، لك الحمد من عبيدك .. نحمدك لأننا سوف نطالع مدينتك التى طال استيطان الترك لها ، وما أسعد ما تمخض عنه تأخرنا الطويل . لقد أجدى علينا الانتظار ولكن ما أروع الخاتمة التى انتهت

اليها متاعبنا وحروبنا التى خضناها طالما أنها سوف تفضى بنا الى اكتحال مآقينا بمشاهدة المدينة التى طال شوقنا اليها » .

كان هذا وأمثاله بعض ما قاله كل الناس .

ولم يكن يؤلمهم سوى انتظار اللحظة التى يزحفون فيها الى القدس ، وفاضت أفئدة العامة الفقراء بالأمل الذى بعث الفرحة فيها فحملوا حقائب أزودتهم على ظهورهم ، وكان كل واحد منهم يظن انه حامل ما فيه الكفاية من الطعام لمدة شهر وهم فى طريقهم الى القدس وليس هناك من شىء الا والعزيمة تتغلب عليه ، وان كل صعب ليهون مادام فى خدمة الرب .

ف ٤٨

وصول الملك والجيش الى تل الصافية وهم فى طريقهم من عسقلان الى القدس التى استعدوا لمهاجمتها

أعد كل فرد نفسه للحملة كما قلت من قبل ، وهيأ لهم ـ صدق رغبتهم ـ ان كل شىء سائر على ما يرام ، وأقام الملك معسكره هو ورجاله خارج عسقلان ثم استعدوا للزحف ، فما طلع عليهم أول أحد بعد عيد الثالوث الأقدس (وكان السابع من يونيو ١١٩٢ م) حتى غادروا عسقلان فى الصباح الباكر ميممين شطر بيت المقدس ، وسارت هذه الجموع المجهزة أحسن جهاز والتى أحسن اختيارها والتى كانت تضم الصفوة المنتقاة من المحاربين ، وزحفوا جميعا وان اتسم زحفهم بالبطء بسبب شدة الحرارة ، ودفعت الشفقة أقوياء البنية منهم لأن يعرضوا استعدادهم لمعاونة الضعفاء لايريدون على ذلك أجرا ولا شكورا بل يفعلونه تطوعا واحتسابا ، وحداهم

التواضع والرحمة الى امداد المشاة بوسائل الانتقال ، فمن كانت عندهم جياد أو أى نوع من حيوانات النقل أمدوا بها فقراء الحجاج كى تحملهم هم ومتاعهم ، على حين سار خلفهم على الأقدام المحاربون الشـباب خفاف الحركة ، القادرون على المشى . لقد كنت ترى يومذاك كثيرا من الرايات والأعلام ، وشبابا فى زهرة العمر ينتمون الى بلاد مختلفة ، وأنواعا شتى من السلاح والتيجان والمغافر المرصعة بالجواهر والزرديات التى تبرق تحت ضوء الشمس ، والدروع المزينة بالآساد الغاضبة أو التنين الطائر ، وكانت هناك جياد كثيرة تتحرق للانطلاق رغم كبح جماحها والزبد متراكم حول أشداقها ، وكان بريق السيوف يلمع فى الأفق ، كما كانت هناك كثرة كبيرة من الفرسان الأقوياء المتمازين الذين أظن انه كانت فيهم الكفاية لسحق الأتراك أو على الأقل لمقاومتهم ان اعترضوا سبيلهم ، وانتهى بهم الزحف الى نهر ماؤه عذب فعبروه الى تل الصافية ، فشرعوا ينصبون خيامهم فى الأودية الموجودة فى خارجها وأمضوا ليلتهم فى هذه البقعة .

وحدث فى الليلة الأولى ان خرج ثعبانان يلاحقان فارسا وتابعه فمات الفارس وتابعه ، فليرحمهما الرب لأنهما هلكا وهما خارجان فى خدمتـه .

وظل الجيش مقيما فى هذه البقعة يومين .

فـ ٤٩

الملك والجيش يصلون من تل الصافية الى بيت نوبة فى ثلاثة أيام ويظل الملك هنا ثلاثة أشهر فى انتظار الشعب ويقوم فى هذه الفترة بأعمال مجيدة

فلما كان اليوم الثالث وهو التاسع من يونيو تحرك الجيش بأجمعه ووصل الى تورون دى شيفاليه (النطرون) دون ان يصادف

ما يعوقه أو يقـاومه ، لكن وقع فى تلك الليلة فى أيدى رجالنـا أربعة عشر رجلا من البارنيين كانوا قد انحدروا من الجبال وجاؤوا للنهب والسلب .

وفى اليوم التالى تحرك الجيش بعد الافطار من هناك وسار الملك فى طليعته مع خاصـة أهل بيته متجها شطر قلعة أرنولد (يلو) فأمر بنصب معسكره على الجانب الأعلى من يمين الحصن ، فلما كان اليوم التالى (وهو العاشر من يونيو) جاءه الفرنسيون ومعظم الجيش وساروا قدما نحو بيت نوبة (٣٢) .

ظل الجيش مقيما هنا ردحا من الوقف فى انتظار كونت هنرى الذى كان الملك قد أرسله الى عكا ليعود بمن كانوا مقيمين بها بلا عمل وذلك بغية منه فى أن يساهموا فى الحملة الخارجة الى القدس ، ومن أجل هذا ظل الجيش موجودا هناك مدة طالت حتى بلغت شهرا أو لعلها قد جاوزته ، وكانت اقامته فى موضع مجاور لسفح الجبل الذى اعتاد الحجاج المرور به وهم فى طريقهم الى المدينة الطاهرة أو فى طريق رجوعهم منها .

وبينما كان الجيش مقيما فى الوادى الذى عسكر به جرت أحداث جمة لا نظن أنه يجوز السكون عن الاشارة اليها .

ذلك أنه فى اليوم التالى لعيد القديس برنابا وكان ذلك يوم الجمعة (الثانى عشر من يونيو) جاءت عيون الملك اليه يخبرونه أن الترك المقيمين فى الجبال ينصبون كمينا للمارين بجواره ، فلما سمع الملك ما قالوه له بادر فى الصباح الباكر فيمم وجهه شطر الجبال بحثا عن الترك وظل يتابع السير حتى بلغ نبع عمواس Emaus (٣٣) فلما بزغت الشمس فاجأهم فأنكروا مجيئه

فكر عليهم فقتل منهـــم عشرين رجلا وطارد الباقين ، ووقع فى يده كاتب صلاح الدين الذى اعتاد قراءة مناشـــيره ، ولم يطلق الملك ريتشارد سراح أحد ممن ألقى القبض عليهم سوى هذا الكاتب .

كذلك استولى على ثلاثة جمال وبعض الجياد والبغال والخيول التركمانية ، يضـــاف الى ذلك ما وقع فى يده من اثنتين من أناث البغال كانتا محملتين بأغلى أنواع الأقمشة الحريرية ، وشتى أنواع التوابل والصبار الى غير ذلك .

كذلك مضى عبر الجبال يطارد المسلمين مطاردة شديدة وفتك بهم وهم يفرون أمامه ، وصـــادفه واحد منهم فى واد من الأودية وألقى به من فوق ظهر جواده فتدحرج على الأرض ففاضت روحه ، فلما انتهى الملك من القضاء عليه نظر حوله فطالعته (٣٤) على البعد مدينة القدس .

فـ ٥٠

حين سمع الترك الذين فى القدس بأن الملك قادم فروا من وجهه واستعد صلاح الدين نفسه للحذو حذوهم

حين علم المقيمون بالقدس من الترك الفارين أن الملك ريتشارد فى طريقه اليهم وجلت قلوبهم اذ لو أنه تابع الزحف وتقدم بجيشه فى هذه الناحية وهم على ما هم عليه من الذعر لتحتم عليهم مغادرتها ولتركوها لمن بها من السكان المسيحيين لاينازعهم فيهـــا منازع ، وحدث أن خلاها على جناح السرعة جميع من بها من الشرقيين وفروا ولم يبق فيها من يدافع عنها أو يجرؤ على البقاء بهـــا والعيش فيها

أحد منهم ، ولم تستطع تهديدات السلطان صلاح الدين ولا اغراؤه الناس بالمال أن تمنع الخلق من الهروب وتحملهم على البقاء فيها ، بل ان صلاح الدين ذاته بعث فى طلب أحسن جواد عنده كما أمر بأن يجيئوه أيضا بحصان قتال سريع حتى يستطيع الهرب من وجه الملك ريتشارد اذ لم يكن له طاقة على انتظار وصوله .

فـ ٥١

للمرة الثانية بينما كانوا مقيمين فى بيت نوبة قام الفرنسيون بمحاربة مئتى تركى لكنهم كادوا ان يفنوا كلهم عن بكرة أبيهم لولا مجيء أسقف ساليسبورى لنجدتهم

وحدث فى هذا اليوم ذاته (وهو الثانى عشر من يونيو) أنه بينما كان الملك مهتما غاية الاهتمام بمثل هذه المطاردات اذا بطائفة من الترك يقدر عددهم بمائتى رجل ينصبون من الجبال الى السهل ويتجهون مباشرة الى الخيام الفرنسية ، فعم القلق المعسكر بأجمعه قبـل ان يتصيدوا هؤلاء المغيرين الذين كانـوا قد فتكوا باثنين من مرتزقتنا المسـلحين ، فلما ترامى الصريخ الى الأسـماع هب الفرنســيون والداوية والاسـبتارية وأغاروا على الترك الذين استبسلوا فى دفعهم ، وكان ذلك عند سفح الجبل وردوهم على أعقابهم .

حقيقة أنه حين اشتبك الترك مع رجالنا فى السهل فر الترك منهم سراعا حتى بعدوا عنهم لكنهم ما كادوا يصبحون عنـــد لحف الجبل حتى عادوا للمقاومة ، وأصـــابوا واحدا من فرساننا فأردوه قتيلا ، فعيب ذلك على الفرنسيين ولامهم الناس من أجله لوما شديدا .

لقد كان هناك فارس من الفرسان كاد أن يكون له المجد لو لم يخالف سنة جماعته ، حين ظن أن ما هو مقدم عليه سيكون مبررا له فى اقدامه وذلك لما ينطوى عليـــه عمله هذا من البســــالة التى لاينكرها أحـد .

كان هذا الرجل من جماعة الاســـبتارية واســـمه روبرت بروجس (٣٥) Bruges ، فقد انســـل من تحت البيرق الملكى وجاء الى الملك وكان يتلهف على الاشتباك مع العدو وهو يعلم انه ان بادرا الى الاشتباك بالعدو كان فى عمله مخالفـــا للمتفق عليـه ، الا أنه سرعان ما همز جواده الأصيل الذى يمتطيه وغادر صفوف رفاقه الذين حاولوا منعه مما هو مقدم عليه فعجزوا عن اللحاق به ، وهجم هو وحده على العدو مخترقا صفوفه ، ثم لمح تركيا مسلحا أحسن تسليح فاقترب منه ووثب عليه وثبة لم ينفع التركى فيها درعه الذى عليه ، ولم يحفظه من رمح عدوه « بروجس » القوى الذى نفذ من ظهره فخر صريعا وظل ممددا لم يرفعه أحد من رقدته ، ولما رأى رجالنا ما ألحقه رجلنا بصاحبهم هبوا جميعا فى لحظتهم ووجهوا جيادهم فدخلت فى صفوف خصومهم .

ثم قام كبير فرسان الاسبتارية جارنيـــه (٣٦) (النابلسى) وطلب من « روبرت بروجس » ان يتنحى عن جواده وان ينتظر قرار جماعته الاسبتارية بشأنه ، فأطاعه الأخ « روبرت بروجس » وعاد من ساحة القتال الى المعسكر راجلا ، وظل ينتظر بفارغ الصبر حتى جاء الكبار أصحاب السلطة فركعوا على ركبهم أمام الفارس الأعظم « جارنييه النابلسى » ونجحوا فى حمله على مسامحة الأخ « روبرت » والعفو عما ارتكبه من الجرم على شرط ألا يعود لمثله مرة أخرى فى المستقبل (٣٧) .

ظلت خاتمة الصراع بين الجانبين (الاسلامى والصليبى) موضع شك أمدا طويلا وأجهد القتال كلا الطرفين اجهادا كلفه كثيرا من العرق ولكن كان عند كل منهما من العزم والتصميم على مواصلة القتال مثل الذى عند خصمه .

وضج الأفق بالمعركة ، وابتل أديم الأرض بالدماء المسفوحة ، وعانقت السيوف السيوف ، وكان لعناق بعضها بعضا صوت عال ، وملأ الغضب قلوب كل فريق ، وضجر رجالنا من شدة وطأة القتال فأخذوا فى التراخى فى اللحظة التى تفضلت العناية الالهية فارسلت اليهم فيها أولا كونت بيرش Perche الذى وصل الى سمعه ما كان من أمر القتـــال ، الا انه حارب فى تراخ ولولا قدوم أسـقف ساليسبورى ومن معه من العسكر على وجه السرعة لنجدتهم لهلك الفرنسيون فى ذلك اليوم ولقضى عليهم القضاء المبرم .

ف ـ ٥٢

للمرة الثانية وفى أثناء اقامتهم هناك قام فرساننا الأمجاد الذين وكل اليهم حراسة قوافلنا القادمة من يافا وعوملوا أسوأ معاملة من جانب الترك الذين انهـالوا عليهم ضربا بالهراوات ضربا مبرحـا ، وكادوا ان يفتوا من بكرة أبيهم لولا مجىء ايرل يسيستر لمساعدتهم

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من شهر يونيو وهو يوم الاحتفال بعيـد القـديس بوتولف Botolph غادرت احـدى قوافلنا يافا ميممة وجهها شطر جيشنا تحمـــل اليه الطعام وغيره من كل متاع ضرورى ، وعهـــد بحراستها فى ذلك اليـــوم الى فيريك Ferric الذى كان من أهل فيينا وكان يقوم مقـــام كونت هنرى الذى كان مفروضا أن يقوم هو بحراسة مؤخرة هذه القافلة ولكنه خرج فى مهمة

الى عـــكا فمضى « فريـــك » الى بلـــدويـن (٣٨) Carvon
و « دى مونت شاللون » de mont challon يســـالهما أن ينوبا عنه فى حراسة القافلة فى ذلك اليـــوم وان يراقبا جماعتنـــا فى مسيرتهـا حتى لا يتفرق رجالهـا بعضهم عن بعض أثنـاء سيرهم ، والا يأذنا لهم بالانفصال عن بعضهم البعض ، الا أنهم رغم ذلك ساروا غير مكترثين بما يصادفهم من الأخطار ، ودفعوا الثمن غاليا بسبب اهمالهم وعدم مبالاتهم . ذلك انه كان هناك « مناسييه دى ليل » (٣٩) Manessier de l'Isle « وريتشارد دورك » d orque وتييرى وفيليب وبعض رفاق بلدوين كارون Carron وأوتو وحشـد كبير جدا من أتباعهم وأقاربهم وأصدقائهم الذين برهنت الظروف على جدوى صداقتهم بعضهم لبعض .

وسار الذين فى الطليعة بسرعة فائقة ، أما رجال المؤخرة فقد تبعوهم ولكن فى بطء شديد فأضاعوا الوقت سدى حتى اذا كانوا فى موضع غير بعيد عن « الرملة » خرج عليهم فجأة من كمين خفى جماعة من الترك كانوا على جيادهم واندفعوا على مؤخرتنا ، وحاول كل منهم أن يكون أسبق من غيره فى الهجوم فأما الذين كانوا على الجياد السريعة العدو فقد اخترقوا صفوف آخر كتائبنا ودخلوا فيها وخلصوا منها الى ما سواها ، وترتب على هذا القاء « بلدوين كارون » من على ظهر جواده فما كان أسرع منه من أن جـــرد حسامه وراح يكيل به الضربات المتتابعة ينزلهـــا على مهاجميه بصورة لم تمكنهم من مســـه .

كذلك ســـقط فى هذا الاشتباك من فوق جواديهما كل من « ريتشارد دورك » و « تييرى » أما بلدوين فقد ظل يصارع أعداءه صراعا يستحق عليه الثناء حتى أسعفه رجاله بجواد كانوا قد وجدوه وأركبوه اياه .

لو نسنى لك رؤية الاشتباك يومذاك لرأيت اشتباكا شديد العنف كله مصـــادمات وضربات قوية التسديد ، وسيوف تلمع نصالها ، وهجمات لا يصيبها الكلل ، ومقاومة مدهشـة من كلا الجانبين .

وكنت ترى فى هذا الالتحام جيـــادا تجرى هنا وهناك وليس عليها من أحد ، وترى الترك لا يكلون من الهجوم ، ورجالنا يقاومون ولا يثنيهم ثان عن المقاومة ، فكان الترك اذا صرعوا أحدا قام كثيرون غيرهم فى وطيس القتال ورفعوه وأركبوه جواده ثانية ، والحق انهم كانوا يتعاونون فيما بينهم تعاونا فعالا وكبيرا .

الا أن رجالنـــا كانوا يقاتلون فى ظروف غير مواتيـة لهم ، اذ بينما كانوا — وهم قلة — يقاتلون عسكر العدو الا ان كلا منهم كان بعيدا عن الآخر بعدا كبيرا حتى ان الواحد منهم كانت تخفيه عن رفيقه جموع الخصم الكثيرة فلا عجب اذا تمكن الترك بأعدادهم الكثيرة — رغم مصرع العديد منهم — أن يحدقوا برجالنا وأن يشددوا الضغط عليهم ، ناهيك بالسهام التى كانت تنهال عليهم انهيالا كثيفا وتصيب الجياد بالعجز عن الحركة ، وزاد الطين بلة ما أصاب بلدوين من ضربة طرحته من فوق ظهر جواده مرة أخرى فلما رأى نفسه فى هذا الوضع أسرع فأمر واحدا من أتباعه ان يتخلى له عن جواده الذى تحته ويعطيه اياه ، وقد أظهر هذا التابع شجاعة عظمى فنزل عن صهوة حصانه وقدمه له ، لكن ما كاد بلدوين يركبه حتى رأى رأس تابعه تنفصل عن بدنه وتتدحرج على الأرض .

ثبت رجالنا فى موقفهم يدافعون عن أنفسهم ، أما فيليب صديق بلدوين فقد وقع فى أسر العدو ، وكان من أبـرز المقاتلين فى هذا اليوم وأصدقهم بلاء فى اللقاء ، وساق الترك مع فيليب تابعا آخر يعد من أعظم المحاربين ، كما قتلوا أخا ريتشارد .

لقد ناضل بلدوين ورفاقه أكرم نضال وحاربوا فكانوا نعم من خارب بالسيف ، وكان « كلارمبالد » قد تخلى عنهم حين رأى الترك يتزايدون لحظة بعد لحظة .

وحين بدأ الاشتباك المرير مرة أخرى سقط بلدوين لثالث مرة من فوق جواده ، وتناوب أعداؤه ضربه ضربا عنيفا بهراواتهم وهو ضعيف لا قوة به ، وتدفق الدم غزيرا من أنفه وفمه ، وانثلم حد حسامه وأصبح غير ذي جدوى من كثرة ما ضرب به ، فلما اشتد ضغط عـدوه عليه نادى بصـوت عال عـلى مانسـيـيه دى ليـل Manessien de l'Isle وكان من الفرسان المغاوير الذين تغلبوا على كل من تعرض له من الترك وصاح به : « هل تخليت عنى يا مانسييه ؟ » فلما سمع مانسييه صيحته هب مسرعا لنجدته من أيدى الترك ، الا أنهم كانوا أكثر من ان يستطيع رجلان فقط ردهم ، ومع ذلك فقد ظلا يدفعانهم فترة طالت .

كذلك أسقط التـرك « ما نسييه » هو الآخر من فوق ظهر جواده وانهالوا عليه ضربا لا رحمة فيه ولا هوادة بهـراوات ذات أسنان حديدية وهو مسجى على الثرى ، ويشـكونه برماحهم حتى تكسرت عظام أحد ساقيـه ، وهكذا وقع بلدوين وما نسييه تحت وطأة الغوغاء المعادين لهما الذين تكاثروا عليهما حتى لم يبق أحد من أصحابهما يراهما من كثرة من حولهما ، ولم يعد أحد يدرى ما حل بهما .

الا أن الله بعث لهما من يخلصهما ويدافع عنهما ، وكان هذا المخلص هو ايرل « ليسيستر » الذى لم يكن يدرى شيئا عما هما فيه من محنة ، لكنه هجم عجمة ضارية فتصدى له تركى على جواده

فأطاح به الايرل من فوقه فتلقاه « اوبسون » Aupcon صـديق «لونجشامب» فعاجله بضربة من سيفه قط بها رقبته وأطاحها من فوق كتفيه وقذف بها بعيدا .

ولقد برهن سـتيفن فى كل موقف على أنه ابن بجدتها ، وأخذت قواتنا فى الزيادة من ناحية العدد ، كما أخذ بأس العدو فى التضاؤل بصورة جعلتهم يفرون الى الجبال الا من شاء القدر أن يشتبكوا مع رجالنا فأمسكوهم .

ولما فرغ رجالنـا من ذلك عطفوا على من أثخنتهم جراحـهم ومن سقطوا فى ساحة المعركة فأركبوهم الجياد ورجعوا بهم الى المعسكر .

وانى لأعد ما جرى فى هذا اليوم من الأمور الجديرة بألا يطويها النسيان ، لاسيما ما كان من ايرل « ليسيسر » من استئصاله الترك فكانوا ما بين قتيل وأسير .

ف ٥٣

فى أثناء بقاء رجالنا جاء أسقف سنت جورج السـورى الى الملـك بقطعـة من الصليب وأعطاها له (٤٠)

حين قدم المسلمون لأول مرة الى الاقليم الواقع حول بيت المقـدس وعاثوا فيه تخريبـا استسلم أسـقف سنت جـورج لصلاح الدين ودفع له الجزية نيابة عن نفسه وعن ناسه ، وبذلك عاد الى ريتشارد ومعه حشد كبير من أهل ملته رجالا ونساء ، كما جاءه بقطعة من الصليب الطاهر وأعطاها له .

أحد الرهبان يجيء الى الملك ريتشارد أثناء وجوده هناك ويخبره انه كان قد أخفى قطعة من الصليب الطاهر فى موضع عينه له فيذهب الملك معه الى هناك ويعثر على هذه القطعة ويعود بها ، ويهلل هو لها وكل الجيش

وجرت مرة ثانية وقبل ثلاثة أيام من عيد القديس يوحنا المعمدان وفى يوم عيد سنت البان St. Alban (وهو يوم ٢٢ يونيو) أخبار سارة اذ وفد الى باب الملك وهو فى الموضع الذى كان الجيش مرابطا فيه رئيس أحـد الأديرة وكان هذا الكاهن معروفا بشدة ورعه وتقواه ، ونم وجهه عن روح صافية ، وله لحية طويلة وشـعر أبيض كالثـلج ، وكان موقرا محترما يوحى مرآه بالتبجيل ، وكان ذلك الراهب هو رئيس دير سنت ايليا Elijah وأفضى الى الملك انه يحتفظ منذ أمد بعيد بقطعة من الصليب الطاهر ظل يخفيها حتى تأتى الفرصة التى يعيد الرب فيها الأرض الطاهرة الى أصحابها وتتحرر من نير الترك وترجع الى سابق عهدها ، وادعى هذا الراهب انه هو وحده الذى يعلم بهذا الكنز ويعلم أين هو مدفون ، وذكر فيما ذكر أن صلاح الدين طالما سـعى لديه سعيا حثيثا وحاول بشتى الطرق أن يحمله على اعطائه هذه القطعة من الصليب ، ولكنه ظل على الدوام تاركا سائله من غير اجابة صريحة، وكانت ردوده مبهمة غامضـة ومضللة غير صـادقة ، حتى ضاق صلاح الدين به ذرعا فأمر فقيد قيدا غليظا حتى يستجوبه ، ولكنه

كان يصر على القول بأن هذه القطعة ضاعت منه حين تم الاستيلاء على بيت المقدس (٤١) .

وبذلك ضلله وجميع مستجوبيه .

ما ان سمع الملك حديث الراهب هذا حتى انطلق فى الحال هو وكثير من الخلق فى خشوع تام وقادهم الراهب الى موضع حدده لهم فوجدوا الأثر كما أشار فرفعوه فى تجلة وتوقير من مكانه وعادوا به الى الجيش فى مهابة تتكافأ وجلالة ما يحملون .

وأحاطه النـاس بأعظم تقـدير وتوقير وتهافتوا على تقبيله وذرفوا كثيرا من الدموع المتدفقة عن ايمان .

هنا ينتهى الكتاب الخامس

★★★

الكتـــاب الســـادس

فـــ ١

الفرنسيون يرغبون فى زيارة القدس لكن الملك ريتشارد يرفض الاستجابة لهم ما لم يوافق على ذلك الداوية والاسبتارية ومواطنو البلد

ظلت نشوة الفرح تغمر الجيش بعض الوقت من أجل [قطعة] الصليب الطاهر (١) وعكفوا على توقيرها ، ثم أخذ عامة الناس فى التذمر قائلين : « ترى ماذا نفعل الآن أيها السيد الرب ٠ ؟ ترى هل كتب علينا البقاء فلا نذهب حتى هذه اللحظة الى القدس ؟ ... ترى ما الذى بقى علينا أن نفعله ولم نفعله ؟ ٠٠ هل كتب علينا أن نبقى على ما نحن عليه !! ٠٠

كان هناك كثير من الهمهمة ، كما عمت الشكوى جموع العامة ٠

واجتمع الملك وزعماء الشعب ليتباحثوا فيما اذا كان ثم جدوى فى زحفهم لمحاصرة بيت المقدس ٠

فأما الفرنسيون فقد ظلوا يتوسلون الى الملك ويلحون عليه الحاحا مستمرا يرجون الزحف على القدس لحصارها ، وكانوا يرون ذلك أصلح الأمور لهم ٠ الا أن الملك رد عليهم بأن ليس فى الامكان الاستجابة لما يريدونه وقال لهم : « انكم لن تروني أقود

الجموع من أجل هذا العمل وفى ذلك مخاطرة سوف يلومنى الجميع على أن أقدمت عليها ، ومع هذا فانى مخبركم انكم ان شئتم المضى الى القدس فلن أتخلى عنكم ولن أفارقكم ، بل سأكون رفيقا لكم ولكن لست قائدا لكم » ٠٠٠٠ اننى سوف أتبعكم وأكون خلفكم ولن أسبقكم ٠٠٠٠ أو أتقدم عليكم ٠٠٠٠ انكم تعرفون أن صلاح الدين يعرف كل شيء يجرى عندنا فى الجيش ، وهو واقف على مدى قوتنا ، عارف بما نحن قادرين عليه ، وماذا فى وسعنا ان نعمله ، ويعرف أننا بعيدون كل البعد عن الساحل ٠ وعليكم أن تتصوروا لو ان صلاح الدين وقومه نزلوا سهل الرملة وهيمنوا على المسالك وسدوا الدروب وأغلقوها أمامنا ، فحينذاك سوف يستحيل وصول أية ذخيرة الينا ٠ أفلا تظنون حينئذ أنها ستكون كارثة الكوارث التى تنزل على رؤوس المحصرين ٠ وسيعمهم الندم ولكن لأن ساعة مندم ، اذ لا رجعة لما قمنا به ، « والى جانب ذلك فالواجب يقضى علينا ان نعرف ان حصار القدس سيكون حصارا لرقعة شاسعة فان قامت قواتنا بحصارها من كل النواحى فقواتنا كما تعلمون قليلة بالنسبة لهم ، وليس عندنا العدد الكافى من الرجال الذين يمكنهم النهوض بأعباء الحصار وبنجدة أولئك الذين يجلبون الينا ما نحتاجه من الطعام والأزودة ان هاجمهم الترك ، وسيكون فى ذلك القضاء المبرم عليهم جميعا اذ لن يوجد من يمكنهم مد يد المساعدة اليهم ٠

« لو انى صاحب هذه المخاطرة الطائشة ثم حدثت مصيبة للجيش – لا قدر الله وأنا قائدهم – فسأكون أنا وحدى حينذاك المتهم بالغفلة والجهالة ، ولو أنى خرجت الآن وزحفت بالجيش لحصار القدس لكنت موضع لوم الجميع ولسلقونى بالسنة حداد اذ يقولون انى عرضت الكل للهلاك ٠ يضاف الى ذلك انى واثق كل الثقة انه يوجد بيننا الآن وكذلك فى فرنسا رجال أعرف أن نفوسهم تهفو منذ أمد بعيد – ولا زالوا تحدوهم الرغبة العارمة – فى أن أوجه جهودى للقيام بالاندفاع الطائش فى مشروع كهذا

المشروع الذى سوف يجلب على العار ٠ وان هذا هو السبب الذى من أجله أنكر الاقدام فى تهور على مثل هذه الخطة الصعبة التى ليست بمأمونة العاقبة ولا بمحمودة الخاتمة ٠

« يضاف الى ذلك اننا وشعبنا قوم أغراب عن هذه الديار لا نعرف شيئا عنها ونجهلها كل الجهل ، وليست عندنا دراية بدروبها ولا بمسالكها ، ولو كنا عالمين بها لسرنا آمنين وفى حذر ولأدركنا كل ما نصبو اليه من النجاح ٠

« ان الرأى عندى هو ان سلامتنا تتمثل فى العمل بما يشير به علينا أهل البلاد الذين تحدوهم الرغبة فى استرداد أراضيهم السابقة وما ورثوه عن أسلافهم ، وأن نعمل بما يرونه أجدى عليهم لأنهم أدرى بمصالحهم ، ويخيل الى أنه ينبغى علينا أن نسير وفق ما يقضى به الداوية والاسبتارية ، وأن نلتزم بما نأخذ به أنفسنا حينذاك : فاما أن نتقدم فنحاصر القدس واما أن نزحف فنستولى على مصر أو بيروت (٢) أو دمشق ، ونحن اذا ما التزمنا بالعمل وفق ما يقررونه فلن يتفرق جيشنا شيعا من جراء ما يدب بيننا من شقاق كما هو حادث الآن ٠

فـ ٢

الاتفاق يتم على اختيار عشرين من الحكماء والتزام الجميع بما يقضون به فلما أقسموا اليمين رجحوا القيام بالحملة على مصر بدلا من الذهاب الى القدس فوافق الملك على ما قرره العشرون ولكن عارضه الفرنسيون

وافق الجميع على ما ارتآه الملك من اختيار عشرين محلفين أمناء ليقرروا ما يجب عمله فان أجمعوا على شيء فلا معارض له ، ومن ثم تم اختيارهم على النسق التالى (٣) :

خمسة من الداوية
وخمسة من الاسبتارية
وخمسة من بلاد سورية (٤)
وخمسة زعماء فرنسيون ·

واجتمع هؤلاء العشرون سويا واستغرقوا وقتا غير قصير فى مناقشة المواضيع المشار اليها ، ثم خلصوا الى أن أجدى الأمور نفعا هو الذهاب لمحاصرة مصر ، فلما سمع الفرنسيون هذا القرار رفضوه رفضا باتا وأعلنوا أنهم لن يتحركوا الى أية جهة غير القدس ولن يحاصروا سواها ·

انزعج خاطر الملك حين أدرك ان الفرنسيين معارضون وانهم خارجون على الاجماع وقال : « لو قبل الفرنســيون نصيحتى فنصيحتى لهم أن يلتزموا بعهدهم ويقبلوا متــابعة الزحف لحصار مصر ، وسأمدهم بأسطولى المرابط بعكا وهو مجهز أحسن التجهيز ، وسيحمل وفرة كبيرة من المئونة وكل ما هو ضرورى ، وبذلك يستطيع الجميع متابعة السير عبر الساحل وهو طريق مأمون ، وسأقود بنفسى سبعمائة فارس وألفى محارب من المرتزقة أتكفل بجميع نفقتهم التى سأدفعها من جيبى فى سبيل الرب · زد على ذلك أنه ان احتاج أحد الى مجهودى أو أعوزه المال أو كان ينقصه أى شىء يكون عندى فسأمده به عن رضــا وطيب خاطر وبكل ما يحتاجه ·

« واذا كانوا يرون انه يتحتم علينا القيام الى جانب ذلك بأمر آخر فلن أرفض الذهاب معهم ولكن مع حاشيتى فقط ولن أقود أجانب وأغرابا قط » ·

قال الملك ريتشارد هذا الكلام ثم أمر رجاله أن يجتمعوا فى الحال فى خيام الاسبتارية للتباحث فيما يستطيع كل شخص أن

يساهم به فى مسألة الحصار وكم من الأعداد يستطيع كل فريق تقديمه ·

حينذاك جاؤوا ووعد السادة وبقية المجتمعين المساهمة بأشياء كثيرة من أجل هذا الحصار ، ولم يقصر فى ذلك أحد حتى الذين لا يملكون الا النزر اليسير من المال أو كانوا أهل متربة · غير أنه لم يكن من الحكمة أو العقل – ولكنه أدخل فى باب الوقاحة – أن يركب الفرنسيون هذا المركب فى مثل هذا الوقت العصيب وأن يشرعوا فى حصار القدس بعد ان ندد المحكمون بهذه الخطة أشد التنديد ، ونصحوا بالانصراف عنها تمام الانصراف ·

ف ـ ٣

فى أثناء اقامتهم هناك يجىء برنارد جاسوس الملك مخبرا بقدوم قوافل كبيرة من بابليون فيسرع الملك والفرنسيون بالخروج لأخذها على حين يرسل صلاح الدين فرسانا من جانبه لحمايتها

وبينما كان القوم جالسين يبحثون ما سوف يقدمه كل واحد من أجل الحصار جاء برنارد جاسوس الملك ومعه اثنان غيره من أهل البلاد – من مصر – متزيين بالزى الاسلامى ، ولم يكن ثلاثتهم يختلفون عن المسلمين فى مظهرهم ، ولم يكن لهم من عمل سوى اطلاع الملك ريتشارد على تحريك المسلمين ·

كان الثلاثة يجيدون الكلام بالعربية اجادة تامة ، وقد سبق لكل واحد منهم أن تسلم من الملك ريتشارد مائة مارك فضى ازاء ما يؤديه من الخدمات للملك الذى أخبروه بوجوب قيامه ومن معه على وجه السرعة لاعتراض القوافل (٥) القادمة من مصر ، ووعد الثلاثة الصليبيين أن يقودوهم فيدلوهم على القوافل ·

اغتبط الملك كل الغبطة مما سمعه منهم ، ومن ثم بعث الى دوق برجنديا يطلب اليه أن يوافيه على جناح السرعة بمن معه من الفرنسيين ليصحبوه فى الخروج ، فاستجاب الدوق لطلب الملك ، غير ان الفرنسيين لم يجاوزوا الوعد لكن على شرط أن يكون لهم ثلث الغنيمة .

ووافق الملك على ما طلبوه .

وخرج فى الحال ما يقرب من خمسمائة فارس من الفرسان المسلحين أحسن سلاح ، كما سار الملك هو الآخر على رأس ألف مرتزق من كبارهم وأمهرهم فى القتال ، وكان الليل قد أرخى سدوله على الكون وتقدمهم الملك ، وظلوا سائرين طول ليلتهم وأدلجوا مهتدين بنور القمر حتى بلغوا « قرطيا » (٦) Galatia فتلبثوا طلبا للراحة وبعثوا الى عسقلان فى طلب الطعام ، وأخذوا حذرهم ، وكانوا قد حرصوا على تسليح أنفسهم حتى عاد خدمهم الذين كانوا قد أرسلوهم من أجل الطعام .

ويقال انه عندما خرج رجالنا أول ما خرجوا لاعتراض القوافل رآهم أحد عيون صلاح الدين وكان فى القدس فأخبر مولاه انه قد رأى الملك ريتشارد فى طريقه الى القوافل مع جماعته ، « وبذلك انكشف المستور من اتحا هنا السرى » فبعث صلاح الدين فى لحظته خمسمائة تركى اختارهم من الأشداء الأقوياء لحراسة القوافل ، وكان سلاحهم النبال والسهام ، فلما تكاملوا واحتشدوا مع من كانوا قد وكل اليهم فى الأصل حراسة القوافل بلغ عددهم ألفى فارس على ظهور الخيل الى جانب عدد كبير من المشاة .

الملك ريتشارد ورجاله يحاربون الترك حرب الأبطال ويمسكون بقافلة واحدة محملة بكثير من الأشياء الثمينة ويستولون على عدد لا يحصى من الابل والخيل والبغال والحمير .

بينما كان الملك ريتشارد ومن معه قد توقفوا قليلا فى « قرطية » اذا بجاسوس يأتيه ويخبره بأن احدى القوافل المشار اليها تمر الآن بالصهريج المستدير القريب من تل خويلفة ويشير عليه أن يسرع لاعتراضها وأخذها وان يظل الجيش كله بعضه مع بعض وقال فيما قاله له : « فمن يمسك هذه القافلة سوف ينال كسبا عظيما » .

على انه لما كان هذا الجاسوس من مواطنى هذه البلاد فان الشك خامر قلب الملك فيما قاله ومن ثم بعث فى الحال ببدوى واثنين من التركوبول المحليين الموثوق بهم لينظروا القضية ويتقصوا الحقيقة. وأمرهم أن يتزيوا بالزى البدوى حتى يخيل لرائيهم أنهم مسلمون .

وأسرى الثلاثة وعبروا تلالا غاصة بأبراج الحراسة ، ونزلوا الجانب الآخر من التلال حتى أبصروا بعض المسلمين فوق هذه الأبراج ، وكان هؤلاء المسلمون هم أيضا عيونا ترقب المارة ، فلما دنا منهم رجلنا البدوى وقد أخذ حذره ليستكشف أمرهم أكثر المسلمون من سؤاله أسئلة دقيقة فسألوه : من أين قدم ؟ وما وجهته ؟ ، فأشار البدوى الى رفيقيه اشارة أدركا منها أنه يأمرهما بالتزام الصمت حتى لا تدل لهجتهما على من يكونان ،

أما البدوى فقد أجاب سائله انه ورفيقه كانوا راجعين من نواحى عسقلان حيث كانوا قد ذهبوا اليها للنهب والغنيمة ، لكن أحد المسلمين قال له « كذبت فما جئت الا عينا أيها التعس الشقى لأنك مع ملك الانجليز » .

فرد عليه البدوى « بل الكاذب أنت يا صاح !! » .

ثم حث الخطى نحو القوافل .

فطاردهم الترك لحظات بنبالهم وسهامهم وضايقوهم مضايقة شديدة حتى اذا ملوا المطاردة والرمى كفوا عن متابعتهم مرجحين انهم من نفس جماعتهم أكثر من أن يكونوا أغرابا .

وعرف جواسيسنا كل شىء عن هذه القوافل وحينذاك عادوا الى الملك ريتشارد وقالوا انه لا شك انه سيكون قادرا على أخذ هذه القوافل ان هو تقدم على عجل ولم يتريث أو يبطىء .

فلما وثق الملك مما قاله عيونه أمر باعداد علوفة سريعة من الحبوب ثم بادر الى الخروج مع قومه وساروا ليلتهم هذه كلها حتى أبلغهم السرى ناحية قريبة من المكان الذى كانت القوافل قد توقفت به وقد رقد حراسها التماسا للراحة . ووقف الملك ورجاله على مسافة قريبة من هناك متأهبين بسلاحهم ومرتبين صفوفهم واحدة وراء أخرى ، فأما الملك فاتخذ موضعه فى المقدمة ، وأما الفرنسيون فكانوا فى المؤخرة ، ثم نادى المنادى بما قرره الملك اذ أمر بألا تمتد يد بالنهب الى شىء ما أيا كان هذا الشىء ، ولكن عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم فى اختراق صفوف الترك وسحقها .

كان النهار قد بزغ وهم لازالوا مشغولين بترتيب صفوفهم حين جاء جاسوس آخر يطوى الأرض طيا ليخبر الملك ان القافلة

تتهيأ منذ اطالة الفجر للتحرك من الموضع الذى هى به ، فقد جاء الخبر الى حراسها بأن الملك وعسكره على وشك الهجوم عليهم ، فما أن سمع الملك بهذا النبأ حتى أمر الرماة بالنبال والسهام بعمل كل ما فى قدرتهم لتأخير الترك عن التجمع والمسير بأن يظهروا لهم بمظهر من يتحداهم للاشتباك فى القتال فيدعوهم الى الابطاء ويهاجمهم رجالنا فى سرعة .

بينما كانت المناوشات قد ساعدت على تأخير الترك كانت صفوف مقاتلينا تقترب منهم بسرعة ، فلما رآهم الترك قادمين عليهم فروا الى رابية عند تل قريب منهم ، وتجمعوا هناك كأنما ظنوا أن هذه الرابية فى ارتفاعها أكثر أمنا ، ثم اصطفوا وان وكانوا أقل عنجهية مما جرت عليه عادتهم ، فلما هاجمهم عسكرنا قابلهم الترك باطلاق السهام عليهم ورموهم بالرماح رميا كثيفا متواصلا حتى لكأنه حبات النـدى تسـاقط على وجه الأرض ، على حين كانت القوافل تقف فى ناحية معينة .

وقسم الملك جيشه قسمين ، واندفع على الترك فى بأس شديد ، فاخترق صفهم الأمامى وهاجمهم فى عنف وشدة وقاتلهم حتى تركهم صرعى ، بل ان الذين لم يهاجمهم الملك ارتدوا على أعقابهم فارين على وجوههم فلم يدعهم رجالنا ينجون بل جدوا فى آثارهم حتى لم يبق فى الناحية من آثار الحرب الا ما كان من سهم هنا وقوس هناك ، وكانوا يفرون على وجوههم فرار الأرانب تحاول النجاة مذعورة من كلاب الصيد ، وتفرقوا شذرمذر أمام مطارديهم .

أما القافلة فقد بقيت وليس من أحد معها فانطلق رجالنا اليها وهم أنشط مايكونون يصرعون من يصادفونه يمنة ويسرة ، ولم يكفوا عن المطاردة ، والترك يتساقطون وقد أهلكهم الظمأ الذى

قاسوه فى الصحراء الجرداء ، فاما جميع من قفاهم فرساننا فقد أنزلوهم عن جيادهم وقتلوهم وكانت سرجهم ترى مقلوبة ظهرا لبطن ، ودارت دائرة السوء كأسوأ ما تكون على المغلوبين .

ولقد قاتل الذين فى صحبة الملك قتالا عظيما ، كما أظهر الفرنسيون شجاعة فائقة لتمرسهم بفنون الحرب وخوضهم المعارك ومع ذلك فقد شأهم الملك ريتشارد وبزهم جميعا وتفرد عن الجميع، بانه كان يعتلى صهوة جواد عال انطلق به يكر وهو يضرب برمحه ذات اليمين وذات الشمال حتى تثلم حده من كثرة الضربات الموجعة التى أصاب بها الأعداء ، وتكسر نصل رمحه فصار شظايا غطتها الدماء ، وحينذاك استل حسامه من غمده وحمل على الفارين حملة طرحهم فيها أرضا وقتلهم قتلا لم تأخذه فيهم رحمة وما كف عما أخذ به نفسه فيهم حتى أفناهم عن بكرة أبيهم ، ومزق الباقين شر ممزق ، وما من أحد منهم وقع فى يده الا أهلكه ، أيا كان سلاح هذا الشخص ، وكانت الضربة يضربها فيخترط بها رأس المضروب وتنزل حتى أسنانه ، وبذلك مزق شمل من أرادوا الهرب ولكنهم كانوا فى هروبهم كالغنم تفر من ذئب ضارى لا نجاء لهم منه .

بينما كان الملك يقاتل الترك على هذه الصورة دون أن يعتريه كلل أو يشكو مللا انطلق رجالهم يفرون من وجهه فى كل ناحية ، فركب فى أقفيتهم وأمسك باكابرهم وهم يفرون الى الجبال، وحاول بعضهم مراوغته فراحوا يسلكون دروبا وشعابا عبر الجبال ، ثم عادوا فهاجموا مؤخرتنا مؤملين من وراء حركتهم هذه أن يجنوا شيئا ولو ضئيلا ينزلونه بالذين كان الملك خلفهم وراءه وتركهم ، وكان الأعداء لا يبصرونه قط الا وتفارقهم شجاعتهم وكان أخوف ما يخافونه منه ان يحين حينهم على يده وحق لهم ما كانوا يخافونه فالموت عاقبتهم ان لاقاهم .

والتف حوالى ثلاثين تركيا تظاهروا بالهرب ثم عادوا فهاجموا « روجر دى تونى » Toony هجوما شديدا وقتلوا تحته جواده وكادوا أن يمسكوه هو نفسه لولا ان خف لانقاذه من أيديهم واحد من رفاقه اسمه « جوكلين دى مين » Jokelin de Maine ولكنهم أسقطوه هو الآخر من فوق صهوة جواده الا أن « روجر دى تونى » الذى كان يدافع عن نفسه وهو واقف على قدميه نهض الى صاحبه وخلصه من قبضتهم ، وحينذاك تجمع رجالنا ، ومضى « ايرل ليسيستر » يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، كما جاء « جيلبيرت مالمين » Malmain يرافقه أربعة من صحابه ، واسكندر ارسيك Arsic وغيرهم فيما يقرب من عشرين فارسا .

وقام « ستيفن دى لونجشامب » فقدم لروجر « دى تونى » خدمة جليلة حيث زوده بحصان انطلق به بعيدا عن الترك الذين يقاتلونه .

وعاد القتال من جديد على أشد ما يكون ، وعلا الصراخ ، وعادت الأسنة تلمع ، وكست الدماء أديم الأرض ، وتشابكت السيوف ، وفارقت الهامات جثثها فتناثرت هنا وهناك ، كما بترت أذرع وأياد وأقدام ، وكانت الضربات تتهاوى على الرقاب ، ولم يسلم العيون ولا الأفواه من ضربات تصيبها ، واكتظت الطرقات بجثث القتلى من الترك اكتظاظا عاق رجالنا فى سيرهم فكانوا يتعثرون فيها .

وقد أبدع فى القتال فى هذا اليوم أهل بواتييه والفرنسيون والنرمنديون والانجيفينيون . أما الملك ريتشارد « وهو قمة الشجاعة والفضيلة وتاج الفروسية فقد استحق التصفيق كل التصفيق » . وكان هو الفارس المجلى .

ولو تسنى لك أن ترى المذبحة الفظيعة التى نزلت بالترك لرأيت واحدة أكبر من أية واحدة شاهدها أسلافنا ، فلقد تفشت الفوضى فى صفوف الترك فلم يعودوا يدرون ما يفعلون ، حتى ان الطفل الضعيف كان فى امكانه أن يقتل العشرة منهم ، وتلاشى ما كانوا عليه من غطرسة ، وتزلزلت كبرياؤهم ، وبطل تعاليهم ، وزالت جرأتهم ، واستولى رجالنا على القافلة وأخذوا قيادتها بأيديهم .

أما الترك الذين كانوا يحرسون سائقيها وما تحمله الدواب فقد اعتبروا أنفسهم أسرى فى أيدى فرساننا وأتباعهم واستسلموا لهم طواعية ومن غير مقاومة ، ورفعوا اليهم أكف الضراعة متوسلين اليهم أن يرفقوا بهم وأن تأخذهم بهم الرحمة ، وأخبروهم انهم لا يطمعون الا فى أن تسلم أرواحهم ، وقدموا اليهم أحصنة النقل والجمال المحملة والبغال التى تحمل شتى أنواع التوابل الغالية ، وكميات هائلة من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والأرجوانية والثياب الغالية وصبغة الأرجوان ، الى جانب العديد من أنواع السلاح والصدارى المطرزة التى يسمونها Casigans واللحف التى أبدعت يد الصناع المهرة فى تطريزها ، وكذلك الخيام الغالية والبسكويت والقمح والشعير والطحين وشتى أنواع الأدوية والأشربة والأحواض والقوارير ورقع الشطرنج والأوانى الفضية والشمعدانات والفلفل والقرفة والسكر والشمع الى غير ذلك من التوابل المنتقاة ، ومبالغ كبيرة من المال وغير هذا كله من أشياء متباينة الأصناف غالية الثمن ، حتى لقد قيل انه لم يحصل قط فى أى زمن من الأزمان أن أصاب قوم فى معركة واحدة مثل هذه الغنيمة الكبيرة .

ف ٥

كم عدد الابل والجمال ذات السنامين التى حصلنا عليها وكم عدد الترك الذين هلكوا

حين تم الفراغ من قتل الكفار والاستيلاء على القافلة واجه رجالنا مهمة أوقعتهم فى حيرة ألا وهى كيف تكون رعاية ابل السباق وغيرها من الابل ، ذلك ان رجالنا الفرسان كانوا اذا طاردوا هذه الدواب فى محاولة منهم لامساكها انطلقت تعدو فى سرعة عجيبة لم يسبق للعين أن رأت مثلها ، ولو قورنت بها الغزلان والابل أو غيرها من حيوان الصيد لبدت بطيئة ، فهى تصل الى غايتها وكأن ما قطعته لا يعدو أن يكون مسافة شديدة القصر .

ولما تم أخيرا جمع بعضها الى بعض بوسيلة أو بأخرى أحصيت فكانت قرابة أربعة آلاف وسبعمائة ما بين جمل وحمار كما استولى رجالنا الى جانب هذا على عدد كبير من البغال ما بين ذكر وأنثى ومن حمير الأمتعة ما لا يمكن حصره حتى ليعيى الحاسب عن عدها لكثرتها .

كذلك قتل فى هذا اليوم أكثر من الف وسبعمائة من راكبى الجياد فى أماكن مختلفة ، الى جانب عدد كبير من المشاة كانت اصاباتهم قاتلة .

الملك يعود بالغنيمة الى بيت نوبة التى بدأ منها ، ويأتى كونت هنرى من عكا لمقابلته بالجيش الذى كان قد ذهب لحشده

حين فرغ العسكر من كل ذلك حملت الأمتعة واستعدت للرجوع . أما الملك والجيش فقد عادوا بالغنيمة وكانت غنيمة ضخمة ورجعوا الى بيت هافن Bethaven التى تبعد عن يافا بأربعة أميال فلما بلغوها نزلوا فقسموا الغنائم والأسلاب ، فلما كان اليوم التالى رحلوا من هنا الى الرملة (وذلك يوم ٢٦ يونيو) .

ولقد وصل فى هذه الأثناء كونت هنرى من عكا الى الرملة بالقوات التى كان قد أحضرها من هناك لتنضم الى الجيش ، فلما تكاملوا ساروا جميعا الى «بيت نوبة» التى كانوا قد خرجوا منها أصـــلا .

هكذا تجددت الفرحة وأسعدهم كثرة ما صار فى أيديهم من حيوانات نقل الأمتعة التى كثرت عند كافة الجيش ، وهنا قام الملك ريتشارد الكريم فوزع على فرسانه ابله التى لم تر العين أحسن منها ، وبلغ نصيب الواحد ممن خلفوهم وراءهم لحراسة المعسكر مثل نصيب من رافق الحملة ، وكان هو فى هذه القسمة العادلة مقلدا المحارب المظفر الملك داود فى أن كان نصيب من أقاموا على المخازن هو نفس نصيب من قاتلوا « ونصيب الذاهب الى الحرب نصيب المقيم عند الأمتعة ، فالقسمة بالسوية » .

كما قسم الحمير جميعها بين المرتزقة المحاربين ، وامتلأ المعسكر بالابل والحمير وغيرها من دواب النقل التى لم يستطيعوا

السيطرة عليها ، وأقبل أهل المعسكر يلتهمون فى نهم وفرحة لحم الابل الصغيرة مقلية فى الدهن وكان لحما ناصع البياض لذيذ الطعم ســـائغه .

فـ ٧

الحزن يعم الناس لان الرأى الصحيح والنصيحة الصائبة حالا بينهم وبين الذهاب الى القدس

سرعان ما تذمر الناس من جراء توزيع العديد من الدواب عليهم لالتهامها كميات ضخمة من الحبوب والشعير مما أدى الى ارتفاع سعر القمح ارتفاعا فاحشا ، كما أخذوا فى رفع عقيرتهم بالشكوى اذ لم يروا أى اجراء اتخذ أو جار اتخاذه فى سبيل الزحف على القدس وحصارها .

لكن هذا الكف عن الزحف لم يكن راجعا الا الى ما ذكرناه سابقا بسبب القرار الذى اتخذه المحكمون الحكماء العشرون اذ رفضـــوا هذه الخطة ، واعتبروا الزحف الى القدس أمرا شديد الصعوبة ان لم يكن مستحيلا بسبب ما سوف يصيرون فيه من حاجة ماسة الى الماء الذى لا يستطيع البشر ولا الحيوان العيش بدونه ، لا سيما وأن عيد القديس يوحنا صار على الأبواب ، حين يصير كل شىء جافا وتزداد حرارة الجو شدة بدخول فصل الصيف لا سيما فيما حول بين المقدس الواقعة فى منطقة جبلية .

أضف الى هذا ان الترك كانوا مسيطرين على جميع الصهاريج وسدوا جميع السبل الموصلة اليها من كل جانب من جوانب المدينة مما يترتب عليه انعدام ماء الشرب فلا يجدونه ولا يجدون القطرة

الملك يعود بالغنيمة الى بيت نوبة التى بدأ منها ، ويأتى كونت هنرى من عكا لمقابلته بالجيش الذى كان قد ذهب لحشده

حين فرغ العسكر من كل ذلك حملت الأمتعة واستعدن للرجوع . أما الملك والجيش فقد عادوا بالغنيمة وكانت غنيمة ضخمة ورجعوا الى بيت هافن Bethaven التى تبعد عن يافا بأربعة أميال فلما بلغوها نزلوا فقسموا الغنائم والأسلاب ، فلما كان اليوم التالى رحلوا من هنا الى الرملة (وذلك يوم ٢٦ يونيو) .

ولقد وصل فى هذه الأثناء كونت هنرى من عكا الى الرملة بالقوات التى كان قد أحضرها من هناك لتنضم الى الجيش ، فلما تكاملوا ساروا جميعا الى «بيت نوبة» التى كانوا قد خرجوا منها أصـــلا .

هكذا تجددت الفرحة وأسعدهم كثرة ما صار فى أيديهم من حيوانات نقل الأمتعة التى كثرت عند كافة الجيش ، وهنا قام الملك ريتشارد الكريم فوزع على فرسانه ابله التى لم تر العين أحسن منها ، وبلغ نصيب الواحد ممن خلفوهم وراءهم لحراسة المعسكر مثل نصيب من رافق الحملة ، وكان هو فى هذه القسمة العادلة مقلدا المحارب المظفر الملك داود فى أن كان نصيب من أقاموا على المخازن هو نفس نصيب من قاتلوا « ونصيب الذاهب الى الحرب نصيب المقيم عند الأمتعة ، فالقسمة بالسوية » .

كما قسم الحمير جميعها بين المرتزقة المحاربين ، وامتلأ المعسكر بالابل والحمير وغيرها من دواب النقل التى لم يستطيعوا

السيطرة عليها ، وأقبل أهل المعسكر يلتهمون فى نهم وفرحة لحم الابل الصغيرة مقلية فى الدهن وكان لحما ناصع البياض لذيذ الطعم ســـائغه .

ف ٧

الحزن يعم الناس لان الرأى الصحيح والنصيحة الصائبة حالا بينهم وبين الذهاب الى القـدس

سرعان ما تذمر الناس من جراء توزيع العديد من الدواب عليهم لالتهامها كميات ضخمة من الحبوب والشعير مما أدى الى ارتفاع سعر القمح ارتفاعا فاحشا ، كما أخذوا فى رفع عقيرتهم بالشكوى اذ لم يروا أى اجراء اتخذ أو جار اتخاذه فى سبيل الزحف على القدس وحصارها .

لكن هذا الكف عن الزحف لم يكن راجعا الا الى ما ذكرناه سابقا بسبب القرار الذى اتخذه المحكمون الحكماء العشرون اذ رفضـــوا هذه الخطة ، واعتبروا الزحف الى القدس أمرا شديد الصعوبة ان لم يكن مستحيلا بسبب ما سوف يصيرون فيه من حاجة ماسة الى الماء الذى لا يستطيع البشر ولا الحيوان العيش بدونه ، لا سيما وأن عيد القديس يوحنا صار على الأبواب ، حين يصير كل شىء جافا وتزداد حرارة الجو شدة بدخول فصل الصيف لا سيما فيما حول بين المقدس الواقعة فى منطقة جبلية .

أضف الى هذا ان الترك كانوا مسيطرين على جميع الصهاريج وسدوا جميع السبل الموصلة اليها من كل جانب من جوانب المدينة مما يترتب عليه انعدام ماء الشرب فلا يجدونه ولا يجدون القطرة

فى دائرة قدرها ميلان ، وحينذاك يجد العسكر أنفسهم فى شدة ما بعدها شدة ومتاعب فاحشة ، واذا ما بدأ الحصار فليس يؤمن التوغل فى البحث عن الماء وطلبه ولن يكون الجدول الصغير الذى يجرى عند سفح جبل الزيتون كافيا لرى هؤلاء الظمآى من رجال هذا الجيش اللجب ، وما مياه هذا الجدول الا مياه بركة سالوم .

لهذه الأسباب مجتمعة نصح المحلفون الحكماء العسكر بعدم محاصرة بيت المقدس لا سيما فى هذا الوقت من السنة .

حين تأكد الجيش انه لن يزحف الى بيت المقدس وأيقن انه راجع الأدبار تملك اليأس رجاله وأورثهم النبأ شجنا واندفعوا تحت تأثير هذا الشجن يسبون ابطاءهم عن الزحف ويندبون الآمال التى كانوا عقدوها عليه .

لقد راحوا يرددون أنه لم يكن لهم أمل سوى أن يمتد بهم العمر حتى يروا المسيحيين وقد استردوا القدس ، وأن يتأكدوا أن الأشياء المقدسة الطاهرة لن تقع فى أيدى الأغراب ، الا أن الرب « الديان العادل » يقضى بما يراه وانه هو الحق الذى لا يمكن لأحد أن يمارى فيه وأنه من خلال رحمته يجازى من يخطئون « وكان منتقما على أفعالهم » .

فـ ٨

الفرانسيون يخرجون ويقاتل بعضهم بعضا
بدافع من حقدهم وينفصلون عن شعبنا .
هنرى (هيج) دوق برجنديا

ليس من العجيب ان يبلغ حزن الحجاج ذروته ويشتد غضبهم ويتضاعف المهم حين رأوا الأمور تجرى على غير ما يحبون

فقد تزايد الشقاق واتسعت هوة الخلف بين بعضهم والبعض الآخر ، كما أن ما طبع عليه الفرنسيون من التقلب وعدم اتفاقهم على هدف واحد وما هم عليه من سلوك لا يمكن الوثوق به فان ذلك كله فصم وقطع كل وشيجة صلة بينهم وبين من معهم ، ذلك انه لم تكد تحين اللحظة التى شرع فيها الجيش فى التقدم وأخذ الظلام فى اسدال ستاره على الكون حتى اجتمع الفرنسيون مع بعضهم على حدة وقرروا أن ينفصلوا تماما عن بقية الجند وراحوا يعسكرون فى موضع آخر بعيدا عن بقية العسكر كما لو كانوا يأنفون من صحبتهم، ولم يكتفوا بهذا الانفصال بل اختلفوا فيما بينهم وراحوا يتناوبون قارص الكلام ، المتضمن فاحش القول وبذيئه ، وأضحى كل واحد منهم يسب صاحبه ، وراح الواحد منهم يهجو الآخر أقذع الهجو ، ويتعالى عليه بأنه أرفع مكانة منه وأعلى قدرا ، وينتقص من قدر صاحبه .

وبلغت المأساة ذروتها وزاد الطين بلة حين نفخ الشيطان فى هنرى (هيج الثالث) دوق برجنديا روح التعاظم ، أو لعل الغيرة الحمقاء الشريرة حملته على أن ينظم أغنية يتغنى بها بين العامة ، وما كان لمثل هذه الأغنية ذات الكلمات الوقحة المعيبة أن ينشدها العامة جهرا ، وما كان ينبغى لمثل هذه الألفاظ الفجة التى شاعت على ألسن الرعاع أن تعم لو كان لمؤلفيها أدنى احساس بالأدب ، لأنها تشير الى رجال همهم اغتصاب النساء وتشيد بذكرهم .

ان الذين يكرسون جهودهم لمثل هذه الأنشطة الفاجرة لا شك انهم يكشفون عن مستوى نوازعهم ، وما تخفيه صدورهم لأن مياه الروافد تكون مثل مياه المنبع فان كانت مياهها صافية كانت هى الأخرى صافية وان كانت آسنة شابهتها فى هذا الفساد ، وقد شاعت هذه الأغنية وجرت على الألسن فى كل الجيش فانزعج الملك

أشد الانزعاج ورآى ان لابد له من انزال العقـاب الصارم بمن يترنمون بها ويرد عليهم بنفس « عملتهم » وماذا عليه أن هو رد على صاحبها أكاذيبه هذه وما أذاعه من شناعة فيرسل بالقول الصادق كوضح النهار فيدمغ الباطل .

ان شهرة أمجاد الملك ريتشارد التى لا مثيل لها ظلت غير مغموزة ، فلما يئس حساده ومنافسوه من مجاراته هاجموه منتقصين من شجاعته ورموها بكل ما فى قلوبهم من الكراهية السوداء له .

لم يكن حجاج هذه الحملة مثل الحجاج الذين سبق أن مضوا الى أنطاكية التى استولى عليها رجالنا فى معركة باسلة ذائعـة الصيت لا تزال تروى أمجاد « بوهيموند » و « تانكريد » و «جودى فروى دى بويون » وغيرهم من الزعماء البارزين الذين قدر لهم احراز كثير من الانتصارات الجليلة التى لاتزال أخبارها تجرى على ألسنة القصاص حتى الآن والتى لها مذاق الطعام الشهى .

ولما كان هؤلاء الرجال قدموا خدماتهم عن طيب خاطر وبقلب خالص للرب فان الرب « كافأهـم على أعمالهم » ، ومجد أفعالهم فكانوا من الخالدين إلى أبد الأبدين ، ونال أحفادهـم من الثنـاء العاطر مثل الذى ناله أجدادهم .

فـ ٩

رجوع المسيحيين من بيت نوبة الى بلادهـم

ظل الجيش مقيما فى بيت نوبة بعد استيلائه على القافلة وقد خيم عليه الحزن اذ تبددت آمال عسكره وطيح بها حين أشار عليهم

حكماؤهم الناصحون لهم بعدم الزحف على القدس ، فى الوقت الذى كانوا يطمعون فيه أن يزوروا ضريح السيد الذى لم يعد يبعد عنهم بأكثر من أربعة أميال (٨) ، فارتدوا على أعقابهم وهـم فى كرب لا مثيل له ، ولم يحدث ان منى جيش بمثل ما أصيبوا هم به من الضربة القاصمة وهم الصفوة المختارة والمحاربون البواسل .

ولما أخذوا فى الانسحاب وبدأوا سفرهم انحط عليهم الترك من ذرى الجبال وانقضوا على مؤخرتهم ، وقتلوا فى هذا الهجوم بعض مرتزقتنا المحاربين ، غير ان الخيالة استطاعوا الصمود لهم بفضل ما عندهم من الجياد السريعة ونجحوا فى مقاومتهم وطردهم ، فلما فرغوا من ذلك تابعوا زحفهم حتى بلغوا نقطة تقع بين « سنت جورج » والرملة فقضوا ليلتهم فيها يستريحون من وعثاء السفر واتخذ الفرنسيون مكانهم الى اليسار ، أما الملك ريتشارد وشعبه فقد أقاموا على اليمين ، حتى اذا طلع اليوم التالى سافروا على نفس هذه الهيئة من النظام ، فأوصلهم الزحف فى الليلة التالية ـ وأعنى بها ليلة السادس من يوليو ـ الى « بيت داجان » Casal medium فلما بلغ الجيش هذه الناحية تركه فريق من الناس وولوا وجوههم شطر يافا كراهية منهم لما أحاط بهم فى أثناء سير الحملة من مهانة وجوع بسبب قلة الزاد .

فـ ١٠

صلاح الدين يعلم بما دب بين المسيحيين من شقاق وانهم كفوا عن الهجوم فيستدعى عددا من الترك لايحصيهم العد

حين تناهى الى علم صلاح الدين بما صار اليه وضع جيشنا وان مجلس الحكماء العشرين قرر الانسحاب انبسطت آماله

واطمأنت نفسه وغمره الفرح فبادر فى ساعته فأرسل على الفور رسلا منه بكتب ممهورة بخاتمه الى جميع أمرائه وعماله ونوابه فى الأقاليم والبلاد التى تحت سلطانه ينبؤهم فيها بتفرق شمل المسيحيين وبالشحناء التى دبت بينهم وبرحيلهم ، فمن أراد ممن يصله كتابه هذا أن يعمل فى خدمته مأجورا فلا يتوانى عن المجىء ويوافيه فى القدس .

ما ان تسلم هؤلاء النواب ومن على شاكلتهم كتبه هذه حتى توافدوا على ساحته زرافات بعضها فى أثر بعض ومعهم الكثيرون من الترك حتى بلغ عددهم عشرين ألف فارس بكامل أسلحتهم ، ومعهم لفيف كبير من المشاة الذين قل ان يستطاع حصرهم .

فـ ١١

حين يرى الملك ريتشأرد هروب بعض العسكر الذين معه يمضى فيلتمس الموادعة التى سبق أن قدمها فرفضت ومن ثم قرر تخريب الداروم وتقوية عسقلان ويمضى عبر يافا الى عكا

أخذ رجالنا يتسللون تباعا واحد اثر واحد فمضى بعضهم الى يافا ، فلما أيقن الملك انه لم يعد قادرا على أن يعيدهم فيصيرون جميعا يدا واحدة لعدم وجود هدف واحد يجمعهم راح يعمل ما يراه أحسن ما يمكنه عمله فى هذا الظرف ، فأشار على العادل أن يبرم اتفاقا مع صلاح الدين يتواءم والشروط التى كان قد تم الاتفاق عليها فى نواحى الرملة بأن تبقى الأمور على ما هى عليه حتى يرجع هو من وطنه [انجلترا] وأن يتولى العادل اخباره بمدى تقدم هذه المفاوضات (١٠) عساها تسير قدما بأسرع ما يمكن . على أن أحوال

جيشنا لم تكن خافية عن صلاح الدين الذى كان يعرف أن قواتنا آخذة فى التناقص شيئا فشيئا ، ومن ثم فانه أعلن رفضه ما عرض عليه ان لم تسو عسقلان بالأرض .

حين عاد الرسل الى الملك ريتشارد وأخبروه بما تم فى هذا الصدد ظلت تعابير وجهه جامدة ولم يبد عليه أى شىء ، ولكنه أمر فى الحال الاسبتارية والداوية وطائفة من المحاربين معهم وكانوا كلهم ثلاثمائة فارس أن يركبوا خيولهم ويمضوا فيخربون حصن الداروم وأن يعملوا فى الوقت ذاته على تحصين عسقلان واقامة شحنة بها لحمايتها ، فما كاد هؤلاء يتلقون أمر الملك ريتشارد حتى أسرعوا لتنفيذه وأتموا ما عهد به اليهم من تدمير الحصن وتسويته بالأرض فصار أنقاضا ، ثم عادوا أدراجهم .

عاد الجيش الى يافا مكسور الخاطر مثقل القلب بالأسى ، ثم رحل عنها مباشرة الى عكا ورحل معهم الملك والبقية الباقية ممن ظلوا معه اذ كان قد تخلف عدد كبير من العسكر فى يافا حتى تفشى فيهم المرض وان كان فيهم فريق من الأصحاء ، وهكذا عاد الجيش الى عكا فى حال لا يمكن وصفها وقد استولى على رجاله الفزع الشديد لحدوث أمور كثيرة جرت ضدهم .

انه من الجلى الواضح أن الرب لا زال يراهم لا يستحقون كريم رحمته .

فـ ١٢

الجيش الذى عاد به صلاح الدين الى يافا

حين علم صلاح الدين ان لم يعد أهل يافا فى حماية الملك ريتشارد أعد هو جيشه للزحف عليها مؤملا أن يتيسر له الاستيلاء

عليها أثناء غياب الملك ، ومن ثم حرك جيشه الذى كان يتألف من عدد كبير من القوات التى جمعها حتى بلغ عدد الفرسان فيهم عشرين الف فارس ، وكان ممن جمعهم أمير « بيـــلا » (١٠) القوى وابن أمير الحشاشين (١١) ·

والى جانب هؤلاء كان هناك ما يقرب من مائة وسبعة أمراء ، وجموع غفيرة من المشاة جاء بهم من الجماعات الجبلية فكانوا كأنهم أرتال الجراد وقد غطوا أديم الثرى ·

وخرج العسكر من القدس ونزلوا سهل الرملة وقد غرهم الغرور وعــلا ضجيجهم الى عنـــان السماء وانطلقوا فى فيالقهم وكتائبهم كما لو كانوا مدفوعين بروح الغضب ، وأقسموا أن يقضوا على المسيحيين تمام القضاء ·

فـ ١٣

صلاح الدين يهاجم يافا بهذه القوة ويوشك أن يستولى عليها لو لم يطلب منه أهلها الذين تحت الحصار هدنة حتى اليوم التالى

فى يوم الأحد هذا نفسه أعنى الأحد السابق لعيد القديس بطرس فى الاصفاد [٢٦ يوليو سـنة ١١ م] حين وصـل الملك ريتشارد مع عسكره الى عكا زحف صلاح الدين ليحاصر يافا وتم له حصار قلعتها يوم الاثنين فما كان ممن فى داخل البلد الا أن انطلقوا الى المنطقة المجاورة الواقعة خارج الأسوار وقاوموا المغيرين طول يومهم وحالوا بينهم وبين الاقتراب من الأسوار ، فلم يمكنهم احراز أى نصر أو تقدم يـوم الثلاثاء ولا الأربعاء وان كان الحق

يدعونا لأن نقول انهم لم يقصروا فى الدفاع عن أنفسهم دفاعا مجيدا ولكن لم يسفر هذا الدفاع عن احرازهم أى نصر ·

فلما كان يوم الخميس حزن الترك أن قد تمكنت جماعـــة صغيرة كهذه الجماعة من صدهم حتى لم يصيبوا شيئا ، فكان ذلك أدعى الى مضاعفة غضبهم وازدادوا ضراوة فى الحصار ·

حينذاك أمر صلاح الدين باقامة أربع آلات لرمى الحجارة من الآلات القوية الثقيلة ، الى جانب آلتين من آلات المنجنيق ·

يا لشدة التى قاساها من ضرب عليهم الحصار حتى ضجوا وهتف أكثر من خمسة آلاف منهم وفيهم المرضى ونادوا « يارب الجيوش ··· أين الملجأ الذى بقى لنا ؟ ··· واحسرتاه يا ملك انجلترا وأنت قائدنا وحامينا ··· ما الذى حدى بك للذهاب الى عكا ؟ ··· أما أنتم أيها المسيحيون فانكم تزدادون ضعفا وها أنتم ذا فى طريقكم الى الفناء » ·

فى هذا الوقت بالذات أخذ الترك يمارســون الضـغط على المدينـة بوحشية كبيرة وهاجموهــا بقوة ضخمة لكنهم وجدوا من الأهالى مقاومة صادقة ، وما كان لأحد يراهم ويستطيع أن يملك نفسه من ذرف الدموع الحارة اشفاقا عليهم ورحمة بهم اذ يراهم وهم يكابدون المشقة والهول ، فهم اما ماضون للقتال أو هاربون منه ، أو هائمون على وجوههم هنا وهناك لا يدرون ماذا يفعلون ·

وكانت آلات رمى الحجارة تعمل بلا انقطاع ، ولم تتوقف المناجيق قط عن الرمى ، وليس من شك انه كان بداخل المدينة أيضـــا رماة لديهم آلات رمى الحجارة ولكنهم ليسوا من المهارة

بالدرجة التى تمكنهم من استعمالها كما ينبغى الاستعمال الصحيح الفعال ، مما ترتب عليه ان كان فى أحد أيام الجمع والترك دائبون فى رمى الحجارة من غير توقف واذا بالبوابة التى تواجه القدس تتحطم وينهار من السور الموجود فى الجانب الأيمن ما يقرب من عشرة أمتار ·

فما أشد قسوة هذا الصراع وضراوته !!

لقد استبسل المحصرون فى مقاومة الترك حتى أعجزوهم عن اقتحام البلد ولم يمكنوهم من الدخول ، ومع ذلك فانه لما أخذت قوة الترك تزداد كثافة وشدة تزحزح المسيحيون عن البوابة فاجتازها الأعداء وانطلقوا يطاردون شعبنا ويهاجمونه داخل قلعة الحصن ·

فواها لها من مذبحة دامية كان ضحيتها المرضى الطرحاء فى كل بيت من بيوت المدينة · لقد وهنوا وضعوا فلم يشفع لهم ذلك عند الترك فعذبوهم عذابا شديدا ومارسوا معهم أساليب شتى حتى فاضت أرواحهم ·

لقد لقى الكثيرون منهم ممن لا يحصيهم العد خاتمتهم قتلا فحق لهم أن يدرجوا فى عداد الشهداء !!

ولقد فر بعض رجالنا من فظاظة العدو وقسوته حين علموا بوصوله الى الساحل ، لكن رجاله استمروا فى هجومهم الوحشى اذ أخذوا يفتشون البيوت تفتيشا دقيقا وينهبون ما يجدونه فيها من قمح ، كما حطموا براميل النبيذ وأراقوا ما فيها على الأرض ، وهاجم فريق من عسكرهم قلعة الحصن الرئيسية ، وانطلق غيرهم يتعقبون من فروا حفاظا على حياتهم الى السفن ، أما الذين كانوا

فى المؤخرة فقد لاقى أكثرهم نهايتهم قتلا ، وكان « اوبرى دى ريمز Aubrey de Reims الموكول اليه حراسة الحصن قد انطلق الى احدى السفن طمعا فى أن يجد بها الملجأ الأمين حين تبحر السفينة فينجو من الموت ··· فيا للعار الذى جلله اذ جعله خوفه الشديد سبة بنى جنسه !! ولقد لامه رفاقه الذين أقاموا حيث هم ولم يصحبوه ولم يفعلوا فعلته بل عابوا عليه جبنه وحاولوا ان يثبتوه ونصحوه أن يفعل فعل الرجال وأرغموه قسرا على أن يعود للقلعة فلما نظر حوله ولم يجد انى التفت سوى الموت يترصده ، قال : « يجب أن نسلم الروح هنا من أجل الرب ، اذ لا شئ لنا نفعله سوى ذلك » ·

كان الترك يشددون الضغط من شتى النواحى مما أدى الى سقوط القلعة فى أيديهم وتساقطت السهام والنشاب تساقط المطر الهتون ، حتى سدت الأفق ، ولم يعرف الذين حوصروا هنا من أى الجوانب يدافعون عن أنفسهم ·

ولقد استمر الهجوم طوال النهار بلا انقطاع ، وبلغ الجهد من المحصورين غايته حتى كادوا أن يستسلموا لولا أن شاءت حكمة الرب أن يكون موجودا فى هذه الآونة البطرك (١٢) الجديد الذى لم يكن يخيفه شبح الموت أو يخشاه فلم يضطرب جنانه أمام هذا الخطر المفزع بل جعلت منه الضرورة مفاوضا ماهرا فأرسل رسالة الى صلاح الدين ، كما طلب الى أخيه العادل أن يعينه على حصول هدنة مشرفة ، واتصل به على أمل أن يؤخر هجومه على القلعة الى

الغد ، مشترطا على نفسه ومن معه انه ان لم تأتهم نجدة من أية جهة قبل الساعة التاسعة كان على كل واحد من رجاله الذين بالقلعة حينذاك أن يدفع لصلاح الدين عن نفسه عشر بيزنتيات ، وتدفع المرأة خمسة وأما الغلام فثلاثة ، وذلك تعويضا لصلاح الدين ازاء منحهم مثل هذه الهدنة .

ثم ان البطرك قام من ناحيته فجعل من نفسه ومن كبار الرجال الموجودين هنا رهائن عند صلاح الدين لضمان تنفيذ هذه الشروط تنفيذا دقيقا ، وأن يظلوا عنده مقيدين بالسلاسل حتى الساعة التاسعة من اليوم التالى .

ووافق صلاح الدين على ما عرض عليه ولما أخذوا فى تقديم ما يضمن تأكيد الاتفاق كانت الرهائن (١٣) التى قدمت كالآتى : البطرك واوبرى ريمز ، وثيوبولد دى تروى Troyes واوجستين اللندنى واوسبرت فالدين Osbert Waldin وهنرى دى سنت جون ، وغيرهم ممن لم تتوفر لدينا أسماؤهم .

وقد سيق هؤلاء جميعا أسرى فى القيود فيما بعد الى دمشق وكان الظن قد ذهب بالمحصرين مذهبا كريما وراودهم الأمل – وان كان ضعيفا – بأن الملك ريتشارد لابد وأنه فى طريقه اليهم لانقاذهم لا سيما وأنهم كانوا قد أرسلوا اليه يخبرونه بالأمر الواقع وهو بعكا حين وصل اليهم صلاح الدين .

فـ ١٤

على الرغم من أن الملك ريتشارد كان على وشك الابحار الى وطنه وعلى الرغم من رفض الفرنسيين مساعدته الا أن رسلا من أهل يافا جاءوا يستدعونه مرة أخرى للحضور على وجه السرعة بالشون والأغربة وأن يرسل الفرسان برا

فى هذه الأثناء كان الملك ريتشارد يسرع فى تجهيز معدات الرحيل من عكا حتى يتمكن من بلوغ وطنه مبكرا ، وقد أعد سفنه على أكمل وجه وتأهب للابحار بها واستأذن الداوية والاسبتارية ندعوا له بالتوفيق – ولما كان طريقه يمر عبر بيروت فقد أرسل اليها سبعة من شونه وأغربته وزودها بالرجال المسلحين حتى يبث الخوف فى نفوس أهل الحصن فيحسبونه قادما لمهاجمتهم فيتملكهم الذعر ويهربون من الحصن .

بينما كان الملك فى فسطاطه يتداول مع رجاله ما تبقى عليه اعداده للرحيل جاءته رسل بعثهم اليه المحصرون فى يافا وقد جاء هؤلاء الرسل جريا ومثلوا أمامه ممزقى الثياب ، وأخبروه أن المسلمين قد استولوا على يافا بكل ما فيها وأن الأحياء من أهلها محاصرون (١٤) فى قلعتها وأنهم لا محالة هالكون عن بكرة أبيهم تنفيذا لشروط الاتفاق المشار اليه حالا ما لم يبادر الملك ريتشارد فى الحال الى انقاذهم ونجدتهم ، وأخبروه أن فى يده وحده بقاءهم أحياء أو موتهم ، فتحرك قلب الملك ريتشارد حنانا عليهم وخوفا عليهم مما هو محدق بهم من خطر الهلاك ، فقاطع الرسل – وهم

لا يزالون يعرضون قضيتهم ـ وقال لهم : « ما دام الرب موجودا وليس لى من هاد سواه فانى سوف أعمل كل ما أستطيعه » .

ثم أصدر فى لحظته قرارا نادى به المنادون فى كافة النواحى بتأهب العسكر للمشـــاركة فى الحملة التى يزمع هو الخروج بها ، الا أن الفرنسيين لم يعيروه اهتماما ، ولم يكترثوا بندائه ، بل كان الذى قالوه فى كبريائهم وعنجهيتهم انهم لن يرافقوه فى خروجه ، وصدقوا فيما قالوه اذ لم يقدر لهم أن يخرجوا لا معه ولا مع غيره ، اذ قدر الله لهم أن يلقوا الهلال التعيس بعد قليل .

الا أن الجماعات التى كانت من أقطار أخرى غير فرنسا والتى « مس الله قلبها » ورقت أكبادها شفقة على ما يكابده جيرانهم من المصائب أسرعوا فى الخروج برا الى قيصرية . أما الملك ريتشارد العظيم « فقد وضع نفسه بيده » وأبحر فى شوانيه وأغربته التى كانت جاهزة على أكمل وجه ، وصحبه من خاصته ايرل ليسيستر ، وأندرو دى « شافينى وروجر دى سائى » Sathy وحوردان دى هوميت Hommet ورالف دى موليون Mauleon من الكبار واوسون دى فاى Aucon de Fay وفرسان عائلة برو Preauy وغيرهم من الأمجاد الجنويين والبيازنة .

أما أولئك الذين كانوا قد سبقوا الى قيصرية فقد ظلوا مقيمين بها فترة من الوقت كأنما كانوا يعانون حصارا مضروبا عليهم لأنهم كانوا قد علموا أن صلاح الدين قد أعد كمائن يتصيد بها كل من يمر فى هذا الطريق ، ولم يكن أمامهم من طريق أحسن من هذا يسلكونه لأن « ابن الحشـــاش » كان يسيطر على جميع الطرق البرية الفاصلة بين قيصرية وأرسوف ، ومما زاد المتاعب سوءا أن قد هبت عليهم ريح عاصفة من تلك الناحية ظلت معها سفن الملك على مدى ثلاثة أيام سويا حيث هى فى حيفا متوقفة عن الابحار .

لم يطق الملك أن يبقى بطالا فتأوه تأوها شديدا وقال : « أيها الرب المولى ... لماذا تقيدنا ؟ اننا فى محنة ونحن لا نصدر فيما نقوم به الآن الا عن الاخلاص لك !! » .

ما ان فرغ الملك من دعائه هذا حتى تفضلت رحمة الرب فأرسلت ريحا رخاء من خلفهم دفعت بالسفن الى ميناء « يافا » فبلغته فى ظلمة الليل البهيم فى يوم الجمعة التالى ، وكان ميعاد دفع الفدية المشار اليها يحين فى الساعة التاسعة من غدهم السبت ، وهو الموعد الذى يدانون فيه حسب الشروط المتفق عليها ، فلما كان الصباح الباكر من هذا اليوم وهو يوم الاحتفال بعيد القديس بطرس المقيد فى الاصفاد (أول أغسطس ١١٩٢ م (١٥)) قام المحصورون بدفع الفدية المتفق عليها والتى ألح الترك على جبايتها الحاحا مزعجا .

وهكذا شرعوا فى الصباح الباكر يدفعون بعض البيزنتيات المتفق على دفعها فى الساعة التاسعة الا أن الترك الأخساء الذين بزوا الحيوانات الضارية قسوة ووحشية والذين تجردوا من كل شعور انسانى لم يتورعوا عن قطع رقابهم أثناء قيامهم بدفع الفدية المفروضة عليهم وكانوا قد قذفوا بجثث سبعة أطاحوا برؤسهم الى أحد الخنادق فلما رأى من لازالوا فى الحصن ما يفعله الترك من قتل رفاقهم اســـتولى عليهم الفزع واستبد بهم الخوف وتعالت أصواتهم بالنحيب وتعالى صراخهم وذرفوا الدمع السخين .

لقد بكوا بكاء مرا وهم يرون بأعينهم الموت الذى لا مهرب منه يحلق فوق رؤوسهم فركعوا باكين مستجيرين بالرب وراحوا يضربون صدورهم بأكفهم ويعترفون بخطاياهم التى اقترفوهـا ، حتى اذا أيقنوا أنهم على وشك الهلاك وان لا نجاة لهم لم يعد يعنيهم سوى خلاص أرواحهم التى سوف تبقى هى ويفنى ما سواها .

وحينذاك انطلق كل واحد بعيدا عن الناحية التى هو فيها حرصا على حياته وتملك الجميع الخوف من الموت فاقتحموا حصن القلعة الداخلى حتى يؤجلوا ملاقاتهم للموت ولو لأمد قصير ، وبذلك أخذ هؤلاء المحاربون ينتظرون الشـــهادة لتكون خاتمة لحيـاتهم « وعرتهم رعشة أصابتهم » وانهلت الدموع مدرارا كما لو كانت منبثقة من أعماق أعماقهم » .

وهكذا حظوا بالنعمة الربانية التى سرعان ما شملتهم برعايتها لقاء تضحياتهم وأرسلت اليهم من يخلصهم حين أبصروا أسـطول الملك قد بلغ الميناء ودخلها ، وان الفرسان المسلحين من رأسهم حتى أقدامهم على وشك الارساء .

فـ ١٥

وقوع معركة كبيرة يستولى فيها الملك على الشـاطىء ويحرر قلعة يافا ومن بداخلها

حين شاهد الترك وصول سفن الملك وبطسه انطلقت جماعات كثيرة منهم الى الشاطىء حاملة مجناتها وتروسها ودروعها لمقاومته هو ومن معه ، وراحو يقذفون [الصـــليبيين] بوابل من رماحهم وخناجرهم ونشـــابهم وسهامهم بصورة استحال معها لكثرتهـا سقوطها على الأرض ، كما اكتظ الشاطىء بالجموع الغفيرة من رجال العدو حتى لم يبق فيه موضع لقدم ، ولم ينتظروا رسوهم ليقاتلوهم وتكون ثم معركة ، بل بادروهم برميهم بالقذائف وهم لازالوا على ظهور سفنهم وشوانيهم التى لازالت فى عرض البحر ، كما خاضت خيالتهم فى المياه وأبعدوا الى آخر ما يستطيعون باذلين الجهد فى رميهم عن أقواسهم ليحولوا بينهم وبين النزول الى البر ،

حينذاك ضم الملك سفنه بعضها الى بعض وأخذ فى التشاور عما يجب عليه ان يفعله فى هذه اللحظة وقال لمن فيها : « أتباعى الفرنسان المغاوير ... انكم أنتم الذين شاركتمونى كل خطوة ، ترى ما لذى ينبغى علينا عمله ؟ . ها أنتم ذا ترون هؤلاء الغوغاء الجبناء قد ملؤا البحر وسدوه علينا فلا نستطيع الرسو على الساحل ، فهل نتركهم ونعتبر حياتنا أثمن من حياة أولئك الذين سوف يهلكون ان غبنا نحن عنهم ؟ ... ترى بماذا تشيرون على أن أفعله فأفعله ؟ ..

فأجابه بعضهم : « ان أية محاولة جديدة ان هى الا محاولة عقيمة لا جدوى ترتجى من ورائها » .

قال البعض هذا الكـلام اعتقادا منهم أنه لم يعد ثم أحد باقيـا على قيد الحياة فيقدمون على انقاذه ، كما ان النزول الى الشاطىء بين هذه الألوف المؤلفة من الأعداء أمر مستحيل ، وحينذاك وقعت عينا الملك المتفتحتين على كل شىء على قسيس يلقى بنفسه فى اليم ويسبح قاصدا اياه وهو يلهث وقد تقطعت أنفاسه ، فلما نجح فى أن يبلغ غراب الملك خاطبه بقوله : « أيها الملك العظيم : ان البقية الباقية من ذوينا لفى لهفة على وصولك ، وقد كشفوا رؤوسهم وهو يتوقعون من جلاديهم أن يجربوا فيهم سيوفهم ليطيحوا برقابهم » « وحسبوا (١٦) أنفسهم مثل غنم للذبح » ولا مفر لهم فى لحظتهم هذه من لقاء الموت ما لم تسعفهم النجدة الالاهية التى لن تصلهم الا على يدك » .

فسأله الملك : « أحقا هلكوا ولم يبق أحد منهم حيا ؟ فان كانوا أحياء فأين هم الآن » .

فأجابه القسيس انهم الآن يا مولاى فى ذلك البرج يتوقعون الموت بين آونة وأخرى » !!

فلما سمع الملك ما قاله القسيس قال له « انه لخير لنا أن نلقى ميتتنا هنا مع اخواننا هؤلاء من أجل مرضاة الرب الذى نحن فى خدمته والذى جئنا بقيادته . وليكن الهلاك الأبدى مصير كل محجم عن الزحف » .

وأبحرت الشوانى نحو الشاطىء بأمر الملك الذى ألقى بنفسه فى اليم دون أن يكون عليه من السلاح ما يستره من ساقيه حتى فخذيه ، وظل يسبح حتى بلغ اليابسة ، وكان أول من تبعه واقتفى أثره « جوفرى دى بوا » (١٧) Bois وبطرس دى برو » (١٨) Preaux ثم تلاهما بقية الجمع اذ قذفوا بأنفسهم فى الماء وتقدموا سيرا على أقدامهم ، واستبسلوا فى غارتهم على الترك الذين قاوموهم مقاومة صارمة والذين غطوا كل شبر من الشاطىء واستماتوا فى صدهم ، وراح الملك العظيم يرميهم عن قوس كانت فى يده لا يقصد واحدا بذاته ، وانطلق رفاقه الأمجاد الذين انعدم نظراؤهم يطاردون الترك الذين راحوا يفرون خوفا منهم . والحق أنهم حين شاهدوا الملك جزعوا وانخلعت قلوبهم ولم يجرؤا على البقاء الى أن يدنو منهم أو يقتربوا هم منه .

واستل الملك سيفه من غمده ولوح به فطاردهم مطاردة حارة عنيفة ولم يبق لأحد هم وقتا للدفاع عن نفسه فراحوا يفرون من فتكه بهم ، ونهج نهج الملك رفاقه فظلوا يهاجمون الفارين وتركوهم ما بين قتيل ممزق الأشلاء ، ومقطوع العنق . وانتهى الأمر بأن خلا الساحل بأجمعه من أى أثر لهؤلاء الترك ، ثم أحضر رجال الملك جذوع الأشجار والبراميل والأخشاب الطافية والأرماث والألواح العريضة والمواد الصالحة من بقايا السفن القديمة والشوانى الملقاة على الساحل وأقاموا منها شبه حصن لأنفسهم يقيهم هجمات العدو ، وعين الملك لهذا الحصن الفرسان والسعاة ورماة الأقواس وأمرهم أن يبعدوا عنه الترك الذين ما كادوا يرتدون عن الساحل

حتى تعالى صياحهم وصريخهم المزعجان اذ لم يكن لديهم وسيلة غير الصياح والصريخ للنيل من رجالنا .

كان الملك أول من دخل المدينة وقد دخلها وحيدا بطريق حلزونى فى بيوت الداوية كانت المصادفة البحتة هى التى جعلته يعرفه ، وصادف هنا أكثر من ثلاثة آلاف تركى قد نهبوا كل شىء فى المدينة واستولوا على كل ما كان داخل الدور ثم رحلوا بما غنموا ، فما أعظم شجاعة هذا الملك الذى ما من أحد يستطيع نهره !!

ولما صار الملك داخل أسوار المدينة رفع بيارقه التى لا تنكس ابدا على موضع باسق الذرى حتى يتجلى للعيان ، وحتى يستطيع المسيحيون المحصورون داخل المدينة رؤيتها ويطالعوها فى موضعها هذا ، فلما شاهدوها عالية خفاقة جنوا سرورا بصورة يعجز اللسان عن وصفها . وحملوا السلاح ونزلوا من القلعة لاستقباله والترحيب به .

ولما تبين للجيش التركى ما جرى سيطر عليه القلق واشتد به الجزع ، ونزل الملك على رجال العدو بسيف لا تفل شباته وأعمله فيهم فقتل منهم من قتل ، وأطاح برؤوس من أطاح رؤوسهم فلما رأى الباقون ما رأوا فروا لواذا من وجهه . وتزاحموا فتساقطوا بعضا على بعض يمينا وشمالا ، لكن ما ان تكامل نزول الباقين من رجالنا من القلعة حتى أعملوا فيهم مذبحة فظيعة فاكتظت الشوارع بجثث فارقتها هاماتها .

ترى لماذا أطيل فى الكلام عن هذا الموضوع !!

حسبى أن أقول ان جميع من كانوا فى الحصن قد مزقوا اربا دون امهال ، أما السعداء الذين قيضت لهم النجاة فقد كانوا أسرع من زملائهم فى الجرى ، وهكذا جنى المنتصرون السابقون ثمارهم موتا ، ولم يكف الملك ريتشـــارد عن مطاردتهم وهم يفرون من المدينة ، ونزل عليهم مثلما « نزلت الريح الشرقية بسفن ترشيش فكسرتها » (١٩) • وكان من رأيه حينذاك أن يتابع مطاردتهم حتى يظهر عليهم ظهورا تاما ويقضى عليهم القضاء المبرم كى لا يلومه لائم على أنه أبقى على أعداء صليب المسـيح الذين ساقهم الرب فجعلهم فى قبضته أسارى • والحق انه لم يكن أحد ما يشاؤه فى كراهيته للبقاء عاطلا •

ف ـ ١٦

الملك يقابل صلاح الدين مرة ثانية فيحول بينه وبين الحصار وينصب خيـامه موضع خيام صلاح الدين

لم يكن عند الملك فى هذه اللحظة سوى ثلاثة جياد ••• لكن ماذا تجدى هذه الخيول الثلاثة ازاء الكثرة التى عند عدوه ؟

انه لم يوجد أى مقاتل من أى ملة اشتهر بمثل الشجاعة الفريدة التى اشتهر بها هذا الملك ، وليس فى أخبار القدماء ولا فيما يحكيه الرواة ولا فيما حفظته المدونات التاريخيـة منذ الأزمنة البعيدة الموغلة فى القدم ما يشبه ما جرى من الملك ريتشارد فى هذا اليوم ، فقد كان يومه هذا قريع دهره وفريد عصره ، اذ بينما كان خارجا من المدينـة اذا بالترك يشاهدون علمه عاليا خفـاقا يخترق صفوفهم ، فتعـالى من ذات اليمين وذات الشمال صراخهم

الذى كان اشبه بالعواء المخيف ، ولم يحدث قط ان اظلم الافق بالضباب أو المطر المنهمر اظلامه فى هذا اليوم العبوس من كثرة النشـاب المتسـاقطة ، وعلى الرغم من أن الشمس كانت يومذاك مشرقة الا أن الجو « صار ليلا من كثرة السهام المتطايرة » •

وسمع صلاح الدين بوصول الملك ريتشارد ، وبلغه ما كان من قتاله الرائع ضـد عسكره ، وكيف فتك بكل من صادفه منهم فتكا ذريعا ومزقه اربا ، فريع صلاح الدين مما جرى وعراه الوجل ، ونزل الرعب فى قلبه فقد كان رعديدا • وما كان أشبهه بالأرنب المذعور ، ومن ثم فانه سرعان ما فك خيامه ، وغمز جواده غمزة نفر به من وجـه الملك ريتشـــارد حتى لا تقع عليـه عيناه ، ولكن الملك أخذ هو وأتباعه فى مطاردته مطاردة عنيفة ، واستمروا يعملون القتل فيمن معه وطرحوهم عن جيادهم ، على حين أخذ رماة الملك ريتشـــارد يتعقبون بالرمى عن أقواسهم جياد الفـارين من الترك الذين طووا من أديم الأرض فى هربهم أكثر من ميلين •

لم يدر الملك بما عليـــه الحال اذ ذاك ومن ثم أمر بنصب معسكره (٢٠) فى نفس الموضع الذى نزح عنه صلاح الدين وقوض خيامه من جراء ما اعتراه من الخوف ثم فر منذ قليل •

وهكذا شاء عون الرب أن تتمكن فئة قليلة من المسيحيين من رد العسكر التركى وهم كثرة ، وحينذاك جمع صلاح الدين أعظم أمرائه مكانة وخاطبهم فى لهجة ملؤها التذمر والسخرية بهم قائلا : « من هؤلاء الذين أضجرونا ؟ •• هل عاد الجيش المسيحى من عكا ليضايقنا ويبيدنا وتكون له الغلبة علينا ؟ •• ترى أى نوع من التجهيزات استعان بها هؤلاء المسيحيون ••• ومن هم حتى يبلغوا منا هذا المدى الكبير ؟ •• وهل كانوا على ظهور الخيل أم

كانوا مشاة على اقدامهم ؟ .. ومن هم هؤلاء الناس الذين عجز عسكرنا عن مقاومتهم ؟

حينذاك خرج اليه من بين الصفوف رجل لم يستطع امساك لسانه ، وكان عالما بالحال فى جيشنا ورد عليه بقوله : « ليس الأمر يا مولاى كما تظن ، فهم قوم ليس لديهم من الخيل أو دواب الحمل سوى ثلاث جياد فقط هى كل ما وجدها هذا الرجل العظيم والملك الفخم فى يافا ، والظن عندى أن مسألة القبض عليه مسألة يسيرة لانه الآن موجود فى قسطاطه وهو منهوك القوى ويكاد يكون وحيدا لا جليس معه ، وان الذى يقبض عليه يضع نهاية لمتاعبنا ويطوى صفحة لا عودة لها » .

لقد ذاع القول بين الجيش التركى (٢١) ان فئة قليلة من جيش كبير مؤلفة من آلاف الترك سوف تستولى بالقوة على يافا ، وستجلب على العدو عارا أبديا وتلحق به العار لذلك أخذوا يتهامسون فيما بين بعضهم والبعض الآخر همسا ينطوى على الغضب مما أحرزه المسيحيون .

ف ١٧

ماذا جرى للمسيحيين والترك والخنازير التى قتلت فى المدينة

حين استولى الترك ـ لعنهم الله ـ على يافا ذبحوا عددا من الشيوخ العجزة وعددا لا يحصى من الخنازير التى وجدوها ، وكان من عادة المسلمين الخرافية الا يأكلوا لحم الخنزير ويعدونه نجسا، ومن ثم قام الترك تحدوهم الرغبة فى اهانة المسيحيين بجمع جيف الخنازير التى قتلوها وضموها الى جثث من قتلوهم من الأهالى

ثم انتهى الأمر أخيرا الى قيام المسيحيين بجمع جيف موتاهم ودفنوها فى سلام . أما جثث الترك فقد ألقوا بها فى العفن مع جيف الخنازير .

ف ١٨

ترميم أسوار يافا

فلما أسفر اليوم التالى عن نهاره وكان يوم أحد أعد الملك ريتشارد كل ما يحتاج اليه لترميم ما تحطم من أسوار يافا ، وحدث مثل هذا الأمر يومى الاثنين والثلاثاء ، فرمم ما كان بالأسوار من هدم لتكون قادرة على الدفاع ، وتمت الترميمات من غير اللجوء الى استعمال الكلس أو الأسمنت ، وكان قيامهم بهذه الترميمات ضرورة لم يكن لهم مفر منها فى هذه الظروف المحيطة بهم لوجود عسكر الكثيرين من الترك الذين كانوا يهددونهم من البقعة المجاورة لهم .

ف ١٩

بعض الأتراك المسمون بالمماليك والأكراد يتباهون بأنهم سوف يقبضون على الملك على غرة منه أثناء نومه فى فسطاطه

حينذاك احتشد فريق من أراذل المسلمين من أهل حلب يعرفون بالمماليك ومن الأكراد الذين كانوا من شبابهم المحاربين ، وراحوا يتدارسون فى اجتماعهم هذا ما الذى ينبغى عليهم القيام به فى موقعهم الحالى ، وأجمعوا على أنه من العار على جمع كبير كجمعهم هذا أن يتخلى عن يافا أمام فئة قليلة ليس عندها خيل ،

واستهجنوا أنفسهم لما هم عليه من الجبن ، وقالوا انه ينبغى عليهم أن يخجلوا من تكاسلهم ، لذلك تعاهدوا فيما بينهم فى كبرياء وعجرفة ان يمسكوا الملك ريتشارد وهو نائم فى فسطاطه ويأتوا به الى صلاح الدين الذى لابد وأن يكافئهم على ما فعلوه مكافأة مجزية .

ف ٢٠

وصول كونت هنرى الى يافا قادما من قيصرية ، وكم كان عدد من معه

حضر فى هذه الآونة كونت هنرى ورفاقه فى شونى من الشوانى التى أبحروا بها من قيصرية ، ولما كانت بقية جيشنا لا تزال محصورة هناك وراء سورها بسبب الكمائن التركية المنصوبة لهم فى الدروب وفوق الجسور فان الملك لم يستطع أن يكون معه أحد من جنده فى هذا الموضع غير خمسة وخمسين فارسا ، وألفين كانوا خليطا من المشاة الأقوياء ورماة السهام والمرتزقة والبيازنة وغيرهم ، كما استطاع أن يحصل من مواضع مختلفة على خمسة عشر جوادا منها القوى ومنها الضعيف .

ف ٢١

كاد المماليك والكرد المشار اليهم أن يتمكنوا من القبض على الملك فى فسطاطه حسبما كانوا يتباهون لو لم يكتشف أحد الجنوية أمرهم ويوقظ الملك

فى هذه الأثناء كان العدو يتأهب للقبض على الملك على غرة منه وهو أعزل ليس معه أى سلاح ، فقد نهضت هذه الطائفة من

المماليك والأكراد الذين أشرنا اليهم وأخذوا سلاحهم وأولجوا مهتدين بنور القمر يتدارسون فيما بينهم أضمن السبل لتنفيذ ما هم مقدمون عليه .

فيالتعاسة هؤلاء الذين لا ايمان عندهم !!

لقد راح الأعداء يدبرون فيما بينهم خطة أحكموا نسجها للقبض على الفارس المطيع لربه وهو مستغرق فى نومه .

لقد أعدوا كثير من الرجال المسلحين للوثوب على رجل أعزل من السلاح ، وهو خالى البال من أى خطر يداهمه ، وتأهبوا للاقدام على هذا العمل وهم على مقربة من الخيمة الملكية ، وتهيئوا للقبض عليه دون أن يدرى هو شيئا عما يدبر له فى الخفاء ، ولكن رب الاحسان والرحمة الذى يعمل الأعمال العجيبة حتى مع أولئك الذين لا يعرفونه ولا يتخلى عمن يعقدون آمالهم عليه جعل الخلاف يدب بين أولئك الأكراد والمماليك الذين أشرنا اليهم . فاوحى الى الكرد أن يقولوا الى رفاقهم : « اذهبوا أنتم سيرا على الأقدام فامسكوا بالملك ومن معه من أتباعه ، وسنظل نحن هنا على ظهور جيادنا نرقب القوم حتى لا يتمكنوا من النجاة الى الحصن » ، فرد عليهم المماليك قائلين : « بل امضوا أنتم راجلين مشيا على الأقدام لأننا أعلى منكم مرتبة ومقاما ، فالفروسية مهنتنا ، وانه لحرى بكم أن تقوموا أنتم بهذا العمل » .

لذلك تأخر سيرهم بعض الوقت وهم يتحاورون فيما بينهم ، وأخذ كل من الجانبين يجاهد وابتدؤوا « يتساءلون فيما بينهم من ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا ؟ » وكانت بينهم شحناء من منهم يظن أنه يكون « الأكثر » ثم توصلوا ـ ولكن بعد لأى ـ الى اتفاق خلصوا فيه الى الطريقة التى ينفذون بها جريمتهم ، وحالما

شرعوا فى ذلك كان الفجر قد تنفس وطلعت تباشيره ، واطلت طلائع نهار الأربعاء التالى لعيد القديس بطرس فى الأغلال [أعنى الخامس من أغسطس] .

لقد رتب الرب ما يحول بين هؤلاء الكفرة الظلمة وبين مفاجأتهم لبطله العظيم ، الصادق فى خدمته وهو فى غفوته ، اذ أوحى الى رجل جنوى أن يمضى ساعة اطلالة الصباح الى احدى المناطق المجاورة فلما عاد منها مسرعا الخطى تملكته الدهشة أن يسمع جدل قوم على سفر وصهيل جياد تخب ، فطأطأ رأسه فرأى على بعد انعكاس بريق مغافر عسكر ، فانطلق يعدو الى المعسكر ويصيح بصوت عال ويكرر صياحه من آونة الى أخرى أن يلبس كل واحد لامته ، فلما ترامت الى سمع الملك هذه الجلبة صحا ووثب منزعجا من فراشه ولبس درعه الحديدى ذا الشبكة التى لا تنكسر ، وصاح فى فرسانه يأمرهم بالاستيقاظ حالا بلا توان .

فـ ٢٢

قتال الملك المدهش الذى سيظل موضع الاكبار على مدى العصور

« ربى ، يارب الجيش ... ترى من ذا الذى يستطيع البقاء ساكنا ازاء هذا الازعاج وذلك الخطر ؟

لقد اندفع العدو على غير توقع من أحد ، وحط المسلحون على القوم العزل من كل سلاح ، وكرت جموع لا يحصيها العد على طائفة قليلة لم يكن لدى رجالها وقت للخروج فى كامل عدتهم ، بل ولا حتى ارتداء ملابسهم ، مما ترتب عليه أن الملك ذاته وكثيرين

غيره وقعوا فى حيرة وتبلبلت خواطرهم واضطروا تحت ضغط الظرف الذى هم فيه الى الخروج للقتال حفاة ، والبعض منهم عراة حتى من سراويلهم التحتية .

على هذه الصورة العجيبة كان تسليح رجالنا لأنفسهم ، ولكن سرعان ما فاجأهم الترك وامتطى الملك جوادا صادفه ليكون فى طليعة رجاله الذين لم يكن معهم فى هذه اللحظة سوى عشرة أحصنة وها هى ذى أسماء الرجال :

كونت هنرى ، وايرل ليسيستر ، وبارتلميو دى مورتيمر Mortimer ورالف دى موليون ، وأندرو دى شافينى ، وجيرار دى فورنيفال Furnival وروجر دى ساسى ، ووليم دى ليتانج L'Etang ، وهيج دى نيفيل الذى كان من أقوى المرتزقة وأشدهم بأسا ، وأخيرا هنرى تيتون Teuton حامل راية الملك .

كان هؤلاء هم وحدهم الذين تفرد كل منهم بجواد كان يملكه ، ومن المؤكد انها لم تكن كلها جيادا صالحة ، فبعضها ضعيف ليس بالحيوان الذى اعتاد خوض المعارك .

ثم رتبت الكتائب والفرق المختلفة وبذلت العناية فى تنظيمها حسب المراتب والعسكر ، وعهد الى كل قائد بما فى يده . وأما الفرسان فقد بعث بهم الملك ليكونوا أقرب ما يكونون لساحل البحر ، وعلى مقربة من كنيسة سنت « نيكولاس » ، وكان على جانبها الأيسر فرقة الأتراك التى كانت مسرعة للخروج ضدهم :

وعهد الى البيازنة والجنوية بحراسة المنطقة الواقعة خارج بساتين الضاحية ومعهم مجموعة من شعوب مختلفة .

ترى من ذا الذى يستطيع أن يصف وصفا كاملا شدة وطأة هجوم الكفار الذين بدؤوا بالاندفاع العنيف وهم يصيحون صيحات مفزعة تقشعر لها الأبدان ، ثم أخذوا يعوون ثم يقذفون بالرماح والسهام والنبال قذفا كثيفا ، وأعد رجالنا أنفسهم أحسن اعداد لتلقى ما يرمونهم به ويردون على هجماتهم المزعجة ، فكانوا شديدى التماسك ، وثبتوا فى أماكنهم لا يتزحزحون عنها ، وارتكز كل واحد على ركبتــه اليمنى اذ جعلها على الأرض مع تثبيت أصــابع قدمه اليمنى ، ومد قدمه اليسرى الى الأمام وأحنى ركبته اليسرى ووضع أمامه مجنا أمسكه بيده أو أى شىء يتخذه درعا يقيه ويحميه كما لو كان الواحد من رجالنا يمسك بيده اليمنى رمحا قد ثبت طرفه العريض فى الأرض أما طرفه الآخر المدبب الحاد فقد وجهه براسه الحديدية ليستقبل العدو المهاجم .

أما الملك الذى كان أبرع الناس فى فنون القتال فقد وضع رامى نشاب بين كل اثنين يقيان نفسيهما بدرعيهما ، وجعل شخصا آخر الى جواره مهمته الاسراع فى جذب النشابة بسرعة ، وبذلك كان أحد الرجلين يقوم بمهمة تحضير النشاب ومهمة الآخر الاستمرار فى الرمى . وكانت الخطة ذات جــدوى كبيرة لرجالنــا وانزلت بالعدو خسارة فادحة .

حين تم وضع كل شخص على هذه الصورة بقدر ما سمح به الوقت القصــير وقلة عدد الرجال شرع الملك يجرى بين صفوف العسكر ويشجعهم كل التشجيع ، ويحث كل امرىء على الثبات والصمود ، فمن قصر منهم فى ذلك وضعفت روحه وتسرب اليها الخوف أو استولى عليها الجبن فهو سبة قومه :

وقال الملك لهم : « واجهوا الخصــم بروح قوية لا تفــل ولا تعرف الخوف ... واجعلوا الشجاعــة ملأ صــدوركم حتى تنجحوا فى مقاومة العدو الضارى ، وحتى تنجوا من تقلبات الحظ .. وتعلموا تحمل الشدائد فالصعاب تبرز الفضائل الكامنة ، كما ان النعمة تخفيها ، وليس أمامكم أية ناحية تفرون اليها فقد احتل العدو كل ناحية مما يعنى ان الفرار من لقائه هو الموت المؤكد ، لذلك كان عليكم الصمود ، واجعلوا العسر وسيلة للشجاعة ، وان الرجال الجديرين بأن يقال لهم الرجال انما هم الذين اذا ما حاربوا عاشوا أبطالا وان ماتوا كانوا أمجادا ، وانه ليجب علينا أن نلقى الشهادة بقلب شاكر ونفس راضية ، ولكن علينا قبل أن نموت ان نثأر لقتلانا ما دام فينا نفس يتردد ، وعلينا أن نشكر الرب أن وجدنا فى الاستشهاد النهاية التى نجاهد من أجلها ونسعى فى سبيلها ، فهذا جزاء جهادنا وختام حياتنا وآخرة معاركنا » .

ما كاد الملك يفرغ من نصيحته هذه اليهم حتى كر العــدو عليهم بكل بطشه وجبروته ، وكان فى سبعة خطوط قتالية يتألف كل خط منها مما يقرب من ألف فارس ، وأعــد رجالنــا أنفســهم لصادمتهم ورد الضربة بضربة مثلها ، فدفنوا أقدامهم اليمنى فى الرمل حتى يظلوا ثابتين فى أماكنهم لا يتزحزحون أمام هجوم العدو مع تسديد رؤوس رماحهم الى الأمام ، ولو قدر لرجالنا أن يفروا فى هذه اللحظة لاخترق الترك بلا جدال جموعهم ، ولكن لما كانوا ظلوا ثابتين فقد أدى ذلك الى ارتداد الخصوم ارتدادا أغرى جماعتنا من رماة السهام بمطاردتهم ورميهم بالسهام رميا كثيفا لا هوادة فيه فأصيب الكثيرون من رجالهم وهلك العديد من جيادهم .

ثم تلى ذلك مباشرة تقدم الصف الثانى من المقاتلين الأتراك لكنهم فعلوا ما فعله سابقوهم وتنحوا جانبا ادراكا منهم انهم لن

يستطيعوا اختراق صفوفنا لعدم تحرك رجالها . ودأب الترك على سلوك هذه الخطة مؤملين من ورائها أن تقضى فى النهاية برجالنا الى الانصراف من تلقاء أنفسهم عما هم فيه وما هم آخذون به أنفسهم ، وطمعوا أن يتم هذا الانصراف قبل الهجمة التى تصوروها والتى يمكن أن تؤدى الى الاشتباك فى معركة ، وتظاهروا بأنهم مقدمون على قتال تشتبك فيه الأيدى بالأيدى ، وكانوا مكرة فى تظاهرهم هذا اذ أرخوا لجيادهم العنان ووجهوها وجهة أخرى .

أدرك الملك ورجاله انهم لن يتمكنوا بهذه الصورة من القيام بأى عمل فلم يطيقوا الالتزام بهذه الخطة التى هى غير واضحة المعالم ، ومن ثم همز الملك جواده وفعل رفاقه فعله من راكبى الخيل وأشرعوارماحهم وهجموا هجوما عنيفا اقتحموا به صفوف خصمهم حتى صاروا وسطه ، وراحوا يعملون القتل فيمن على ايمانهم وشمالهم ، ويضربون راكبى الخيل فيسقطونهم عنها فهلك بعضهم ، وكان ما صاحب رجالنا منذ البداية من ظهور على العدو باعثا لهم على مضاعفة جهدهم ، فدخلوا فى صفوف الترك صفا بعد صف حتى بلغوا آخرها ، واذ ذاك نظر الملك خلفه فرآى على مسافة منه ايرل « ليسيستر » المبجل قد سقط عن جواده ولكنه مازال يدافع عن نفسه دفاع الأبطال فهب غضبان لنجدته وتخليصه من أيدى الظلمة الأراذل وانقذه منهم وساعده على امتطاء أحد الجياد .

كانت المعركة عنيفة قاسية بين الطرفين فقد انساب جيش كثيف من الترك وجمعوا كل قواهم وشددوا النكير على فئة قليلة ليقضوا عليها، وقد أغضبهم وآلمهم نجاح رجالنا فبذلوا غاية جهدهم للوصول الى الراية الملكية المرسوم عليها الأسد ولاهم لهم الا حياة الملك يطلبونها ويؤثرونها على حياة الف رجل غيره .

رأى الملك فى هذه اللحظة « رالف دى موليون » يسقط فى حلبة القتال ويقع أسيرا فى يد الترك فانطلق على عجل نحوه وانتزعه من أيديهم وفضهم من حوله . وكان الملك فى هذه المعركة كالمارد الجبار وقد أكبر الناس فيه شجاعته الفريدة اذ استطاع أن يكون صاحب القدح المعلى على الآلاف المؤلفة من رجال العدو ، وكان فريدا فى تحركه فى شتى الاتجاهات ، ينطلق وحده على جواده دون رفيق معه،فكان بذلك منقطع القرين لا يماثله أى فرد ، وكانت له المكانة التى لا يدانيه فيها أحد ، وهيهات أن تجد كبيرا مهما بلغت شجاعته عظم وبأسه أن يماثله ، وما من أحد يرقى الى مكانته أن قيس به هذا الواحد .

لقد قذف الملك بنفسه فى ذلك اليوم وسط هذه الجموع الكثيفة من الترك الصاخبين ، وبتر بسيفه البتار أعضاء كثيرة ومزق أصحابها اربا ، وكانت ضرباته المتتالية تهوى على يافوخ من تصيبه فتنشق هامته ، ولذلك كنت ترى صرعاه ما بين مبتور الذراع ومقطوع اليد ، وظل على هذه الحالة حتى كلت يمينه من كثرة ما ضرب بحماسه .

بينما كان الملك يفعل هذه الفعال التى لا يكاد العقل يصدقها اذا بتركى ينطلق سريعا نحوه على جواده الذى تراكم الزبد على شدقيه ، وكان هذا التركى وافدا من ناحية العادل أخى صلاح الدين ، وكان العادل رجلا شريفا عظيما موقرا ، ولو انه كان سمحا ويؤمن بالنصرانية لكان حريا به أن يكون أعظم الناس قاطبة .

كان العادل قد أرسل مع هذا التركى جوادين عربيين أصيلين الى الملك اعترافا ببطولته وتعظيما لشجاعته ، وسأل الملك أن

يتفضل بقبولهما وركوبهما لقلة ما عنده من الجياد فى هذه الآونة، فان ردته العناية سالما معافى لم ينله أذى فقد يستطيع أن يجازيه بأية طريقة ترضيه ان هو تذكر خدمتـه (٢٢) . فتقبـل الملك الجوادين شاكرا ، وجازاه عليهما فيما بعد جزاء عظيما .

ان البسالة جديرة بالثناء حتى وان كانت فى العدو ، وهذا ما جرى من تركى لم تمنعه خصومته للملك من أن يمجده فمجده بهذا الأسلوب ، اذ رآى فيه الشجاعة النادرة فلم يرفض الملك الهدية لا سيما فى هذه اللحظة الحرجة التى هو فيها أحوج ما يكون فيها الى مثل هذه الهدية ، وصرح بأنه يرحب بجياد أخرى كهذين الجوادين حتى ولو كانت من خصم أسوأ من هذا الخصم ، اذ الخيل لازمة لا محيد له عنها فى المعركة .

ثم نشب القتال على أشده واحتشدت الكثرة ضد القلة ، واكتسى أديم الثرى بسهام الكفار ورماحهم حتى لقد كان فى الامكان ملوء جعبة منها بقبضة واحدة ، وقد أصاب الضرر الكثيرين الذين لا يحصيهم العد من جراء هذه السهام ، فلما اشتد أوار المعركة واحتدم القتال وأصبح وقعه على رجالنا أمرا لا يطاق فر البحارة المجدفون الى ظهور الشوانى التى جاؤوا فيها، فيابئس ما فعلوا !! ويا للعار الذى ارتكبوه حين انسلخوا عن غيرهم ايثارا منهم لسلامة أنفسهم !! ، فلقد فقدوا شجاعتهم الرائعة ولم يفقدهم اياها أحد غيرهم هم أنفسهم .

ودوت فى الأفق فى هذه اللحظة صيحة عظيمة من جانب الترك الذين كانوا يناضلون نضالا قويا من أجل احتلال المدينة اذ كانوا قد احدقوا بها من شتى النواحى فى محاولة منهم ليدخلوها ، طامعين أن يلتقوا برجالنا فيسحقوهم ، فلما صافحت

صيحتهم المدوية سمع الملك جرى مسرعا وليس معه اذ ذاك سوى فارسين ولكنه اصطحب بعض الرماة بالأقواس ، فالتقوا فى أحد شوارع البلد بثلاثة من أكبر أشراف الترك كانوا مجهزين أحسن جهاز فكر الملك عليهم كرة شديدة تليق به فمزقت جمعهم واستولى على جوادين ، ثم جرد سيفه وراح يضرب به يمنة ويسرة حتى قضى على كل ما تبقى من جيوب المقاومة التى وجدها فى البلد فلما رأى الجمع ما رأوا ، تولاهم الرعب وتفرقوا فى شتى النواحى يلتمسون مخرجا دون أن يجدوا هذا المخرج ، واذ ذاك أمر الملك بسد جميع المنافذ التى بالأسوار فى الحال وأقام شحنة تدفع عن المدينة هجمات الترك عليها .

فـ ٢٣

الملك يقاتل مرة أخرى قتالا رائعا يدهش الجميع على مر الأيام ويجندل فيه آلافا مؤلفة من الأعداء بعون الاهى ثم يعود سالما الى شعبه

حين فرغ الملك من هذا الأمر ركب مسرعا الى ساحل البحر حيث كان الكثيرون ــ وقد تفطرت قلوبهم فزعا ــ يلتمسون النجاة على أسـطح الشوانى ، فطلب الملك اليهم الرجـوع وبـذل كل ما يستطيع بذله فى محاولة منه لحملهم على القتال والوقوف الى جانب رفاقهم مادام فيهم نفس يتردد. فأجدى حثه نفعا واستجابوا له فعادوا جميعا الى النضال راضين بما يقسمه الله لهم ، فأقام الملك فى كل غراب خمسة حراس فقط ، وأسرع هو عائدا ببقية الرجال ليعاودوا القتال من جديد حتى يكونوا عونا لجيشه الذى اشتد الضغط عليه .

حين وصل الملك الى ساحة المعركة قذف بنفسه وسط الترك المستميتين فى القتال ، وقد فاضت نفسه حماسة وكر عليهم كرة ضارية مزقت شملهم وفرقت جمعهم حتى ان من كانوا بعيدا عنه تساقطوا على الأرض دون أن يمسهم ، ووقع البعض على البعض ، ولم يسمع قط بهجمة كهذه الهجمة يقوم بها فارس واحد فقط .

وتمكن الملك ــ وهو المحارب الذائع الصيت ــ أن يصل الى قلب جيش الأعداء فأحاطوا به وطوقوه من كل جانب فى محاولة منهم للقضاء عليه ، فخاف رجالنا حينذاك أن ينال الترك منه ما يريدون فيفقدونه فاضطربوا خوفا عليه ، وفزعوا أن يعقب ذلك سوء ما بعده سوء ، لاسيما وقد تلفتوا فلم يجدوه فقد غاب عن أنظارهم فحسبوه قد لاقى حتفه ، فاقترح البعض منهم أن يذهبوا للبحث عنه ، ذلك لان صفوفنا كلها كانت متماسكة فان تفككت أو تصدع شملها فلا مفر من أنهم هالكون جميعا عن بكرة أبيهم .

لكن ماذا يفعل الملك وهو فرد وقد أحاط به الوف عدة ؟

ان اليد لتعجز عن تدوين ما يترتب على ذلك ، وان العقل ليعتريه الذهول مما يتصور وقوعه .

ترى من ذا الذى تسنى له أن سمع بمثل هذا ؟

ان شجاعته كانت قوية ، وكان هو ثبت الجنان على الدوام « ولم يكن يطأطىء قط أمام أمواج الحياة المعادية » ، فقد كانت الشجاعة على الدوام ملأ برديه وكذلك كان الاقدام رفيقه ، وان شئنا الايجاز قلنا انه كان يغشى على الدوام ساحات القتال ولا يمل من الحرب .

ترى هل ثم مزيد من القول أقوله فيه ؟

ان التاريخ ليذهب للقول بأن قوة « انتايوس (٢٢ Antaeus الخارقة كانت تصاحبه حين يسقط وأنه لا يقهر أبدا ما دام على سطح الأرض ، ولكنــــه مـــات حين ارتفـــع عن الأرض ، وان كان ذلك بعد صراع طويل .

كذلك يقـال ان جسد « اخيـــل » Achilles الذى قهر هيكتور Hector كان يستحيل على السلاح أن يخترقه لانه غمس فى نهر « ستيكس » Styx غير ان رأس رمح شكته شكة فى كعبه فمات وكان هذا الكعب هو الجزء الوحيد من جسمه الذى يمكن اختراقه .

ان طموح الاسكندر المقدونى أفضى بكبريائه لاخضاع العالم كله ، ولا جدال فى انه أقدم على مخاطرات صعبة وأنجزها، وانتصر فى معارك لا تحصى بفضل قوة من معه من الفرسان الأقوياء الأمجاد، الا أن قوته كانت تتركز فى حيويته السريعة .

كذلك فان كل الشــعوب تحكى عن معــارك « جوداس مكابيوس » Maccabaeus القوى فقد غاض غمار معارك بارزة ظلت على الدوام موضع الاعجاب ، لكن حين تخلى عنه شعبه فى القتال عمد الى اســتخدام آلاف عدة من الأجانب فى المعركة ثم سقط مع اخوته ومات .

لقد تمرس الملك ريتشارد بالمعارك منذ نعومة أظفاره فان نبس « رولاند » به فى بأسه وبطشه بدى « رولاند » ضعيفا . ولست أدرى كيف ظـل على الدوام لا يقهر ، ومنيعـا لم يهزمه أعداؤه ، ولعل ذلك راجع الى عناية الاهية حاطته فصانته .

لقد كان جسده صلبا كالنحاس لا يؤثر فيـه أي نوع من السلاح ، وكان يهز السيف فى يمينه ويضرب به الضربات المتتالية فيتنحى الأعداء من طريقه ويكونون قسمين فحينا تراه يضرب هذا القسـم وحينـا تراه يضرب القسـم الآخر ، ويقتحـم صفوفهم ولا ينكص على عقبيه (٢٤) « كالأسد جبار الوحوش لا يرجع من قدام أحد » ، وهو ان هاجمهم بدد جموعهم وسحق كل من يعترضه منهم ، وكان سـيفه منجلا يحصـد الأرواح حصدا ، ويمكن أن يقال بحق فى وصف ضرباته ان من يتلقى ضربة واحدة منها لا تعوزه أخرى ، وكان اذا غضب بدى وكأن بسالته الصارمة وجدت فرصتها فى التعبير عن ذاتها .

وكان اذا ضرب راكبا شطره نصفين من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وأصاب الجواد بمثل ما أصـاب راكبه لا فرق بين أحدهما والآخر . وكان الهلاك فى يمناه التى يمسك بها السيف ويهوى به فلا يصيب جسد أحد الا أورده الهاوية .

وكان كلما نظر حوله ووجد نفسه بعيدا عن رفاقه استمات فى القتال ، وكلما اشتد العدو فى محاولته القضاء عليه بما يقذفه به من سهام ويرميه به من نشاب كلما هيج غضبه فزاد اندفاعا ولم يملك كبح جماح نفسه وانفلت زمام ثورته .

ومن الأعمال الأخرى الباهرة التى أنجزها فى هذه المناسبة أنه كان قد أصاب أحد الأمراء بجرح كان فيه هلاكه ، وكان هذا الأمير أبرز اخوانه ومجهزا أحسن تجهيز ، وكانت شجاعته مضرب المثل اذ مكنته من انجاز أعمال كبيرة حق له أن يفخر بها وحملته على نقد الآخرين فكان ينعتهم بالجبناء القاعدين ، وحدث ان همز هذا الأمير جواده فقفز به قفزة جعلته فى مواجهة الملك واستطاع

رميه عن حصانه ، غير انه قام من سـقطته واستل سيفه وهاجمه وضربه ضربة أطاحت برأسه المحوطة بالسلاح ، وقطع كتفه ، وبتر يده اليمنى ، فلما رأى بقية من معه من الترك ما حاق بصاحبهم طارت نفوسهم شعاعا وفارقتهم شجاعتهم وانفصلوا بعيدين عن الملك وفروا من حوله مذعورين حتى انهم لم يستطيعوا رميه ولو من بعيد ، ومن ثم عاد الملك سالما معافى لم يصبه أذى وهو وسط جموع العدو ، وانطلق الى شعبه يشجعه ويقوى من عزيمته .

لقد ارتفعت روح رجاله المعنوية بعد أن كانت قد هوت الى الحضيض ، ودب فيهم الأمل محل اليأس حين أبصروه يعود من عند العدو ، وتحيروا لم يعرفوا ماذا يفعلون اذ لو كان قد مات لآلت جميع جهود المسيحيين الى الفشل الذريع ولا نتهت الى العدم .

لقد كان جسم الملك كله مغطى بالسهام حتى لكأنه جسد قنفذ ، ولم يكن جواده بأقل منه من كثرة السهام التى رشقته فاستقرت فى سرجه .

على هذه الصورة كان ذلك الملك العظيم المنقطع النظير فى المعركة .

لقد استمرت هذه المعركة من الصباح الباكر حتى الغسق ، واستطيع أن أقول انها كانت معركة شديدة الوحشية ، وضـارية غاية الضراوة ، وستظل مبعث دهشة واستغراب ولربما لم يصدق البعض أن يستمر الجانبان يقاتل أحدهما الآخر قتالا لم يكونا فيه متكافئين ولكن لا جدال فى أن ذلك تم بارادة الرحمن الرحيم وعونه ، ولم يهلك فى هذا اليوم القمطرير من رجالنا سوى واحد أو اثنين ، وان قيل ان ما نفق من خيـل الترك أربى على ألف

وخمسمائة رأس ظلت مبعثرة تغطى فسيح الأرض ، كما زاد قتلاهم من الرجال على سبعمائة نفس ، الا أنهم رغم ذلك راحوا يتشدقون ويتباهون بأنهم سوف يسوقون الملك نفسه الى صلاح الدين ، غير أن الذى حدث هو أن الملك وأصحابه من الفرسان الصناديد قاموا بأعمال باهرة جمة قف لها شعر رأس العدو .

ف ـ ٢٤

صلاح الدين يسخر من تباهى قومه بامساكهم الملك ويتشارد فيدافعون عن أنفسهم انهم لم يروا قط فارسا مغوارا مثله

لقد رعت العناية الالهية شعبنا وحفظته فلم يمسه سوء ، وأما الجيش التركى فقد انسحب .

ويقال ان صلاح الدين ندد بمن معه ممن يتشدقون بالآمال العراض وسألهم : « أين من قالوا انهم سوف يأتون بالملك أسيرا؟ ومن هذا الذى كان أول من أمسكه ؟ وانى لأسألكم أين الآن هذا الرجل ؟ لماذا أراكم ممسكين عن احضاره » ؟ .

فخرج اليه تركى كان من بلاد بعيدة ورد عليه قائلا :

« الحق أيها المولى ان هذا الملك الذى تسأل عنه الآن ليس كبقية خلــق الله . انه فارس لم يســـمع أحد بمثــله منذ الدهر » (٢٥) . فهو فرد فى ثباته وقريع دهره فى بأسه ، وانه لنسيج وحده فى استعمال سلاحه ، وانه للسابق ان هو قيس بغيره ، وانك لتراه أول خواض للغمرات وآخر عائد منها ، ولقد بذلنا كل جهدنا كى نمسكه فلم ننجح ، وما من أحد يستطيع

الوقوف أمام سيفه ، ولا الصمود أمام هجمته الشرسة اذ لو فعل لأصــابه وكــان المــوت مصــيره ، وان أعمــاله لأعمــال هى فوق قدرة البشر » .

ف ـ ٢٥

الملك يقع مريضا بسبب جهده وانهماكه فى القتــال

أدت متاعب هذا اليوم وشدة وطأة القتال الى اصابة الملك ورجاله بالاعياء الفادح والانهاك الذى ما بعده انهاك ، وأفضت مشقة المعــركة الى وقــوعه فى براثن المــرض ، وزاده ضغثا النتن المتصاعد من الجيف الملقاة فى العراء ، فتلوثت الناحيــة كلهــا مما ترتب عليه تفشى الموت فى الناس حتى قضى عليهم الا القليل منهم .

ف ـ ٢٦

صلاح الدين يخبر الملك المريض بأنه قادم لمسكه وحينذاك يبعث الملك الى قيصرية فى طلب الفرنسيين فيرفضون طلبــه

حينذاك بعث صلاح الدين الى الملك من يخبره أنه قادم عليه فيمن معه من الترك وعازم على القبض عليه ان جرؤ على انتظاره ، فرد عليه فى برهته انه لن يتزحزح قيد أنمله ، وانه غير تارك موضعه بل هو فى انتظاره ما دام فى صدره نفس يتردد وما دامت فيه قدرة على الوقوف على قدميه أو الزحف فما كان للشــدائد أن تنال من شجاعته الملكية فيخور ويضطرب .

وكان الملك يعلم فى الوقت ذاته بما هو فيه ذاته من المرض ، فلما تدبر الأزمة الحالية وما آلت اليه الأمور ادرك انه لن يستطيع الركون الى الواحة مادام « العقرب قريبا منه » ، والخطر موشكا على هـلاكه ، ولذلك بعث الى قيصرية بكونت « هنرى » يطالب الفرنســيين الذين كانوا قد ذهبوا اليها من قبـل بالعودة اليـه ومساعدته فى الدفاع عن البلاد ، كما أنبأهم بما يعانيه من المرض ووطأته ، ويخبرهم بفحوى رسالة صلاح الدين اليه .

الا أن الفرنسيين رفضوا رفضـا باتا أن يمدوا اليـه يد المساعدة أيا كان نوع هذه المساعدة حتى ولو كانت تافهة . ورأوا ـ حين صار الأمر موكولا اليهم ـ أن يتخلوا عنه ويتركوه يتلقى ضربات أعدائه الترك على الرغم من أن بعضا من هؤلاء الفرنسيين استنكروا من اخوانهم هؤلاء أن يقفوا منه هذا الموقف المزرى بهم وأنكروه عليهم .

فما الذى يمكن أن نقوله فى هذا الصدد ؟

وأى أمان لثلة ضئيلة ولا نقول لمرضى يوجدون بين كثير من المعتدين الترك ؟ ... لقد كان من الأجدى فى هذا الوقت تدمير عسقلان بدلا من أن تكون تحت رحمة مجهول غير معروف .

انه اذا ما قدر للأعداء القاء القبض على الملك المريض من غير أن يلقوا مقاومة من جانبه وهو طريح الفراش فانه يسهل عليهم حينئذ اجتياح عسقلان من غير أن يلقوا أحدا يصدهم فيهددون بالتالى كلا من صور وعكا .

الملك يرغب فى العودة الى عكـا ليسـترد عافيته ولكن رجاله يصرون اصرارا تاما على معارضته ، ومن ثم يلتمس هدنة امدها ثلاث سنوات فيحصل عليها

انشغل بال الملك بموضوع مرضـه وما ألم به من تدهور صحته تدهورا باغته فى وقت غير ملائم ، ولذلك أمر قريبه كونت طرى والداوية والاسبتارية بالقـدوم اليه شخصـيا وشرح لهم ما يعانيه من علة اشتدت عليه ، وأعلنهم انه مجمع أمره على الرحيل سيما وان المنطقة قد أصبحت موبوأة وغير آمنة فلا قدرة لتوفير الأمان لها ، وكلف جماعة منهم اختارهم بنفسه بالذهاب الى عسقلان لحراستها، وكلف آخرين غيرهم بحراسة يافا ، أما هو فقد أخبرهم انه عائد الى عكا لالتماس العلاج حتى يشفى من علته ، فأجمعوا كلهم على معارضته ، ورفضوا رفضا باتا أن يقوموا ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ بمراقبة التحصينات فى أثناء غيـابه ، وصمموا تصميما لا رجعة فيه على ما قالوه ، وأصروا الا يحرسوا أية قلعة من القـلاع ، فلما فرغوا من كلامهم هذا « مضوا (٢٦) عنـه ولم يعودوا يمشون معـه » .

اسخط ردهم هذا الملك غاية السخط وآذاه أشد الايذاء ، وكان لرفضهم الاستجابة له وقع أليم فى نفسه لانه لم يعد يجد أحدا ما يوافقه على خططه ورغباته ، وظل فترة من الوقت حيران لايدرى ماذا يفعل ، ولا ما هى أحسن الطرق التى يسلكها ، وذهب به التفكير مذاهب شتى وانتهى الى انه « ليس فيهم من أحد الا وقد حنق عليه فلم يخبره بشىء » (٢٧) .

فلما أفضى به الأمر أخيرا الى أنه غير واجد أحدا منهم يؤيده ، أو ملق بالا الى ما فيه الصالح العام أمر باصدار نداء عام يعلن فيه لمن أرادوا الانخراط معه أن يقدموا اليه ويدفع هو لهم أجورهم ، فتدافع اليه من غير ابطاء مائتان من المشاة ، وخمسون فارسا .

الا ان العلة اشتدت به شدة حتى داخله اليأس من استرداد عافيته ، وفقد كل أمل فى أن يبرأ من سقمه ، وكان هذا الأمر هو الذى شغل باله واضطرب له كل الاضطراب خوفا على الآخرين اذ كان يخاف عليهم خيفته على نفسه هو ذاته ، وهداه تفكيره الألمعى الى اختيارات عدة كان أقلها خطرا هو سعيه فى عقد هدنة ، فان لم تتيسر له الهدنة فليس أمامه الا الرحيل ومغادرة البلاد والتخلى عن الحملة قبل أن تنجز هدفها فان كانت هذه خاتمتها هجرها الأخرون وخلوها كما فعل الذين أبحروا فى جموع غفيرة مستقلين السفن .

هكذا اضطربت الأمور وتعقدت السبل أمام الملك ولم يدر ما الذى يفعله ، ومن ثم أرسل كتابا الى العـادل يسأله فيـه أن يتوسط عند أخيه صلاح الدين لابرام هدنة بينهما لا تمس بشرفه بقدر الامكان .

وكان العادل رجلا كريم السمت فاضلا ، ولقد أظهر فى كثير من الأحوال ما يدل على تقديره العظيم للملك وأنه جدير بكل احترام وتقدير لما طبع عليه من الشجاعة والبأس الذى لا يجاريه فيه أحد، ولذلك كان العـادل حريصـا كل الحرص على أن يحصـل من صلاح الدين على اتفـاق يتفق وما ينشـده الملك ، وكانت بنود الهدنة كما يلى : « ان تخرب عسقلان التى كانت على الدوام شوكة تقض مضجع صلاح الدين طالما هى بعيدة عن سيطرته ، والا يقوم أحد بترميم شيء ما فيها لمدة ثلاثة أعوام ابتداء من عيد الفصح

القتال ، على أن تسلم عسقلان بعد هذه السنوات الثلاث لمن كانوا فيها ، أيا كان هؤلاء دون نظر لمن قد كانت له القوة الأعظم » .

كذلك استجاب صلاح الدين لارجاع يافـا الى المسيحيين ورضخ أن يقيموا فيها آمنين وفى ما حولها من ساحل وجبال وأن يسكنوها .

وأجاز صلاح الدين سلاما لا يبت ولا يقطع بين المسيحيين والمسلمين ، وأن يكون لكل من الطرفين حرية التنقل أينما شاؤوا ، وتطلق للنصارى الحرية الكاملة فى الذهاب الى القبر المقدس دون أن يصادفوا أية عقبات ، وأن يتوفر الأمن فى أى مكان بالقطر لمن يحملون أى نوع من أنواع المتجر للبيـع ، وان تمارس التجارة بحرية » .

وقد دونت هذه الشروط كتابة ، وقرئت على الملك ريتشارد بأثرهـا (٢٨) .

وليس ثمت شك فى أن الملك لم يكن يطمع فى شروط أحسن من هذه الشروط نظرا لما كان يعانيه من المرض ، كما أنه لم يكن عنده من يساعده الا الأقلون ، كما أنه لم يعد يفصله عن مكان العدو أكثر من ميلين .وأما من يرى غير ذلك ويرفض الاتفاق السلمى فكذاب أشر .

ف ــ ٢٨

الملك ريتشارد وصلاح الدين يتحادثان وديا عن طريق الرســل

كان هذا ما أملته الظروف التى لا مفر منها .

أما الملك الذى كانت معنــوياته مرتفعة والذى كان يهدف دائما الى ما هو أحسن ولو ركب الصعاب ، والذى كان يجاهد ما أمكنه الجهاد لبــلوغ الذروة فقــد أوفد من جانبه رســلا الى صلاح الدين الذى قال له رجاله بعد سماعهم ما قاله رسل الملك ان الملك يسعى الى هدنة أمدها ثلاث سنوات لانه معتزم العودة الى بلاده لتفقد أحوالها وحتى يأتى برجال آخرين وبالمال ، فان وفق فى مسعاه هذا عاد وأخرج منطقة القدس من دائرة ممتلكاته .

وحمل رســـل صــلاح الدين رده على هذا الكلام الى الملك ريتشــارد كما أشـــهد الله القــوى ودينــه أنه محسن الظن ببــأس الملك ريتشارد وبحكمته السامية وعلو همته ، وانه اذا ما قدر له أن يفقد البــلد فى حيــاته فانه يؤثر أن تكون للملك ريتشارد لما هو عليه ــ أكثر من سواه ممن يعرفهم ــ من الفطنة والا لمعيــة .

فيالشدة عمى العيون .

انها لترسم خطة لأمد طويل قادم ، ولكنها لا تدرى ما يخفيه المستقبل ، كذلك فان المرء « لا يعرف الغد لأنه لا يعلم ماذا يلده يومه » (٢٩) .

وتطلع ذهن الملك الوقــاد الى مدى بعيد ، وأعد ترتيبــات يغلب عليها العقل للمستقبل ، كما تطلع الى امكانية استرداد الضريح القدس فى يوم من الأيام ، لكنه لم يدرك أبدا ان « جميع الأعمال البشرية معلقة بخيط رفيــع » .

ف ــ ٢٩

الملك يذهب الى حيفا للنقاهة

حينما تأكدت الاتفاقية بالكتابة والايمان هيأ الملك نفســه للذهاب الى حيفا بأسرع ما يمكن ليعالج بالأدوية ويسترد صحته .

ف ــ ٣٠

الملك يأمر بمنع الفرنسيين من زيارة ضريح السيد نظرا لمسلكهم المؤذى أما غيرهم فيزورونــــه

كان الفرنسيون فى هذه الأثناء قد أعدوا عدتهم على أكمل وجه للعودة الى ديارهم ، وعلى الرغم من انتقادهــم الحاد المرير للاتفاقية الا أنهم أجمعوا على أن يتموا حجهم قبل رجوعهم الى وطنهم وذلك بزيارة قبر السيد ، وتذكر الملك ريتشارد حينذاك أنهم كانوا يعارضونه ويقيمون العراقيل فى وجهه ويرفضون مد يد المساعدة اليه فى محاولته استرداد يافا كما ذكرنا آنفا ، وكذلك ما كان من انفضاضهم وتخليهم عنه فى أوقات الشدة المختلفة ، ولكنهم ها هم ذا الآن يطلبون حرسا للذهاب الى الضريح الطاهر فى القدس ، ومن ثم فانه أرسل رسلا كبارا الى صلاح الدين وأخيه

العادل بأن لا يسمحا أبدا لأى أحد كائنا من كان بزيارة القدس ان لم يكن معه كتاب منه هو ذاته أو من كونت هنرى ، حسب رغبة الراغب فى الحج من الفرنسيين وذلك حسب الاتفاق المبرم بينهما .

كان هذا العمل (من جانب الملك ريتشارد) ضربة قاصمة للفرنسيين الذين أحسوا بغصة شديدة المرارة ، فلما أيقنوا ألا جدوى ترتجى مما يريدونه عادوا أدراجهم سراعا مذهولين الى بلادهم ، ولم ينالوا غير الانتقادات المرة .

ولما علم الملك ريتشارد أن الجانب الأعظم من الفرنسيين الذين كانوا يحطون من شأنه ويسلقونه بألسنة حداد رجعوا الى ديارهم وان « أفواه (٣٠) المتكلمين بالكذب قد سدت » فقد اتبع ما هو مكتوب أن « اطرد المستهزىء فيخرج الخصام ويبطل النزاع والخزى » (٣١) ، ففعل ذلك وأمسك عن غضبه « على القلة القليلة تأديبا للكثرة » وانتقاما من المخطئين ، ثم قرر أن ينادى فى الملأ ان من أراد زيارة ضريح السيد يستطيع ذلك الآن وعليهم أن يقدموا معوناتهم الى يافا لاعادة بناء أسوارها .

ف ٣١

أول فريق يحج الى القدس . تولى اندرو دى شافينى حراستهم . خوفهم بسبب ما سلف منهم

أعد الناس أنفسهم للخروج والسير الى القدس وكانوا ثلاثة أقسام ، كل واحد منها تحت مسئولية متولى عليهم ، فكان الأول بقيادة أندرو دى شافينى ، وكان الثانى موكولا به الى رالف

تايسون » (٢٩) Taissun ، وأما الثالث فكان عليه « هيبرت » أسقف ساليسبورى .

وسار الفريق الأول الذى كان عليه « أندرو » ومعه كتاب من الملك ولكنه وقع هو ورجاله فى متاعب وأهوال جمة ربما كانت تكفيرا لهم عن خطاياهم . ذلك أنهم حين بلغوا سهل الرملة اتفقوا على أن يبعثوا رجالا من لديهم الى صلاح الدين يخبرونه بأنهم قادمون عليه فى القدس ، ومعهم رسالة من الملك ريتشارد ، ويسألونه أن يهيىء لهم عهد أمان فى الذهاب والاياب ، وكان الذين وكلت اليهم هذه المهمة من أعلى القوم وأكفأهم ، الا أن صيتهم قد تدهور فى هذه الرحلة بسبب الغفلة التى انتابتهم .

كان رجال هذه السفارة هم : « وليم دى روش » Roches وجيرار دى فيرنيفال Furnival وبطرس دى برو des Preaux فلما وصل هؤلاء الثلاثة الى تورون شيفالييه (النطرون) تريثوا بها فى انتظار حماية الحماة القادمين من ناحية العادل قبل متابعتهم الرحلة ، وبينما كانوا منتظرين هناك غلبهم النعاس ونعسوا » (٣٠) م فلما غربت الشمس مر بهم — وهم نيام — من كانوا اختارهم ليكونوا سفراءهم ، فساروا عنهم وعبروا السهل وبلغوا الجبال ، وحينذاك نظر « أندرو دى شافينى » الى الوراء هو ومن معه فأبصروا هؤلاء الرسل الثلاثة المشار اليهم الذين غلبهم النعاس فنعسوا فأسرعوا اليهم فلما عرفوهم توقفوا وقد تملكهم الفزع الشديد وقال قائلهم « رحمتك أيها الرب وعونك .... لقد هلكنا ونحن أشبه ما نكون » (٣١) م بغنم قد حسنا للذبح » اذ لو عرف الشرقيون بسفرنا الجنونى هذا لهلكنا لأن جيش الشرقيين لا زال مرابطا لم يغادر الناحية .. الا فانظر أيها الرب كيف ان رسلنا الذين كنا نعقد الأمل على أن يكونوا قد أنجزوا

متطلبات ما فيه سلامتنا وسلامة رجوعنا قد « نعسوا » وصاروا خلفنا ، وان الليل لمسرع فى اسدال طنبه على الكون ونحن عزل من السلاح ··· لقد قدنا بهذا العمل أنفسنا الى ما فيه الموت الذى لا مفر لنا منه » .

وانتهى المطاف أخيرا بأن اتصل الرسل بهذا الفريق من الحجاج واشتدوا فى لومهم وتقريعهم على ما كان منهم ومن اهمالهم، ثم أرسلوهم مشيعين بالدعوات ، وألحوا عليهم أن يسرعوا ما وسعهم الجهد فاستجابوا لهم وحثوا الخطا حتى أمكنهم الوصول الى القدس ووجدوا هناك ما يقرب من ألفى تركى أو يزيدون فى الخيام خارج المدينة ، فانطلقوا يطلبون العادل فوجدوه بعد لأى وشرحوا له قضيتهم وبسطوها أمامه ، فأغلظ فى تأنيبهم على ما كان من حماقتهم، واتهمهم بأنهم كانوا قد علقوا حياتهم بخيط واه لأنهم دخلوا بين أعدائهم من غير حراسة أو حماية ، والليل يسدل طنبه على الكون .

وبينما كانوا يتحدثون هذا الحديث وأمثاله فيما بينهم والشمس موشكة على الزوال اذا بفريق الحجاج المشار اليه يقدم من غير أن يعلم أحد بخبره ومن غير سلاح يدافعون به عن أنفسهم ان هوجموا ، فكاد الترك أن يهموا بهم فيقتلونهم وودوا لو وثبوا عليهم . وراحوا يرمونهم بنظرات يتجلى فيها الحقد الأسود الذى يكنونه لهم فى صدورهم ، ذلك ان الوجوه كثيرا ما تفصح عما يجول فى الأذهان . ولم يخف ذلك على رجالنا فخافوهم ولم يسلم من هذا الخوف حتى أشدهم شجاعة واقداما ، واستولى الذعر عليهم جميعا واستشعروا الخشية منهم ، وربما ودوا فى هذه اللحظة لو أنهم عادوا على أعقابهم ورجعوا الى « صور » ، سالمين فى أنفسهم، أو لو أنهم انفلتوا آمنين الى عكا .

وأمضى الحجيج ليلتهم هذه وهم فى رعب ووجل شديدين ، وانقضت هذه الليلة عليهم وهم مقيمون الى جوار جبل من الجبال (٣٢) م .

ف ٣٢

الترك يلحون على صلاح الدين فى الانتقام من حجاجنا ولكنه هو أو عماله أم يمكنوهم من رغبتهم هذه

لما كان اليوم التالى جاء الترك الى صلاح الدين وركعوا أمامه متوسلين اليه أن يأذن لهم بأخذ ثأرهم من المسيحيين الموجودين على مقربة منهم انتقاما لمن كانوا قد قتلوهم فى عكا أولا ثم فى غيرها ، وثأرا لمن فتكوا بهم هناك من أبائهم واخواتهم وأبنائهم وأقاربهم ، وقالوا له ان الفرصة سانحة الآن لما يريدونه . فأمر صلاح الدين باستدعاء القادة الترك ليلقى اليهم بتعليماته فى هذا الشأن .

كان حاضرا هذا المجلس كل من (الأمير سيف الدين) على ابن أحمد المشطوب والعادل ، وبدر الدين (ديلدرم الياروقى بن بهاء الدولة صاحب تل باشر) فلما تداول صلاح الدين معهم هذا الموضوع انتهوا الى وجوب تأمين المسيحيين فى ذهابهم ، وألا يضاروا فى أنفسهم ، ولا يلحقهم ضيق ، وقالوا لصلاح الدين « انه ان قيل اننا شجبنا الاتفاقية المبرمة بينك وبين ملك انجلترا كان فى ذلك حط من مكانتنا وانزالها الى الحضيض ، وانه لحرى بالترك أن يحفظوا عهدهم ويرعوا ما اتفقوا عليه مع أى اناس أيا كان هؤلاء الناس ، ويجب أن تظل كلمتنا سليمة غير مغموزة .

حين قال رجال صلاح الدين هذه الكلمات وألقوها على مسامعه لم يتوان عن اصدار الأمر الى رجاله بتحمل كل منهم مسئوليته فى حراسة المسيحيين داخل المدينة ، وأمر أن لا يضاروا أبدا ، وان يؤمن طريق عودتهم حتى يرجعوا سالمين . وعهد صلاح الدين الى العادل بمراعاة هذا الأمر مراعاة صادقة ، فتقبله العادل راضيا عن طيب خاطر ، واذن للحجاج بزيارة الضريح الطاهر الذى طال شوقهم الى زيارته ، وأعطاهم الحرية وأسبغ عليهم الأمان ، وكفل لهم الطمأنينة والرعاية . فلما أتموا حجهم كما أرادوا وعلى الوجه الذى أحبوه عادوا الى عكا والسكينة تملؤ جوانحهم .

ف ٣٣

خروج الفريق الثانى من الحجاج الماضين الى القدس بقيادة رالف تايسون

بينما كان هؤلاء الحجاج (٣٤) عائدين (بعد زيارتهم الضريح) صادفوا الفوج الثانى من اخوانهم الذين كانوا بقيادة « رالف تايسون ، وكان الملتقى فيما بين قلعة ارنود والرملة .

كان صلاح الدين قد أمر قومه – كما قلنا سابقا – أن يبذلوا غاية ما فى وسعهم لحفظ الدروب والمسالك التى يمر بها الحجيج – أيا كان هؤلاء الحجيج – وهم فى طريقهم الى القدس ، وبذلك أمكننا ان ننعم بالأمان والطمأنينة فى اجتيازنا هذه النواحى ولم نصادف أية عقبة نتأفف منها أو تبعثنا على التذمر . وبلغ بنا السير الى جبل (٣٥) Joy فطالعنا من فوقه مدينة القدس تلوح على قرب

نغمرتنا الفرحة التى لم تشبهها أية فرحة ، فخررنا ركعا على الأرض معفرين وجوهنا فى ثراها تذللا ، ومقدمين الشكر للرب .

ومن هنا استطعنا أن نرى أيضا جبل الزيتون .

بعد ذلك مضى كل واحد منا وهو أنشط ما يكون ، أما الذين كانت معهم الخيول فقد تقدمونا بسرعة مما مكنهم من كثرة تقبيل ضريح السيد كما يشأون بفضل ما تحتهم من الجياد . كما أخبرنا هؤلاء الذين سبقونا أن لدى صـــلاح الدين الصليب الحقيقى الذى كان قد استولى عليه فى احدى المعارك وقد أخرجه المسلمون لهم حتى يتمكنوا من تقبيله وأداء واجب الاحترام والاجلال له .

على ان من كانوا من أهلنا فى الخلف وكانوا يسيرون راجلين رأوا انه تيسرت لنا رؤيته من قبلهم ألا وهو تمثال السيد وكنا وضعنا عنده بعض الهدايا ، ولكن لما كان المسلمون قد أخذوها فلم نعد نترك الكثير من الهدايا هناك لكن عمدنا بدلا من ذلك الى تسيمها بين الأسرى الفرنسيين الذين رأيناهم هناك يعملون وهم مقرنون فى الأصفاد وقد ضربت عليهم مذلة الأسر .

ثم انحدرنا فتابعنا ســيرنا يمينــا الى جبـل الجلجثه (٣٦) وهو الموضع الذى صلب فيه السيد وحيث الحجر الذى كان مثبتا عليه صليبه قد انشطر فلما فرغنــا من تقبيل هذا الموضع تابعنا سيرنا الى الكنيســة القائمــة على جبل صهيون ، وكان على الجانب الأيسر عنه الموضع الذى انتقلت فيه مريم أم الرب المباركة لتكون فى أحضان الأب (٣٧) فانكببنا نقبل هذه البقعة وغسلناها بدموعنا من غير ابطاء ، اذ لم يكن من المأمون التجول هناك فرادى بسبب الشهرة ، ثم انطلقنا حتى نرى المائدة المقدسة كل التقديس التى تصل المسيح فتناول عليها عشاءه الأخير لقبلناها فى عجلة وتركناها

الكمائن التى نصبها القوم الذين لا اله لهم ، وكان الترك يتخطفون الحجيج الذين يتجولون هنا وهناك على غير هـدى ما بين ثلاثة وأربعة ، وذلك عند مدخل الكمائن ويقتلونهم أو يحتفظون بهم سرا .

ولذلك أسرعنا الخطا حتى بلغنا ضريح مريم الطوبانية أم الرب ، وهو الضريح الواقع وسط وادى يهوشافاط (٣٨) المجاور لبركة سالومة فقبلناه بقلب عامر بالايمان الصادق ، ونفس منسحقة . ثم مضينا من هناك الى السرداب الموجود تحت الأرض وهو الذى يقال ان سيدنا ومخلصنا ظل محبوسا فيه طول ليلته الأخيرة فى انتظار صباح الغد المسفر عن صلبه فذرفنا دموع الحزن هتانة ، وقبلنا المكان قبلات الحب .

ولما كان الترك يطاردوننا فقد غادرنا المكان على جناح السرعة .

ولقد شعرنا بالألم والأسى يخترمان صدورنا حين طالعتنا هذه الأماكن المقدسة وقد دنسها الترك الكفرة اذ جعلوها اصطبلا (٣٩) فامتهنت ، ثم خلفنا القدس بعد ذلك وراءنا وسرنا حتى بلغنا عكا .

ف ٣٤

وصول الفريق الثالث من الحجاج القدس وكان هذا الفريق برياسة هوبيرت وولتر اسقف ساليسبورى الذى ابدى له صلاح الدين أعظم احترام واجلال واجابه الى كل ما طلبه منه

ولما طلع الصباح صارت الطائفة الثالثة من الحجاج قريبة من القدس وكان على رأسها اسقف « ساليسبورى » الذى أوفده اليه

صلاح الدين رجالا من رجاله مرحبين بقدومه أجمل ترحيب وتلقوه بتجلة واحترام ورافقوه ، وكانوا له حراسا ، وطافوا به كل الأماكن المقدسة التى أراد الطواف بها .

ولما كان صلاح الدين قد تناهى الى علمه عن طريق رجاله ما عليه أسقف ساليسبورى من خلق سام رفيع ، وما اشتهر به من الحصافة والألمعية والخصال النبيلة فقد عزم أن ينزله فى مسكنه الخاص ، يتكفل بكل نفقته الخاصة ، الا ان الأسقف ابى ما عرضه عليه وقال : « مستحيل على أن أقبل ذلك ، فما جئت الا حاجا » .

حينئذ أمر صلاح الدين أتباعه ان يحوطوا الأسقف ومن معه بكل مظاهر الاحترام ، كما بعث اليه مجموعة كبيرة من الهدايا الرائعة التى بالغ فى انتقائها وجهزها اليه ، ثم دعاه الى لقاء يعقد بينهما رغبة من صلاح الدين فى أن يرى عن قرب سلوكه ويتعرف عليه تمام المعرفة ، كما أطلعه على الصليب الطاهر ، ثم جلسا الى بعضهما وتحادثا سويا حديثا اتسم بروح الود والصداقة .

واستفسر منه صلاح الدين عن خلق ملك انجلترا ، وعما يقوله المسيحيون عن قوم صلاح الدين المسلمين ، فأجابه الأسقف . الحق فيما أقوله لك عن مولاى الملك (ريتشارد) انه لا يوجد فارس قط فى الدنيا يكافئه فى الأمور الحربية ولا من يماثله فى شجاعته وجرأته العظيمة ، ولا يدانيه فى كفه العطاء ، وانه لمن الثابت الذى لامراء فيه انه فرد فى طبعه الكريم بكل ما يجعله أهلا للثناء عليه ، ثم ماذا أقول زيادة عن ذلك ؟ أقول انه اذا خلينا جانبا وغضضنا الطرف عن خطاياك فالرأى عندى انه ما من أحد فى نظرى يعمد الى المقارنة بينكما فى فضائل كل منكما ويقسمها

بينكما الا وجد ان كلا منكما قد حاز السبق فى كل منها ، وهيهات أن يوجد نظيركما حاكم فى العالم كله » .

أصغى صلاح الدين للأسقف وهو صامت لم ينبس ببنت شفة ثم تكلم أخيرا فقال :

« انا لنعرف تمام المعرفة ان الملك (ريتشـــارد) على أكبر جانب من الشجاعة والاقدام ، غير انه كثيرا ما يقحم نفسه فى مواضع الخطر اقحاما لا أقول فيه عنه انه أحمق ولكنى أقول انه يخاطر فيه بحياته كل المخاطرة ، واننى وأنا مشهور فى كل بلد وفى كل موضع بأنى أوثر أن يقال ان لدى من الحكمة والتواضع بدلا من ان يقال اننى شجاع متهور تنقصنى القدرة على ضبط النفس » .

بعد ان طال الحوار بواســطة المترجمين بين الاثنين فى جو سادته الصراحة والصدق والود طلب صلاح الدين من الأسقف ان يسأله أية هدية هو أشد رغبة فيها من غيرها ، ووعده بأنه ملبيها ، فلما أزجى الأسقف اليه الشكر الجزيل على ما بدى منه ساله ان يمهله الى الغد ليتدبر أمر هذا العرض فيما بينه وبين نفســـه . فلما كان اليوم التالى طلب منه الأسقف أن يأذن بترتيب قسيسين من طائفة اللاتين ومثلهما من الشمامسة اللاتين لاقامة المراسيم الدينية الواجبة عند ضريح السيد الذى كان الأسقف قد زاره ، اذ جرى العرف الشامى الهمجى على عدم اقامة التراتيل هناك .

وأضـــاف الأسقف ان يكون معاش القسيسين والشماسين اللاتين والسريانيين المذكورين مما يدفعه الحجاج (المسيحيون) .

وسأله بالاضافة الى ذلك ان يأذن بترتيب نفس العدد من القسس والشمامسة فى بيت لحم لتأدية الغرض ذاته ، وان يتم مثل هذا أيضا فى الناصرة .

ومـع ما كان فى هذا الطلب فى الواقـــع من التغالى الا أنه كان له قدره العظيم عند الرب وهذا أمر لا يجادل فيه أحـد . فاستجاب السلطان الى كل ما طلبه الأسقف الذى بادر فعين القسس والشمامسة ، فأقام كلا منهم فى موضعه ليؤدوا الخدمة الدينية للرب فى موضع لم يشهد قيامها فيه أبدا من قبل . ثم استأذن الأسقف من صلاح الدين فى الرواح فاذن له فغادر بمن معه القدس وعادوا الى عكا .

فـ ٣٥

كثرة جنوح السفن بالحجاج الذين اتموا شعائر حجهم وتعرضهم لكثير من المخاطر

حين أتم الحجاج مراسم حجهم وأوفوا بعهدهم أعدوا السفن للعودة الى ديارهم وأفردوا القلاع وبدؤوا سفرهم ، الا أنه ما لبثت ان هبت عليهم صرصر عاتيــة ففرقتهم فى شتى النواحى ومزقتهم شر ممزق ، وقذفت بهم فى جهات مختلفة فى البحر .

فاما الذين رمت بهم الى موانيه المختلفة فقد نجوا لم يمسهم أذى ، كما جنحت السفن بغيرهم فعطبت وعطبوا هم أيضا معها ، ولقى بعضهم موته فى سفرته هذه ، فصار جوف البحر الواسع هو قبرهم الذى قدر لهم أن يدفنوا فيه .

كذلك أصيب غير هؤلاء وهؤلاء بأمراض لا شفاء لهم منها ، ولم يقدر لهم أبدا استرداد عافيتهم حتى حين استقر بهم المقام فى ديارهم .

أما غيرهم الذين كتبت لهم السلامة والحياة وسلموا من كل آفة فقد عرفوا معنى التضحية المريرة فما منهم الا من فقدوا آباءهم أو اخوتهم أو أقاربهم أو خلانهم الذين راحوا ما بين قتيل بحد السيف ، أو من هاجمتهم الأمراض فأودت بهم ، كما رمى الحزن سهامه التى اخترقت الأفئدة فملأتها بمختلف أنواع العذاب ، وتحمل كل منهم تضحية واستشهادا من نوع معين ، وعلى الرغم من ذلك كله الا أنهم أقدموا بقلوب صافية واخلاص تام وايمان عميق على هذا الحج مرضاة للرب، ومحبة فيه .

على انهم لم يسلموا من أناس راحوا يسخرون منهم ويتقولون عليهم شتى الأقاويل ، منها قولهم ما أتفه ما جناه هؤلاء الحجاج فى أرض القدس اذ لم يستطيعوا استردادها .

ولم يكن الذين قالوا هذا الكلام يدرون ماذا كانوا يقولون لأنهم كانوا ينتقدون أمورا غابوا هم عنها ولم يكتووا بنارها ولا يعرفون شيئا عنها ، وأظن أن ما نقوله نحن هنا هو الحق لأننا رأينا (٤٠) الأهوال والصعاب التى يسخرون هم منها ، وانا لنعلن فى حزم وقوة ونعلنها مدوية لتصل الى آذان الذين كانوا حاضرين يومذاك ان قد هلك فى هذا الحج (٤١) مائة ألف مسيحى ، ولاقوا مصارعهم أملا منهم فى أن يجاوزا من الرب وجده ، وكانوا قد تركوا نساءهم وضحوا بمتعتهم وصبروا على تحمل ما أضعف أبدانهم ودهور صحتهم للضعف عسى ان تبقى نفوسهم طاهرة لم تلوثها الأدران .

كما نعرف أنه هلك الى جانب هؤلاء ثلاثمائة ألف حاج أو ربما أكثر ممن فتكت بهم الأمراض وضربهم الجوع بنابه أثناء حصارهم عكا ، ثم فى أثناء وجودهم داخلها .

ترى من ذا الذى يساوره الشك فى خلاص أرواح رجال أمجاد أفاضل كانوا يستمعون الى القداس اليومى يلقيه عليهم قساوستهم ، وليس من شك فى ان هؤلاء الرجال لابد وأن تكون النجاة قد كتبت لهم .

ف ٣٦

الملك يدفع قبل عودته الى وطنه فدية وليم دى برو الذى ألقى القبض عليه بدلا منه حين تظاهر فى المعركة بأنه الملك ريتشارد فافتداه الملك بعشرة من أعظم أشراف الترك

أعد الملك ريتشارد كل ما يحتاج اليه فى سفره من زاد وسلاح ، ثم دفعه سموه وعظمته ونبل نفسه (٤٢) الى افتداء وليم دى برو » (٤٣) فأطلق سراح عشرة من كبار الترك مقابل تحرير وليم من أسرهم . ولقد ذكرنا أنفا (٤٤) كيف تقبل وليم ان يكون فى أسر الترك بدلا من الملك ريتشارد ، وكان الترك من جانبهم على أتم استعداد لدفع أى مبلغ يطلب منهم فى سبيل الابقاء على وليم المذكور فى أيديهم ، ولكن ما طبع عليه الملك من روح سامية كريمة لم تكن لتقبل ان يتهاون فى هذا السبيل بأية حال من الأحوال .

ف ٣٧

عودة الملك ريتشارد الى وطنه • ووصف رحلة العودة وسوء طالعه

حين تم ترتيب الأمور على أكمل وجه وأصبح الملك متأهبا لركوب السفينة قرر أن يتأكد تمام التأكد ان لم يبق شيء مهما تفه قد يحط من انجازاته العظيمة ، لذلك أمر أن ينادى بأن يأتى الى بابه جميع دائنيه وان تسدد جميع ديونه كاملة بل وبزيادة حتى يكون بذلك آمنا من أى شيء قد يشوه سمعته ، أو شكوى قد تثار فيما بعد تتعلق بممتلكات تتهم السلطة الملكية بانهـا كانت قد استولت عليها أو صادرتها .

ولما كان يوم عيد القديس ميخائيل (٢٩ سبتمبر ١١٩٢ م) أبحرت من ميناء عكا الملكتان • أعنى برنجاريا ملكة انجلترا زوجة الملك ريتشارد ، وجوانا ملكة صقلية الأرملة .

وكان ابحار الملك ريتشـارد الى انجلترا يوم عيد القديس « دنيس St. Denys وهو التاسع من أكتوبر ، فلما رفعت المراسى تأهبا للابحار سحت العيون بالدموع وتعالى النحيب والزفرات من الصدور الملتاعة المحبة ، وتمنى الجميع للملك أطيب الأمانى ودعوا له أطيب الدعوات ، راجين له التوفيق فى كل عمل يقدم عليه ، وتذكروا شجاعته والفضـائل التى تجمعت فى برديته وهو فرد واحد ، وتعالى الشهيق ، وسمعت أصـوات كثيرة تندب وتصيح قائلة : « يا أرض أورشليم •• ها قد ذهب عنك كل عون فأى مدافع عظيم هذا الذى نراك قد فقدته ؟ ••• ومن ذا الذى يحميك ويصد عنك شر المغيرين اذا شجب الاتفاق ؟ ، اذ ها هو ذا الملك ريتشارد راحل عنك » وظل الجميع يبكون مكررين هذه العبارات وأمثالها .

لم يكن الملك قد استرد عافيته بعد تمام الاسترداد ، وان كان الجميع يسألون اللهأن يصح ويبرأ مما يعانيه .

وأقلع البحارة بالسفن وبدأ الملك فى رحلته التى استعد لها من قبل وظل هو ومن معه مبحرين طول ليلتهم ، مهتدين بنجوم السماء • فلما تبلج صباح اليوم التالى تلفت الملك وراءه بعيون ولهى الى الأرض التى يغادرها وظل برهة طويلة واقفا يتأمل ويفكر ، ثم راح يصلى ويقول :

« إيتها الأرض الطاهرة ••• استودعك الرب القادر ذى الرحمة الكريمة وأسأله أن يمد فى عمرى حتى أستطيع مساعدتك كما يريد هو ، وليس من شك فى أننى آمل بعضا من الوقت فى مستقبل الأيام حتى أجلب اليك المساعدة التى أعتزمها » .

وسمعه الكثيرون وهو يهتف بهذه الكلمات .

حين فرغ الملك من كلامه هذا أمر البحارة بفرد الأشرعة كاملة فهى تمتلىء بالريح فتجتاز سالمة هذه البحار اللجية الهادرة ، ولم يكن يدرى لحظتئذ أن فى انتظاره مصاعب جمة وأهوالا جساما ، وان هذه الأهوال دبرت له بليل فى فرنسا حيث أحكم المتآمرون وضع خطة خسيسة بنصب كمين للقبض عليه ، أما هو فقد كان خالى الذهن من كل شيء حول هذا الموضوع ، ولا يتوقع شيئا من هذا النوع وهو خارج فى سبيل الرب من أجل خدمته ، متكبدا مشاق الحج .

أخذت أمواج البحر الصاخب تقذف بالسفن هنا وهناك ، ما أطال أمد الرحلة ، حتى اذا ما اقترب عيد القديس مارتن

(١١ نوفمبر) اتجهت مباشرة ، وفى سرعة عاجلة الى أول أرض لاحت له ، وكانت هذه الأرض من أراضى امبراطورية القسطنطينية ، وكان الموضع الذى هناك يعرف باسم « كورفو » ، الا أنه لم يرغب فى أن يراه أحد فى تلك النواحى اذ كان لديه ما يؤكد مخاوفه ، فقد كان يعرف ما عليه امبراطور الناحية وقومه من لؤم نفس وخسة طبع للأسباب التى سبق أن ذكرناها من قبل ومن ثم اتجه ـ وكان مصيبا فى هذا الاتجاه ـ الى ابرام اتفاق مع بعض القراصنة الذين شاءت الظروف حينذاك أن يصادفهم هناك ، فبسط لهم يده بالمال الكثير الذى طلبوه منه نظير نقله على عجل الى بلد يكون أكثر أمانا من هذا البلد ، ومن ثم غادر سفينته الملوكية ولم يعلم أحدا أنه « ملك » ، ووضع نفسه فى شجاعة فى أيدى هؤلاء القراصنة الغلاظ ، واذا كان قد تمكن من تغيير مظهره العام الا أن طبيعته لم تتغير لأنها تنطوى على روحه السامية الجريئة ، وان الرجل النبيل لا يستطيع أن يخفى شجاعته التى فطر عليها » .

لم يستصحب الملك فى خروجه هذا سوى أربعة من رفاقه ، فاجتاز به القراصنة اقليم « سلافونيا » ، وعبر من هناك خلال « اكويليا » Aquileia ودخل بـلاد ليوبولد [الخامس] دوق النمسـا الذى ألقى القبض على الملك فى مدينة فيينا وذلك فى العشرين من ديسمبر .

فيالله كيف جوزى الملك ريتشارد سريعا على حسناته بغير الذى يستحقه !!

لقد عمل مخلصا ولم يبخل بروحه يبذلها من أجل الصالح العـام ، ومع ذلك فقد شن خصومه (٤٦) [ومنهم فيليب ملك فرنسا] هجوما ممقوتا على ما ورثه من أملاكه وقلاعه فى نرمنديا ،

وقام عليه حساده ومنافسوه ولم تأخذهم به رحمة ولا شفقة ، ولم يكن ثم ما يدعو الى ذلك فلم يخلص من حبسه الا بعد أن افتدى نفسه بقدر كبير من المال تقاسمه دوق النمسا وهنرى امبراطور ألمانيا فيما بينهما ، وقد استلزم دفع الفدية فرض ضرائب كبيرة وأخذ أموال طائلة من جميع أفراد شعبه ، كما صودرت أشياء كثيرة ، حتى لقد بيعت كؤوس الفرسان الموجودة فى الكنائس ، كما بيعت الأطباق الذهبية والفضية المكرسة للاستعمال الكنسى ، ولم يكن ذلك أمرا يخالف الشرع تبعا لقرارات أسلافنا طالما أن الحاجة فى هذا الوقت الحرج كانت تلح على اللجوء الى هذا العمل .

ان الملك ريتشارد الذى أحرز انتصارات باهرة على الترك قد وقع فى شرك نصبه له اخوانه فى الدين ، وألقى القبض عليه رجال كان المعتقد أنهم يشاركونه العقيدة المسيحية ان كانوا حقا مسيحيين .

انه لحق ما يقال من أن الخيانة التى تدبر فى الخفاء انما هى أنكى وأشد ضررا من الخصومات الصريحة ، حتى لقد قال بعضهم فى ذلك « أن النجاة من الشقاق أيسر من تجنب الخديعة » ، فما أفظع البلوى التى جرت ويالهولها !!

انه على الرغـم من أن جميـع عداته لم يكونوا قادرين على مواجهته الا أن فئة من الناس الضـالين المغمورين قد أمسكوه وحبسوه ، ورغم ان قوات امبراطورية صلاح الدين المشتركة لم تستطع أخذه أو قهره الا أن أسره تم فى ألمانيا المسيحية ، فما أعجب تصاريف القدر الغادرة !!

لقد عومل الملك العظيم معاملة مخجلة ، وعلى الرغم من أنهم لم يكبلوه بالأغلال الا أن حراسه كانوا أجلافا ، وانه لمن الثابت المؤكد أن لا شىء أشد ازعاجا لمن يجرى فى عروقه الدم الملكى من أن يكون خاضعا لأمة لا تستحق التقدير ، وان يكون هو رهن اشارة الأعداء ، وان الذين ولدوا أحرارا لحريصون على ألا يقوموا بأى شىء مستنكر أو يضعوا شيئا فى غير موضعه ، وعلى أية حال فان التجارب أكثر تعذيبا للانسان اذا لم يكن معتادا عليها .

ان بعض شانئى الملك ريتشارد وحســاده ليذهبون للقول بأنه أهل لما لحق به من سوء المعاملة لأن له يدا فى موت المركيز ، ولكن هناك شهادة تعتبر أكبر شهادة تبرىء ساحته ، وقد شهد له بها واحد غريب ، فهى ليست قولا موحى به عن قصد . ذلك أنه بينما كان الملك ريتشارد ملقى به فى السجن بأمر الملك ليوبولد دوق النمسا بحجة الشك فيه أو كان مدفوعا الى ذلك بطلب والحاح من اناس معينين معوجى السيرة اذا برسالة تصل الى الدوق تتعلق بموت المركيز وقد جاء فيها :

من شيخ الجبل الى ليوبولد دوق النمسا . تحية لك وبعد فانه لما كان هناك كثير من الملوك والأمراء العظام فيما وراء البحار يتهمــون ريتشـــارد ملك انجلترا وصاحبها بأن له يدا فى مقتل المركيز ، فانى أقسم بالله الذى له الحكم الأبدى ، وبحق الدين الذى أعتنقه ان ليس له يد فى موته ولا ملامة عليه فى مصرعه بل ان سبب موت المركيز هو ما يلى : ذلك انه بينما كان واحد من أخوتنا [الحشاشين] قادما فى سفينة من « انتاليا » الى بلدنا اذا بعاصفة تهب فتدفع [بالأخ] الى « صور » فأمر المركيز بالقبض عليه وقتله ، فقتل ، واســتولى على مقادير كبيرة من المال كانت معه ، فأرسلنا نحن رسلنا الى المركيز وطلبنا اليه أن يرد علينا

اموال أخينا فلم يقبل ما سألناه ، ورد رسولنا خائبا ، وألقى بتهمة موت أخينا على ريجينالد صاحب صيداء . ولكنا استطعنا ان نتبين الحقيقة جلية عن طريق أصدقائنا وتؤكد هذه الحقيقة أنه هو الذى قتله ، وانه هو الذى استولى على ما كان معه من المال .

« فبعثنا اليه برسول آخر اسمه « ادريس » فأراد اغراقه فى البحر ، لكن سرعان ما تمكن أصدقاؤنا من مساعدته على مغادرة « صور » فانفلت الينا سريعا وأخبرنا بما كان قد جرى ، فدبرنا منذ تلك اللحظة قتل المركيز فأرسلنا بأخوين الى « صور » فقاما بقتله جهارا أمام أغلب أهلها .

« لقد كان هذا هو السبب الذى أدى الى موت المركيز ، واننا لنؤكد لكم أن اللورد ريتشارد ملك انجلترا لا ملامة عليه ابدا فى مصرع المركيز ، فان يكن هناك من يسعى الى الاضرار بالملك انجلترا بسبب هذا الحادث ، فهو ظالم ، قد جانبه الحق ، وينبغى عليك انت أن تكون على ثقة اننا لا نقتل أحدا فى هذا العالم من أجل مكافأة أو سعيا وراء مال ، وانما نفتك بمن يكون قد سبق له الاضرار بنا .

« وعليك أن تعلم اننا كتبنا اليك هذه الرسالة فى دارنا الى حصننا مصـياف فى منتصف سبتمبر وفى حضرة اخواننا الختمناه بخاتمنا فى سنة ١٥٠٥ منذ الاسكندر » .

ان هذه الرسالة تؤكد تأكيدا لا يعتوره الشك ان الملك كان بريئا من دم المركيز لأن الاعتراف الصادر طواعية وعن غير ارغام بلو على أى قول مغموز ينطوى على الاتهام الباطل ، ومن ثم فليس من من شىء يعتبر جريمة اذا كان له سببه القوى الدافع اليه » .

وأخيرا شاءت رحمة الرب ، وأدت مجهودات الملك ريتشارد الشخصية وبراعة المخلصين له الى اطلاق سراحه هو نفسه وفك قيده رغم أن المال لعب دورا كبيرا فى المفاوضات التى أدت الى هذا الاطلاق ، اذ كان المعروف ان ريتشارد كان قادرا على دفع الكثير منه وبذلك تم الافراج عنه ، واستطاع بعد رحلة موفقة ان يصل الى جزيرة سندوتش بانجلترا .

ثم تمكن بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ أن يصل الى مدينة لندن التى لبست أبهى حللهـا وأزينت أجمل زينة ، واستقبلته استقبالا حارا فى كنيسة « سنت بول » فى موكب ضم رجال الدين والعلمانيين جميعا ، فلما انتهى الناس من هذا الاستقبال وفرغوا منه ظل الملك ريتشارد مقيما ثلاثة أيام فى قصره فى « وستمنستر » ، ثم غادره حاجا الى ضريـح القديس ادموند فأهدى اليـه علم امبراطور قبرص الغالى والمرصع بالمجوهرات .

ثم توجه الملك بعدئذ الى « نوتنجهام » حيث ظل ثلاثة أيام يستقبل المدافعين عنها ومن استسلموا له ، فاحتفى بعيد الفصح فى « نورثا مبتون » فلما كان يوم الأحد التالى لعيد الفصح توج فى كنيسة ونشستر على يد « هيبرت » رئيس أساقفة « كانتربرى » الذى قام بأداء الخدمة الدينية . وكان من الحاضرين فى ذلك اليوم وليم ملك اسكتلندا .

واستطاع الملك ريتشارد فى فترة قصيرة [بعد تتويجه] ان يهدىء ثائرة الثائرين فى المملكة ويجعلهم وفق ما يهوى ويشتهى .

ولما كان يوم ١٢ مايو ١١٩٤ م عبر البحر الى نورمنديا وأعد نفسه لاخماد ثائرة فتنة أضرمها منافسه ملك فرنسا الذى لم يكن فى ثورته على حق ، ولم تكن هجماته تجد من قبل من يشكمها أما الآن فقد وجد من يرد عليها بغارات متعددة كان لها رد فعلها القوى فاسترد [الملك ريتشـــارد] حقوقه المســـلوبة بالسيف وبالرمح .

ملحـــق

كان الملك ريتشارد يتمتع بثلاث فضائل تثير الاعجاب وتجلب له الشهرة ، وهى فضائل قل ان تجتمع فى شخص واحد الا فيما ندر .

ذلك انه كان (أولا) بارعا كل البراعة فى استعمال الأسلحة .

(ثانيا) انه أظهر بعد نظر فى اسداء النصيحة فى هذا المجال .

وأما (الفضيلة الثـالثة) فقد كان لكـلامه وقع فعال فى النفوس

ولا جدال فى أن كل واحدة من هذه الخصال كانت كافية لتمجيد صاحبها ، لكنه جمعها كلها فى ذاته ، واستعمل كل واحدة منها حسبما تمليه الظروف ، فقد كان يستعمل السلاح ضد أعدائه ، ويسدى النصيحة لخلانه ، أما الكلمة فكانت للجميع .

ولم يكن هناك من أمير سواه يبزه فى عطفه على رجال الدين والكهنوت وفى احترامه لهم ، يضاف الى ذلك انه لم يكن ثم أحد أكثر دقة منه فى اســـتجلاء شـــخصية محدثه بمجرد النظرة

(*) هذا الملحق وارد فى واحد من مخطوطات هذا الكتاب الثلاثة وقد ترجمته «بلين نيكلسون» والحقته بكتابها ، وفعلنا نحن مثل الذى فعلته ، فالحقناه ايضا بهذه الترجمة العربية لتزداد الفائدة .

العابرة اليه مما ترتب عليه أن لم يكن فى مجلسه موضع للئيم خسيس القدر ، أو وضيع من الناس ، سافل المنزلة ، ساقط الجاه ، وليس عنده متسع لمن لا ضمير له .

كذلك كان الملك لا يطيق أن يكون فى مجلسه متهم بالجبن والنذالة .

ثم انه كان يعرف أن المظهر الخارجى غالبا ما يعكس المخبر ، وان التعبير الآدمى انما هو انعكاس لما فى الانسان من عقل ، ومن ثم فانه كان يرى ان الذين زانهم الخلق الحسن وانفردوا بالشجاعة النادرة هم الخليقون بأن يمحضهم صداقته ويختصهم بمرافقته ، وانا لنسأل ترى ما الذى يمكن أن يربط بين عقول الأنداد ويكون أكثر فعاليه فى الألفة من التشابه فى الخلق ؟ ومن هنا كان يجد سعادته فى مصاحبته الفرسان الذين كانوا على غراره ، وكان يعرفهم معرفته لذاته .

وفى هذا الموضوع يقال ان « أوجستوس قيصر » اقتصر فى أصدقائه على اثنين من الناس فقط واختصهما بوده ومحبته لما وجده فيهما دون سواهما من الفضائل التى امتازا بها . أما أحد هذين الاثنين فهو « ميكيناس » Maecenas لتواضعه وصمته ، أما ثانيهما فهو « اجريبا » Agrippa لصبره ودأبه على العمل الجاد ، ولم يتأت لأحد أن يحكم فى وقت فيكون سعيدا مثلما تأتى لقيصر هذا حين بشر بمن سيولد .

وكان الملك ريتشارد اذا اختار أصدقاءه وخلانه اختارهم لما تزكيهم عنده أخلاقهم السوية ، وبذلك لم يكن مخالفا فى نمطه

لأوجستوس قيصر ، ولم تكن روحه النبيلة لتحتمل له ان يبقى غير مؤثر ، وعلى الرغم من ان أولئك الذين تأكلهم الغيرة والحسد من نجاح الآخرين يقاتلون كثيرا للحصول على ما يتمنون الا أنهم لايستطيعون ان يحرموا زوجة أبيهم من شهرتها الفائقة المجيدة » .

لما عاد الملك ريتشارد الى انجلترا بعد اطلاق سرحه ظل مشغول البال قلق الخاطر بشأن الهيبة الملكية ، لذلك جاهد جهادا صادقا ليكسب الذرارى مثل الذى اكتسبه هو ، وكان اعتقاده أنه بهذه الطريقة يستطيع ان يخدم الرب من ناحية ، وان يسعد شعبه والمملكة من ناحية أخرى . لذلك أراد رجالا أكفاء يكونون جديرين بأن يعينهم بلا توان أو تقصير فى الأسقفيات الخالية لرياسة أديرة ، ويكون تعيينهم مطابقا للشرعية .

كذلك ما كاد الملك ريتشارد يصل الى الوطن حتى أصدر قرارا نافذ المفعول يقضى بتشديد الحراسة على الثغور والموانى المطلة على البحر حتى لا تتمكن أية سفينة أجنبية أو محلية من ان تحمل الحنطة أو أى نوع من أنواع الطعام الأخرى الى ممالك أجنبية كما كان الحال فى الماضى . وكان هدفه من وراء هذا القرار ألا تحرم انجلترا من انتاجها الغزير .

الى جانب ذلك فانه قرر ان توحد فى كافة أرجاء المملكة الموازين والمكاييل المستعملة فى بيع القمح حتى لا تكون هذه المكاييل محل عبث العابث فيزيد فيها أو ينقص أو يغشها بأية صورة من الصور ، اذ كانت تختلف من منطقة الى أخرى اختلافا بينا كبيرا ..

وقرر عمل حلقات حديدية تثبت فى هذه الحواف العليا لهذه المكاييل ٠

وشبيه بهذا ما قرره بشأن مكيال « الجالون العام اذ قرر عمل كيل خاص يـكال به فى الأحواض والجرادل والبراميل الخشبية المستعملة لحفظ السوائل ، وأمر ان تحفظ هذه المكاييل الملكيـة التى من هذا النوع لدى موظفى كل مقاطعة ورؤساء أحياء كل مدينة لضبط المقاييس الصحيحة والقضـاء على ما يكون فيها من غش وتدليس ٠

أما فيما يتعلق بالأقمشة والمنسوجات فقرر أن يكون طول كل قطعة منها ذراعين ، وأما عرضها الذى بين الحافتين فتسعون سنتيمترا ٠ يضاف الى ذلك انه قرر ان ينسج القماش من الغزل الخالص والا يخلط بشىء آخر قصد غشه ، فان وجد فيه ما يعيبه كاضافة مادق غريبة الى القماش ، أو حدوث عيب فى النسـج (سواء أكان مصنوعا فى هذا القطر أو كان مستوردا من مكان آخـر) فيقوم الموظفون الرسميون بحرقة علانيـة وأمام أعين الناس ، ولا يلتفت فى ذلك الى سلطـان أى شخص أو نفوذه ٠ وترتب على ذلك أن لم يعد أحد ما يطمع فى كسب غير مشروع ، وكان الباعة يعرضون فى محلاتهم أقمشة سابقة لهذه المنسوجات التى تتميز بالوانها الزاهية جدا ويعلقونها بعضها الى جانب بعض فيخفى على الناس ما قد يكون فى بعضها من غش وتدليس حيث لا يظهر اللون الباهت بجلاء وبذلك يستطيع الباعة ان يخدعوا المشترين ويحتالوا على فطنتهم ٠

كذلك أمر الملك بصبغ الأذرعة الحديدية حتى لا يتلاعب الناس فيها فيقصرونها ٠

والى جانب ذلك فقد عين مراقبين على اليهود يقيمون العدالة بينهم وتكون لهؤلاء المراقبين الصلاحية فى الفصـل فى القضايا والمنازعات التى قد تنشأ بين المسيحيين واليهود ٠ ولقد ثبت عنده من الشكاوى المتكررة ان اليهود كانوا يزيفون مراسـيم كاذبة ، ومن ثم قرر الا تكتب أية عقود سرية بين الكاثوليك واليهـود ، بل يجب ان تتم العقود بعلم ومعرفة وشهادة اناس معينين ، ليس لهم من عمل سوى النظر فى هذا الموضوع ، وان تكون السجلات من ثلاث صور ، يقوم بحفظ احداها موظفون مختصون بالشئون المالية كما يعهد بالصـورة الثـانية الى رجل ثقة كى يحـافظ عليهـا وأما الثالثة فتكون لدى الدائن اليهودى ٠ وبهذه الطريقة لا يمكن لشىء ما أن يغتال لأنه يقارن بما عند الآخرين من عقد يخرجونه للمقـارنة ٠

وحتى لايرمى نصرانى بالتعامل بالربا فقد تقـرر الا يوفى دين بأكثر من أصله ، فاذا حدث ان شخصا ما كان قد أخذ من غيره على سبيل الأمانة ايجارا سلفة أو أرضا (أو أى شىء آخر ، وكان يغل دخلا سنويا واستلم مبلغ الدين الأصلى فان الملكية لابد وان تعود الى المالك الأصلى حتى ولو لم يكمل العقد ٠

واذا اتهم شخص بالعمل على غير هذه اللائحة عوقب بالسجن لمدة عام ويوم واحد ٠ ثم يكون خاضعا بعد ذلك لرحمة الملك يرى فيه رأيه ٠

لقد قرر الملك ريتشارد هذه الأمور كلها وغيرها مما يشابهها مما كانت ضرورية ولازمة لأهل البـلاد ، وكان الحامل له على ذلك هو حبه الشديد للعدالة ، ومن ثم فقد بقيت سليمة لم تمس طول عهده ٠

كذلك فانه ما كادت قدماه تمسان أرض نورمنديا حتى قابل أخاه « جون » الذى كان فى ذلك الوقت « كونتا » ، والذى ما كاد يرى الملك حتى انكب على قدميه ملتمسا عفوه سائلا غفرانه عما ارتكب من الجرائم . فبادر الملك الى الصفح عنه وحالت ألمعيته السامية بينه وبين ان يتنزل فينزل العقاب بمن هو دونه ، مكتفيا بأنه له القدرة على الانتقام لنفسه .

كذلك لاحظ الملك ريتشارد فى احدى المرات أن بعض الكنائس فى الريف لاتملك كئوس قربان فضية ، فأخبروه ان قد سبق الاستيلاء عليها لدفع فديته وأمر بصنع كئوس جديدة كثيرة أماكن جمة مختلفة ،وان توزع هذه الكئوس على جميع الكنائس التى تكون فى حاجة اليها . غير ان موته المبكر حال دون تنفيذ هذا القرار على الوجه الأكمل . والمعروف أن وضع الأمور يتغير بتغير الأشخاص ، كما ان القرار ــ أيا كان هذا القرار ــ يوقف العمل به بعد موت صاحبه .

وأخيرا فلما لم يكن هناك مادة اضافية تستحق أن نتكلم عنها فقد قررنا أن نقصف قلمنا عن الاسترسال فى الكتابة حتى نقص مزيدا من خبر الأعمال المجيدة التى تكون أهلا للثناء ويكون اسمه جديرا بالحمد برحمة من الرب .

★★★

هنا تنتهى رحلة الحجاج وأعمال الملك ريتشارد .

فلينزل الرب الشفيق الرحيم الذى لا يحب الهلاك لأحد شآبيب رحمته على روحه .

ذلك الرب هو مخلص العالم يسوع المسيح سيدنا الذى له المجد والقوة والسلطة .

أمين .

حواشي الكتاب الثالث

(١) راجع قصة السفينة الاسلامية التى يشير اليها المؤلف فى المتن أعلاه والتى دمرها الصليبيون فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، الترجمة العربية ولمزيد من الايضاح عن هذا الموضوع الذى يتناوله المؤلف فى النص فان Ralph of Decet II, 94. يقول ان حادث السفينة جرى يوم السادس من يونيو ، وان الزحف الصليبى كان بعد غده أى الثامن من نفس الشهر ، وانظر ايضا ما جاء فى :

Vainsauf : Narrative of the Crusade of Richard Coeur de Lion, p. 200.

(٢) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية (ك ١ ، ف ٢٦) ٠ اما الزيب هذه فقد وردت فى الترجمة الانجليزية باسم Casal Inbert ولكنها وردت باسم Casella Ymbrici فى Vainsauf, op. cit.

(٣) أعما الرسل ٢/٥ ٠

(٤) المقصود هنا ريتشارد وعسكره ٠

(٥) نشير فى هذه الترجمة بالرجوع الى Roger, of Honden, Gesta 2, 170. بمقارنة ما جاء فيه بما ذكره المؤرخان المسلمان ابن شداد والأصفهانى ٠

(٦) أشعيا ١٢/٥٥ ٠

(٧) Heggai 2/7.

(٨) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب الحالى ، ج/١ ف ٢ ، ف ١٣ ٠

(٩) لم يرد هذا الفصل فى « امبرواز » كاملا .

(١٠) يرى القارىء المتتبع لاخبار هذه الحرب فيما أورده المؤلف أن امبرواز يقف عند هذا الخبر ليتابع أحداث ١١٨٧ .

(١١) Ambroise, Crusade de Richard Lion Heart, lines 4427-4550, 4570-4599.

(١٢) انظر فيما بعد من هذه الترجمة العربية الكتاب الرابع ، ف ١٠ .

(١٣) وردت فى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب أن هذا المرض يسمى Arnoldic وقال « امبرواز » بانه مرض يصيب الشفتين .

وقد علقت المؤرخة هيلين بأنه مرض يؤدى الى سقوط الشعر وأظافر الأيدى كما يصيب الفم والشفتين بالالتهاب وقد يؤدى الى العمى ، وقد أشار العماد والبهاء الى مرض ريتشارد :

(١٤) Ambroise, lines 4600-4692.

(١٥) انظر صمويل أول ١٨/١٧ .

(١٦) Roger Honden, Gesta, 2, 168.

(١٧) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، الكتاب الثانى ، ف ١٢ ،

(١٨) سماه امبرواز بجيلبيرت ، انظر Ambroise, op. cit., line 4719.

(١٩) سيرد ذكر اسمه هنا وفى كثير من الأخبار التالية ، وتقول المصادر الموثوق بها عنه انه « كان فارسا من فرسان ابن كونت بواتييه » كما نراه يحارب تحت راية ريتشارد بحماسة استحق عليها من ريتشارد أن يزوجه من وريثة « شاتيروه » ، انظر فى ذلك :
L'Histoire de Guillaume de marechal (ed. P. Meyer); H. Nicholson op. cit.

(٢٠) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، الفقرة ١٦ .

(٢١) قارن ما جاء فى هذه الفقرة بما هو وارد فى Ambroise, op. cit. lines, 4741-4780.

(٢٢) يستفاد من الوارد فى Roger Honden, Gesta, 173. ان هذا الامر قد تم يوم الثالث من يوليو أى قبل المعركة المذكورة فى الفقرة التاسعة من هذه الترجمة الحالية .

(٢٣) تختلف الأخبار الواردة فى المتن أعلاه عما ذكره العماد والبهاء حيث يؤكدان اشتراك صلاح الدين بنفسه فى هذه المعركة .

(٢٤) أشار البهاء اليه اشارة موجزة ولكنها تضمنت تقديره الكبير له ، وهو ينعته بالفرنجى ويصفه بضخامة الجثة ضخامة تستلفت الأنظار . وقد كان موته بالنار الاغريقية أصابته فأهلكته .

(٢٥) اذا طالعنا الفقرة ١٥ من هذا الكتاب عرفنا ان مفاوضات التسليم جرت فى هذه اللحظة ، وربما كان مما ييسر فهم احداث هذه اللحظات هو أن نقرنها بما جاء Ambrosie, op. cit., lines 4909 et fol. على أن التأكد من صحة التواريخ الواردة فى المصادر العربية والغربية يبين الفجوة الكبيرة فى هذه الناحية نظرا لاستعماله كل جانب التقويم الخاص به ، ومع ذلك فانه يمكن مراجعة Roger, Gesta, 2, 174. ومقارنته بما جاء فى جدول سنوات التوفيقات الالهامية لاحمد مختار (تحقيق محمد عمارة) ، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة ١٩٨٠ .

(٢٦) انظر فى التواريخ الواردة فى هذا الفصل ما جاء فى كل من ، التوفيقات الالهامية ، R. Howden, Chronica, 3, Ambroise, op. cit., 4950-5040.

(٢٧) فيما يتعلق بالتواريخ راجع الترجمة الفرنسية للبهاء فى مجموعة Rec. des Hist. des Cr. Orient. p. 312; R. Honden, Gesta, 2, 174. كما يلاحظ أن « أوبرى كليمنتس » قتل خلال هذه الموقعة الواردة أعلاه ، وانظر أيضا ف ١٤ هنا .

(٢٨) المزامير ٤٨ /٥ ٠

(٢٩) هذا الكلام يحتاج الى نظر ٠

(٣٠) تتدخل العواطف فى ذكر احداث هذا الفصل عند كل من المؤرخين المسلمين والصليبيين ، وبمقارنة ما كتبه كل من الجانبين بالآخر نرى اختلافا كبيرا فى التقدير ٠

(٣١) متى ١٢/٤٥

كما تختلف المصادر مرة اخرى فى تحديد آمد هذه الفترة الممنوحة ، فهى عند صاحب كتابنا هذا « شهر » ، لكنها شهران عند ابن الاثير فى الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية الشرقيـة) Rec. Hist. Croisades Orientaux, II, p. 46. أما البهاء فقـد أهمل تحديد الفترة الزمنية ٠

(٣٢) بالرجوع الى ما ورد فى Roger Honden, Gesta, 2, 186. نرى ان طائفة غير قليلة من الأشراف والنبلاء الذين ساهموا فى القتال حتى هذه اللحظة قد عادوا الى ديارهم ، ذلك لأنهم رأوا — كما هو وارد فى روجر — « ان الملكين قد استوليا لانفسهما على كل الغنائم ، والأسلاب ولم يأخذ هؤلاء النبـلاء شيئا مع ما تكبدوه من الأموال التى يتطلبها اشتراكهم فى هذه الحرب ٠ على انه بالرجوع الى ما هو وارد فى كل من المتن اعلاه وفى « فانسوف » لا نجد اشارة الى شىء من هذا الذى ذكره « روجر » ولكن نرى بدلا من ذلك أن الملكين اباحـا لعسـكرهما استباحة البـلد ٠

(٣٣) راجع لوقا ١/٨٥ ٠

(٣٤) راجع لوقا ١/٦٨ ٠

(٣٥) لوقا . ١٢/٤٨ ٠

(٣٦ ، ٣٧) يذكر احد المؤرخين الذين صاحبوا هذه الحملة وكان فى جيش ريتشارد ان هذا الملك سأل ملك فرنسا أن هو فكر فى مهجمة مدينة من مدنه — أن يبعث اليه برسالة ينبهه فيها بذلك قبل هجومه عليها بأربعين يوما ويقول امبرواز

Richard required him to swear not to lift his hand while he
was on his pilgrimage,
And after he was back in France.
To give him warning advance,
By message forty days before.

Cf. Ambroise, op. cit., lines 5417-5321.

H. Nicholson, op. cit., p. 225,

(٣٨) اما نص فاسوف فيكاد يكون نفس الكلمات اذ يقول ٠

(٣٩) Vinsauf, op. cit., p. 219, last line. an egg or a farthing to release them

★ ★ ★

حواشى الكتــاب الرابــع

(١) Nicholson : op. cit.

(٢) Nicholson : op. cit.

(٣) وردت أسماؤهم بتفصيل أكثر من هذا فى
Roger, Gesta, 2, pp. 147- fol.

(٤) فيما يتعلق بالأحداث الواردة فى هذا الفصل راجع :
Ambroise, op. cit., lines 5543-5563.

(٥) يستفاد من عبارة قصيرة واردة فى « امبرواز » أن ذلك استمر حتى منتصف أغسطس ، ويرى البعض أن هذا التحديد هو أقرب ما يكون الى الواقع والدقة ، انظر : H. Nicholson, op. cit., p. 232, note 10.

(٦) لم يستعمل امبرواز – حين ساق هذا الخبر – ما يدل على أن الملك استعمل الشدة ولا عمد الى الارغام ، مما يغير بعض الشىء فى مدى تطبيقه لما يريده .

(٧) مع أن روجر هوندن « يعتبر مصدرا رئيسيا وشاهد عيـان لكثير من أحداث هذه الفترة الا أن كتابه خلا من أى شىء يدل على كثرة القتلى والخسائر فى هذا اليوم ،انظر : Roger, Gesta, 2, p. 189.

(٨) يستدل مما قاله « امبرواز » – وهو شاهد عيان لهذا الحادث – على أن استثناء هؤلاء النسوة من مصاحبة الجيش لم يكن مانعا من حدوث موبقات داخل صفوفه .

(٩) أشعيا ١١/١٠ .

(١٠) راجع البهاء فى وصفه للعلم .

(١١) هذه اشارة الى يهوذا المكابى الذى تقول الأخبار عنه أنه خلص اليهود من حكم الملوك الوثنيين فى القرن الثانى قبل الميلاد .

(١٢) هناك تفصيل كبير عن سبب هذا النزاع وما أدى اليه من سفك الدماء ، وهذا التفصيل وارد فى Roger, Gesta, p. 155 fol.

ومنه نستفيد أن هذا النزاع شب أولا فى « مسـينا » يوم الثانى من فبراير ١١٩١ وذلك حين أقبل الملكان ريتشارد وفيليب برجال معهما ووقفوا خارج أسوار « مسينا » يشاهدون الألعـــاب التى يقوم بها أهل البلد ، فلما فرغوا من هذه المشاهدة ، وبينما هم عائدون الى قواعدهم اذا بهم يصادفون – ولازالوا فى المدينة – رجلا قادما من الريف ومعه حماره وقد حمله بأعواد قصب طويلة فاستوقفوه وأخذوها منه وراحوا يتبارزون بها فيما بينهم ، واستطاع « وليم دى بارس » أن ينزل الملك ريتشارد من فوق ظهر جواده مما أثار حنق الملك فأخرجه من بين صفوفه وطرده ، وأمره ألا يعود بعدئذ أبدا الى صفوفه ، وذهبت محاولات فيليب ملك فرنسا أدراج الرياح فى تهدئة ريتشارد ، فكان لذلك وقع اليم على « وليم دى بار » مما أرغمه على مغادرة مدينة مسينـا كلدا بعد ثلاثة أيام من هذا الحادث ، انظر : H. Nicholson, op. cit., p. 238, n. 24.

(١٣) يفسر واقع هذه الأحداث وما كان من الصليبيين من حذر وعدم مقابلتهم الشر ما يذكره Ambroise, op. cit., lines 5833-5860.

(١٤) هذا ما أورده مؤلف هذا الكتاب فى أصله اللاتينى ، أما Stubbs (1864), Chronicles and memorials of the Reign of Richard I, p. 252. فى نشره لهذا الكتاب فقد سماه « بير الكنيســة » .

(١٥) الوارد فى الأصل منطوقه اللاتينى وهو Theriaca ويكاد يكون نفس اللفظ العربى « الترياق » .

(١٦) هناك قيصريتان احداهما – كما يقول قاموس الكتاب المقدس – أم المدن فى فلسطين فى أيام العهد الجديد وتقع على البحر على بعد ٤٤ ميلا من عكا ، وكان اسمها الأصلى « برج ستراتو » ، وبنى هيرودس الكبير مدينة هناك سماها « قيصيرية » اكراما لاوجستوس قيصر ، وفيها انتخت ·· فسباستيان ··

امبراطورا ، واما قيصرية الأخرى فتعرف بقيصرية فيلبس وهى بانياس الحديثة المبنية عند سفح جبل الشيخ شمالى بحر الجليل ، وهى آخر المدن التى زارها المسيح حيث ورد فى متى ١٦/١٣ « وجاء يسوع الى نواحى قيصرية فيلبس وسأل تلاميذه قائلا من يقول الناس انى أنا ابن الانسان » ، وكان اسمها القديم « بعل جاد » أى « اله الحظ ٠ انظر تفصيل ذلك فى قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٥٥ — ٧٥٦ ٠

(١٧) المقصود بهذا الأمير التركى الكبير — كما سيرد بعد قليل — اياز الطويل ٠

(١٨) فيما يتعلق بالأحداث الواردة فى هذا الفصل ، راجع :
Ambroise, op. cit., lines 6034-6090.

(١٩) دأب المؤلف على وضع « راء » مكان « الفاء » فهى عنده على الدوام « ارسور » ٠

(٢٠) تحدده المصادر الغربية بالخامس من سبتمبر سنة ١١٩١ ، فاذا أخذنا بهذا التاريخ فان تحركهم كان فى شعبان عام ٥٨٧ ، انظر التوفيقات الالهامية ، ١٩٩/١ ٠

(٢١) أفاض المؤرخ المحدث المعاصر Smail (R.C.), Crusading Warfare 1097-1193, pp. 163 et fol. فى الكلام عن أحداث هذا اليوم ، ومنه نستخلص أن المعركة لم تكن بالصورة التى يوردها المؤلف أعلاه ، فلم تكن التحاما ضاريا ، بل هى أقرب ما تكون الى مناوشات وان لم تخل من صرعى ٠

(٢١) (أ) متى ١٢/٢٠ ٠

(٢١) (ب) مزامير ٣/١٢٩ ٠

(٢٢) يوحى الكلام الوارد فى المتن أن « جارنييه الطرابلسى » كان جنديا عاديا ، غير أن الواقع يظهر ما فى هذا الكلام من البطلان ومن بعد عن الحقيقة ، فقد كان « جارنييه » هذا فى اللحظة التى يتكلم فيها المؤلف عنه من مقدمى الإسبتارية ولذلك رجحت المؤرخة هيلين H. Nicholson, op. cit., p. 251, n. 46. أن هذا القول من المؤلف يدل على أنه كتب بعض فصول هذا الكتاب بعد بضع سنوات من وقوع هذا الحادث ، فأنساه مرور السنين ما كان عليه « جارنييه » الطرابلسى هذا من مكانة فى المجتمع الصليبى ٠

(٢٣) المقصود بذلك تقى الدين عمر صاحب حماه ، وهذه كانت آخر مرة يظهر فيها « التقى » على مسرح الأحداث الصليبية الاسلامية فى هذه الحرب ، راجع مقدمتنا لكتابه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » طبع عام ١٩٦٩ ٠

(٢٤) يستفاد مما جاء فى « امبرواز » ان هذا الجواد كان جواد امبراطور قبرص ، وقد إختص ريتشارد به نفسه ، انظر :
Ambroise, op. cit., line, 6605.

(٢٥) انظر الاشارة الواردة اليه فيما سبق ج ١ ، الكتاب الأول ، ف ٤٣ ٠

(٢٦) انظر تفصيل ذلك فى : Ambroise, op. cit., lines 6769-6834.

(٢٧) Ambroise, op. cit., lines 7051-7082.

(٢٨) يستدل مما جاء فى كتاب Hist. de Guillaume de Marechal ان وليم دى « دى كاجو » هذا كان من الفرسان الفلمنكيين ، وقد صحب ريتشارد فى حملته الصليبية هذه ، ثم انه حارب فيليب الثانى ملك فرنسا سنة ١٢١٤ فى الوقعة المعروفة بواقعة « بوفين » حيث وقع أسيرا ولكن سرعان ما افتدى نفسه وأطلق سراحه ، وسيرد له ولزميله « أوتو دى ترانسبرنج » ذكر فى الكتاب الخامس من كتابنا هذا (ف ٢٤) فانظره هناك ٠

(٢٩) ترى هيلين نيكلسون أن الفرنسيين الذين يقصدهم المؤلف فى المتن أعلاه هم الفرنسيون الذين كانوا يعملون تحت امرة دوق برجنديا ٠

(٣٠) فى الأصل « الوثنية » ، وهو لفظ يستحيل وروده على لسان صلاح الدين ليصف به العقيدة الاسلامية وانما هو لفظ من ابتداع واضع هذا الكتاب الحالى ٠

(٣١) كان السبب الداعى الى ذلك هو ان هذا الحصن كان يشرف على بلاد فلسطين من ناحية الجنوب ، ويستفاد مما سبق ٠ (الكتاب الأول ، ف ١٥) ، ص) ان صلاح الدين كان قد استولى عليه فى مايو ١١٨٩ ، أى ربيع الأول ٥٨٥ هـ ، انظر التوفيقات الالهامية ، ٦١٧/١ ٠

(٣٢) مزامير ٤/١٢١ ٠

(٣٣) رسالة بولس الاولى الى أهل كورنثوس ١٣/١٠ ٠

(٣٥) حكمة سليمان ٤/٧ .

(٣٧) حكمة سليمان ٤/٣ .

(٣٦) الولان كما فسرتها بعض الكتب هم أهل الشـام الذين انحدروا من أصول أوربية ، انظر : H. Nicholson, op. cit., p. 280, n. 106.

(٣٩) لم ترد كلمة « يازور » فى الأصل ولا فى الترجمة الانجليزية ولكن يرد مكانها Casal of Baths وهذا الموضع يرد باسم Casal of Plains فى شعر امبرواز حيث يقول :

For Knowing of this ambus cade.
And of the Came The Turks had made,
The King of England had repaired,
To Casal des Plains, well preparer.

وقد اعتمدت المؤرخة « هيلين نيكلسون » على مقال لم ينشر ، عنوانه :

Pringle (D.), Templar Costles between Jaffa & Jerusalem.

سوف ينشر فى كتاب تحت اشرافها يشمل مقالات فى هذا الموضوع بعنوان :

The Military Orders : Welfare and Warfare.

★ ★ ★

حواشى الكتـاب الخامس

(١) فيما يتعلق بالبولان ، راجع حاشية رقم ٣٨ ، الكتـاب الرابع .

(٢) الكلام من هنا هو فى الواقع تعليق من صاحب هذا الكتاب ومؤلفـه وهذا تعليق على فكرة الامتناع عن متابعـة الزحف على القدس وتأييد للكف عن الخروج ، وهو فى هذا يؤيد رأى مولاه ريتشارد ، وهو الرأى الذى أشـار به عليه « العشرون » المختارون لتقرير خطة القتـال بعـد وصولهم الى هذا المنحنى من مسيرة الحملة .

(٣) هنا ينتهى التأييد الذى قدمه المؤلف للرأى الذى عارضـه الحكمـاء العشرون فى شأن الامتناع عن مواصلة الزحف على القدس . راجع الحاشـية السابقة .

(٤) يرجح البعض أن هذه العبارة القصيرة تتضمن الإشارة الى ماكان قد اعتزمه الملك ريتشارد فى صيف ١١٩٢ من تحويل حملته لمهاجمة مصر وغزوها ، انظر : H. Nicholson, op. cit., p. 287, n. 6.

(٥) Ambroise, op. cit., lines 8143-8155.

(٦) أى مملكة بيت المقدس .

(٧ ، ٨) راجع ما سبق ، الكتاب الرابع .

(٩) الواقع أن هؤلاء الفرنسيين التسعمائة المنسحبين لم يكونوا هم وحدهم كل من انسحبوا فى ذلك اليوم ، بل كان هناك سواهم وذلك حسبمـا تقـرره

المصادر الغربية ، فقد اسحب اتباع كل فارس ومعاونيهم . هذا الى جانب آخرين من الصناع والحرفيين والاتبــاع ومعهم كل أسلحتهم وما لديهم من مئونة ، وسيرد فى الفصل ٢٨ من هذا الكتاب أنه كان هنــاك ما يقرب من عشرة آلاف فرنسى يعسكرون خارج صور ، ويرجح المؤرخون أن معظمهم ــ ان لم يكونوا كلهم ــ قد انسحبوا هم أيضا .

(١٠) أمثال ٢١/٣٠ .

(١١) ذكرت المصادر الغربية أنه كان الرابع من مارس ١١٩٣ ، انظر :
Lyons (M.) & Jackson (D.) Saladin : The Politico of the Holy War, Cambridge 1982, p. 367.

فاذا اخذنا بهذا التاريخ (أى الرابع من مارس) طابقه شهر ربيع الأول سنة ٥٨٩ هـ . انظر التوفيقات الالهاميه ، جدول سنة ١١٩٣ .

(١٢) راجع الحاشية السابقة .

(١٣) أخطأ امبرواز اذ وضع كلمة « ملك فرنسا » والصواب ما وضعناه أعلاه بين الحاصرتين .

(١٤) كان أسقف بوفيه Beauvais هذا من اكبر أعوان المركيز والمؤيدين له فى كل ما يقدم عليه من عمل فى هذا المجال ، كما انه كان ممن ساهم واتم زواجه بالملكة « سيبيل » . انظر الجزء الأول من هذه الترجمة ، الكتاب الأول ، ف ٦٣ .

(١٥) يلاحظ فى خبر مصرع المركيز على يد الحشاشين أن المؤلف لم يورد تاريخ مقتله ، وانما يمكن التماسه عند :
Roger Howden, Chronica (Trans. by Riley, The Annals of Roger), p. 181.

حيث يقرر ان ذلك كان يوم السابع والعشرين من ابريل ١١٩٢ ، وان كان البهاء يؤخره الى اليوم التالى . على أن هنــاك ملاحظة لا ينبغى ان تفوت القارىء هى ما يذهب اليه ابن الاثير فى الكامل فى التاريخ حيث يقرر ان صلاح الدين بدا فى اغتيال المركيز وانه رشى بعض الحشاشين لاغتياله فاغتاله هذان الاثنان . غير انه يجب ان نذكر انه لم يكن من خلق صلاح الدين التوسل بالغدر ، هذا الى جانب روح المعارضة التى يضمرها ابن الاثير تجاه صلاح الدين .

(١٦) يلاحظ أنه لم يرد ذكر لهذه القصة فى « امبرواز » مما يحمل على اليقين بأنها من خيال المؤلف هنا ، رغبة منه فى تمجيد ملكه ريتشرد وبيان شدة بأسه وشجاعته .

(١٧) لم يرد ذكر لهذا الخبر فى « امبرواز » ولذلك أشار انيه « لامونت » فى تعليقه ، انظر : Ambroise, op. cit., p. 341, n. 4.

(١٨) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا فى هذه الترجمة لأن الملك ريتشارد لم يكن راضيا عن زواج المركيز بايزابيل فقد كانت حاملا .

(١٩) هذه اشارة من المؤلف ــ وان كانت اشارة عابرة ــ الى أن الملك ريتشارد كان غير راض عن زواج ايزابيل منذ البداية بالمركيز ، ومما زاد الطين بلة أنها تزوجت من « هنرى » وهى ذات حمل .

(٢٠) المقصود بالدعم هنا تمكنه من مملكة بيت المقدس .

(٢١) تصور رالف دى ديكيتو أن هذا الزواج تم بعـد ثمانية أيام فقــط من مقتل المركيز ويستفــاد أن الكونت هــنرى اقتحــم مخـدع « ايزابيــل » ليلا وارغمها على هذا الزواج الذى تم رغم انها حامل من « جى » الذى لا زال على قيد الحياة والتى لا تزال تعتبر زوجته عند الكثيرين ممن يتبعون الحق .

(٢٢) ربما تبادر الى ذهن القارىء انه الصليب باكمله ، الذى كان الصليبيون قد فقدوه فى وقعة حطين وذلك حسبما يقرر مؤلف هذا الكتاب ، اذ سبق له ان اشار الى هذا الأمر ، راجع الجزء الأول ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

(٢٣) يرجح البعض ان « ريموند فيتز » هــذا كان أكــبر أولاد بوهيمونــد الثالث أمير انطاكية .

(٢٤) راجــع الكتــاب الرابــع ، ف ٢٤ حيث ذكــر أنــه كان يلــح على صلاح الدين أن يرسله ليغير على الجيش الصليبى ، وانظر فيما بعد ف ٤١ .

(٢٥) بمقارنة هذه العبــارة الواردة فى شأن هذا اليوم بما جاء فى امبرواز Ambroise, op. cit., p. 354. يلاحــظ أن هــذا المـؤرخ يقــول : « لقد مكثنا فى هذا الموضع واسترحنــا طيلة يوم العيد فلما كان الغد يوم الاثنين بدأنا فى الزحف الى عسقلان ، وهنا ملاحظة يجب الالتفات اليها هى أن كل ما هو بالنون وارد بضمير الغائب .

(٢٦) يقع هذا البرج الى الجنوب الغربى من الجليل ، راجع فى تحقيق ذلك الموضع :
Aingle (D.), The Red Tower 1099-1516, P. 18.

(٢٧) الأرجح أن يكون هذا هو عيون القصبة كما تقول هيـلين نيكلسـون اعتمادا على ما جاء فى :
Lyons (M.), Jackson (D.), Saladin the Politics of the Holy War, 1982, p. 124.

(٢٨) اختلف المرجعان المعاصران لهذه الأحداث فى هذه التسمية ، واعنى بهما : Vainsauf : op. cit., p. 289. Ambroise, op. cit., liie 9512.

(٢٩) حدث فى مايو ١١٧٦ أن قام فريق من البارونات المتمردين على ريتشارد بحشد جماعات من المرتزقة من هؤلاء المذكورين فى المتن أعلاه ولكنه استطاع هزيمتهم .

(٣٠) كونت صنجيل الوارد فى الورد هو « ريموند » الخامس كونت تولوز .

(٣١) هذه اشارة من المؤلف تدل على معرفته بالميتولوجيا اليونانية التى تقول ان ماردا من قدماء المردة كان يحكم ليبيا وكان لا يصارع أحدا الا صرعه ، وكان كلما وقع على الأرض ارتد واقفـا وهو اكثر قوة وأشد باسا ، وتذهب الأسطورة الى أن هرقل عرف ذلك فجاءه من حيث لا يدرى ولا يتوقع ورفعه بيديه ولم يطرحه أرضا فكان فى ذلك نهايته .

(٣٢) يقع بيت نوبة على مسيرة يوم من القدس .

(٣٣) ويسميها البعض « أبو غوش » .

(٣٤) يتفق مؤرخنا و Ambroise, op. cit. فى أن هذه هى المرة الوحيدة التى رأى فيها ريتشـارد القدس ، وتشـير H. Nicholson, op cit., p. 328. الى أنه لم يصاحب الحجاج الذين زاروها فى سبتمبر ١١٩٢ بعد اتفاقية يافا .

(٣٥) على الرغم من أن روبرت بروجس هذا كان من الفرسان الاسبتارية الا أنه لم يرد له خبر فى الوثائق التى جمعها :
Delaville Le Roulx, Cartulaire general des Hospitaliers.

(٣٦) كان جارنييه النابلسى أحد كبار فرسـان الاسبتارية ثم صار الفارس الأعظم فيهم ، وقد صحب الملك ريتشارد ، وكان من مواليد الشـام ، وكانت وفاته يوم ٣١ اغسطس ١١٩٢ ، راجع عنه بالتفصيل :
La monte, Vascounts of Naplouse, 1938, pp. 372-278, Delaville Le Roulx, Les Hospitaliers, 105-1055

(٣٧) ننقل هنا بعض ما قاله « امبرواز » فى شأن هـذا الخـبر من ان الفرسـان جـاءوا الى جارنييه النابلسى يتوسـلون اليه أن يعفو عن بروجس فقال :

« Until good men of high renown
prayed of the Master knealing, down
That as a boon he grant then tis grace for the brother who remiss ..., In mercy he forbore.
But « Said he » Let him err no more ».

Cf. Ambroise, op. cit., lines 9929-9946.

(٣٨) يختلف المؤرخون حين يشيرون الى « بلدوين كارون » هذا حول جنسيته فهو عند بعضهم فارس فلمنكى على حين عده آخرون نرمنديا ، وان اتفقوا جميعا على أنه كان من الفرسان العظام ، راجع :
Norgate (Kate) Richard the Lion Heart, Lond., 1924, p. 187.

(٣٩) حين عرض له « لامونت » فى تعليقه على « امبرواز » قال عنه « الأغلب أنه انجليزى ، ولم يعرف عنه شىء الا ما ورد فى كلام امبرواز » .

(٤٠) خلت نسخة « امبرواز » من أية اشارة الى أى حدث من أحداث هذه الفقرة .

(٤١) بعد أن أشارت المؤرخة هيلين نيكلسون الى ما يمكن مقارنته من هذا الفصل بما ورد فى امبرواز عادت فأشارت الى أنه ورد من الكلام فى : Roger of Howden, Chronico قيـام ريتشـارد بغارة وصـل فيها الى كنيسة سنت ايليا ووجد صليبا يسميه الناس « بصليب الشوام » وهو مصنوع من خشب صليب الصلبوت ، ثم أشارت الى أن أحد النساك أعطى هذا الصليب للملك ريتشارد ، وكان اعتمادها فى ايراد هذا الخبر على ما جاء فى مصدر من المصادر الأولية ، راجع ذلك بالتفصيل فى :
H. Nicholson, op. cit., p. 333, n. 121.

★ ★ ★

حواشي الكتـاب السادس

(١) راجع الكتاب الخامس ٠

(٢) **وقد قاموا فعلا بمهاجمة بيروت بعد قليل ، انظر فيما بعد الكتاب** السـادس من هـذه الترجمـة ، ف ١٤ ، ونضـيف الى هذا ما جاء هناك ان **ريتشارد كان فى هذه الأثناء قد أتم رسم خططه للهجوم على مصر** ، راجـع **ما سبق : الكتاب الرابع ، ف ٢٧ ٠**

(٣) وردت الاشارة الى اختيار « الحكماء » هؤلاء فيما قاله « امبرواز » ، ولكنه لم يجعلهم عشرين ، وربما ألجاه الى ذلك ضرورة الشعر الذى التزم به فى تدوين تاريخ ريتشارد وفى ذكر هذه الحملة ، **وملخص ما يقوله « امبرواز »** ، انه اتفق أخيرا على أن يؤخذ من الداوية أربعة أو خمسة حتى ينتهوا الى قرار ، الى جانب كثير من الاسبتارية وجمع غفير من السـوريين من أهل البلاد (يقصد الذين من أصل أوربى) **وكثير من كبـار رجال فرنسا** » على حين أن البهاء يقول انهم اختاروا « **ثلاثمائة رجل انتخبوا من بينهم** اثنى عشر رجلا ، واختارو **هؤلاء من بينهم ثلاثة هم الذين يقررون الأمر » ، انظر :**

Ambroise : Op. cit., p. 38.

(٤) **يرى البعض أن المقصود بهؤلاء السوريين المشار اليهم فى المتن الرجال الذين من ذرية الأوربيين الذين استقروا فى بلاد الشـام وفلسطين منذ أيام الحرب** الصـليبية الأولى ، انظـر : H. Nicholson, op. cit., p. 337, n. 5.

(٥) **يتفق امبرواز من الجانب المسيحى ، وابن شداد من الجانب الاسلامى ، على انه كانت هناك ثلاث قوافل ، وان ريتشارد استولى على واحدة منها فقط ٠**

(٦) هذا الاسم فى أصله اللاتينى « Galatia » ولم أستطع الاستدلال على مرادفه العربى ، فآثرت أن أختار ما اختارته :

Nicholson (H.), op. cit., p. 261, line 242 & Index, p. 401.

(٧) **فيما يتعلق** بعدد هذه القوافل راجع الحاشية رقم ٥ ٠

(٨) فى امبرواز أربعة « راسخ » وهى مسافة تستغرق رحلة أربع ساعات ، وتشير Nicholson (H.), op. cit. الى أن « ستابز » ذكر فى تعليقاته أن **هذه** المسافة تعادل عشرة أميال من القدس ٠

(٩) **افاض البهـاء فى أخبار هذه** المفاوضات الجارية بين الطرفين **والتى** استمرت **قرابة خمسة** عشر **يوما** ما بين أخذ ورد ، فلمـا فشلت كانت الحرب بديلا ٠

(١٠) **ليس هناك ما يعرف « ببيلا » سواء من** البلاد أو الأشخاص وقد علق الأستاذ « **لامونت » على هذا فأشار – اعتمادا منه على ما ذكره**

Paris : La Traduction de la Legende Latine du Voyage de Charle-magne a Constantinople.

الى أن أمير « بيلا » هذا انما هو من ابتداع كاتب هذا الكتاب ، **ذلك أن « بيلا »** مكان ورد لأول مرة ولآخر مرة فى « **أغانى** الحرب » ٠ وزاد « **لامونت » على هذا بأنه ربما كان من الأرجح أن هذه الكلمة** انما هى اشارة الى الموضع المعروف « **ببير جيك » الواقع على الفرات والتابع لماردين** ، ويبنى هذا **الترجيح على ما ورد فى :**

Rey : **Les Colonies franques en Syrie**, p. 306.

وعلقت هيلين نيكلسون على هذا تعليقا يخالف ما سبق فقالت انه ربما كان المقصود بأمير بيلا هو ما أورده صاحب الكتاب الحالى فيما سبق (الكتـاب الأول) ، حيث ذكر ماير أنه هو أمير البيرة ، انظر :

H. Nicholson, op. cit., p. 349, n. 34.

Ambroise, op. cit., p. 398, n. I.

(١١) **الوارد فى النص الأصلى الذى كتبه مؤلفنا هو « *Filius Arcissi* » أى ابن الحشلش »** ، وسيرد بعد قليل (ف ١٤) ، برسم « *Assasisus* » وهو لفظ أعجمى للحشاش ٠

(١٢) المقصود بذلك « رالف » الذى كان أسقفا بيت لحم والذى لقب بالبطرك المنتخب فى احدى وثائق ١١٩٢ ، وان أنكر « لامونت » وجود هذه الوثيقة ، كما أنكر أيضا وجود أى شخص اسمه « رالف » يكون قد تولى أسقفية بيت لحم فقد ظلت هذه الأسقفية خالية من أحد ما يشغلها منذ سنة ١١٧٤ . انظر :

Mas-Latrie, Les Patriarches latins de Jerusalem. (Rev. O., Lat.), I, 18-19.

(١٣) اقتصر « امبرواز » على ذكر اثنين فقط هما « أوبرى دى ريمز » الذى كان من يافا ، وأما الثانى « فثيوبولد » (أو ثيوبوت) دى تروى وكان أحد اتباع كونت شمبانيا ، انظر فى ذلك :

Roger of Hoveden. Chronica (Eng. Translation).

(١٤) Ibid., Loc Cit.

(١٥) كان ذلك يوم الأحد الحادى والعشرين من رجب سنة ٥٨٨ اذا أخذنا بما جاء فى الجدول الوارد فى التوفيقات الالهامية ، ١/٦٢٠ .

(١٦) مزامير ٢٢/٤٤ .

(١٧) كان جوفرى « دى بوا » فارسا من الفرسان الانجليز من منطقة « هامشير » فى انجلترا ، انظر عنه ، فيما بعد حاشية رقم ٤٣ .

Siedschlag (B.), English Participation in the Crcsades, 1150-1220.

(١٨) كان بطرس دى برو عند غير مؤلفنا من الفرسان النرمنديين ، وقد لعب دورا هاما فى أيام الملك جون ملك انجلترا ، انظر : Powicke : Loss of Normandy, p. 499. وقد وصفه امبرواز فقال « كان من أشجع الفرسان وأعظم المحاربين » ، انظر فى ذلك : Ambroise, op. cit., lines 7537-8.

(١٩) المزامير ٧/٤٨ .

(٢٠) راجع فى هذه الأحداث ما أورده المؤرخ المسلم البهاء حيث أشار الى فرار المسلمين الى « يازور » .

(٢١) يوحنا ٢٣/٢١ .

(٢٢) على أن واحدا من المؤرخين الذى شاهدوا هذا الحادث فسروا الهدنة تفسيرا آخر حين زعم انها كانت من العادل حيلة استهدف من ورائها القبض على الملك ريتشارد .

(٢٣) راجع ما سبق ، لكتاب الخامس ، ف ٤٥ .

(٢٤) أمثال ٣٠/٣٠ .

(٢٥) يوحنا ٣٢/٩ .

(٢٦) يوحنا ٦٧/٦ .

(٢٧) صمويل أول ٨/٢٢ .

(٢٨) فيما يتعلق بهذه الشروط وما جرى حولها وفحواها يمكن للقارىء مراجعة البهاء : وكذلك الكامل لابن الأثير ، وكان من هذه الشروط أن يكون الحكم فى يد الصليبيين فى كل من صور وعكا وقيصرية وارسوف ويافا وملحقاتها ، ولكن لا يكون لهم شىء فى الناصرة ولا صفورية . أما الرملة واللدة فيتقاسمهما الجانبان بالتساوى ، وأما عسقلان فتهدم وتصير أنقاضا وتسوى بالأرض . ويقتضى هذه الاتفاقية أعاد صلاح الدين نصف صيدا لصاحبها الأصلى « رينو » ، انظر تعليق « لامونت » فى Ambroise, op. cit., p. 431, n. 3.

(٢٩) أمثال ١/٢٧ .

(٣٠) مزامير ١/٦٣ .

(٣١) أمثال ١/٢٢ .

(٢٩) يذهب ابن العبرى الى أن المقصود من هذا الأمر المشار اليه فى المتن هو الحيلولة بين حجاج القبر المقدس وبين الوفاء باليمين الذى اقسموه .

(٢٩) كان « رالف تايسون » يحكم بعض أقاليم نرمنديا كما كان يملك أملاكا واسعة فى « كنت » بانجلترا « ونوتنجهام شير » وقد انضم الى جانب فيليب فى نزاعه مع « جون » مما أفقده أملاكه فى انجلترا ، ثم حمل الصليب سنة ١١٨٨ ، وكان على رأس فريق من الحجاج الى القدس ، انظر :

Powicke : Loss of Normandy, p. 513.

وقد وصفه « امبرواز » بأنه كان محبا للموسيقا والغناء العذب ، انظر فى ذلك : Ambroise, op. cit., lines 11879-11880.

(٣٠) متى ٢٥/٥ .

(٣١) مزامير ٤٤/٤ .

(٣٢) الوارد فى امبرواز ، « انهم ناموا ليلتهم هذه الى جانب أحد الأسوار » .

(٣٣) المقصود بذلك الحجاج الذين ذكرهم المؤلف فى ف ٣٢ .

(٣٤) هذه اشارة صريحة الى أن مؤلف هذا الكتاب كان من بين هؤلاء الحجاج الصليبيين .

(٣٥) لم نستطع الاستدلال على هذا الجبل .

(٣٦) انظر قاموس الكتاب المقدس ، مادة « جمجمة » ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٣٧) Nicholson (H.), op. cit., p. 337, n. 93.

(٣٨) فيما يتعلق بيهوشافاط ، راجع قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٠٩٤ ـ ١٠٩٥ .

(٣٩) علقت المؤرخة هيلين نيكلسون أن الداوية اتخــذوا من المسجد الاقصى اصطبلا لخيولهم يحفظونها فيه ، راجع :

Nicholson (H.) op. cit., p. 337, n. 94 ; Theodoric, description of the Holy Places (Eng. Trans. by Stewart, Lond. 1891). pp. 30-31.

(٤٠) هذا نص آخر صريح على أن مؤلف هذا الكتاب كان من الذين حاربوا فى هذا اليوم .

(٤١) علل امبرواز هلاك هذه الأعداد الكثيفة من المحاربين الحجاج الى أنهم حرموا على أنفسهم ما يكون هناك من علاقات بين الرجل والمرأة « تكريما لأنفسهم وبعــدا بها عن الخطيئة » وهو يقول فى ذلك ..

In Pilgrims' hearing I declare
hundred Thousand men died there.
Because from women they Abestained
T was for God's love that they restraine

Cf. Ambroise, op. cit., p. 444, lines 12236-12240.

وعلقت المؤرخة هيلين نيكلسون على ما يقوله « امبرواز » ثم أضافت الى ذلك أن القاعدة التى يجرى عليها فرسان القديس يوحنا تحرم عليهم أن يسمحوا للنساء بلمسهم حتى ولو كان الأمر لا يتجاوز أن يكون المسح على رؤوسهم ، ونحيل القارىء الى مزيد من ذلك الأمر الى ما ورد فى :

Delaville Le Roux : Cartulaire general de l'ordre de St. Jean de Jerusalem. 1100-1310, Vol. I.

(٤٢) علق مترجم نسخة « فانسوف » على هذا اللفظ بقوله ، « ربما كان هذا هو رأى جوفرى دى فانسوف الذى هو أحد قساوسة القــرن الثــانى عشر ثم يتــابع تعليقــه بمــا يســـتفاد منه انه ما كان لريتشـــارد أن يفعل غير هذا الأمر حيال فارسه والا دنس شرفه ان هو غادر الأرض المقدسة قبل أن يطلق سراحه ، انظر :

Vinsauf : Contemparary narrative of the Crusade of Richard Coer de Lion,t p. 367.

(٤٣) يسميه فانسوف فى المرجع السابق باسم وليم « Pratelles » . راجع ما سبق رقم ١٧ .

(٤٤) راجع ما سبق . الكتاب الرابع ، ف ٢١ ، ٢٢ .

(٤٥) راجع الكتاب الأول ، الجزء الأول ، الفصل ٢١ ، ٢٢

Appleby (J.), England without Richard.

(٤٧) فراغ فى الأصول .

الفهـــــرس

الموضـــوع الصفحة

الكتــاب الخامس ١٢٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذا هو الجزء الثانى من كتاب الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، الذى ترجمه الأستاذ الدكتور/ حسن حبشى، أستاذ كرس التاريخ الوسيط بجامعة عين شمس، وهو يعد وثيقة تاريخية على جانب عظيم من الأهمية.

وكما ذكرنا فى تقديمنا للجزء الأول، فإن مؤلف الكتاب مجهول، ولكن كان مقاتلاً فى جيش ريتشارد قلب الأسد، ولذلك فالكتاب يصب اهتمامه على الملك ريتشارد، حتى ليعد ترجمة له.

ويختلف هذا الجزء الثانى من الكتاب عن الجزء الأول، بمشاركة كل من صلاح الدين وريتشارد فى صنع الأحداث، وهو يعطى للقارئ المتخصص والمثقف الفرصة لمقارنة مادته بمادة المصادر العربية والإسلامية التى تناولت تاريخ الحرب الصليبية الثالثة.

مطابع الهيئة المصرية العامة
٤٢٥ قرشاً